৮২৩৪/৮।A

نظام العالم والأمم

أو

الحكمة الإسلامية العليا

تأليف

﴿ العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة ﴾

الشيخ طنطاوي جوهري

الجزء الثاني

سنة ١٣٥٠ هجرية — ١٩٣١ ميلادبة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

نظام العالم والأمم

أو

الحكمة الاسلامية العليا

تأليف

﴿ العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة ﴾

الشيخ طنطاوي جوهري

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

سنة ١٣٥٠ هجرية — ١٩٣١ ميلادية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس

الكلام على الانسان

ان الناس فى نظرهم للانسان أربع طوائف :

الطائفة الأولى — الشعراء

الطائفة الثانية — الرياضيون

الطائفة الثالثة — علماء التشريح (والطائفة الرابعة علماء النفس والفلسفة وسيأتى ذلك فى الباب السابع) وفى هذا المقام مبحثان

المبحث الأول — فى ظواهر علم التشريح

المبحث الثانى — فيما يهم من حقائق علم التشريح وفى هذا المبحث ستة فصول

الفصل الأول — فى ان جسم الانسان كالآلة البخارية

الفصل الثانى — فيما يوافق الانسان من الأغذية وما لايوافقه

الفصل الثالث — فى بيان ان هـذه الأغذية مقسمات على مافى الجهز الهضمى من الآلات المعدة للهضم بالفطرة

الفصل الرابع والخامس — فى بيان الجهاز التنفسى والدورة الدموية

الفصل السادس — فى الجهاز العصبى

الطائفة الأولى

انك إذا نظرت إلى النوع الانسانى عرفت بأدنى التفاتة انهم جميعاً يلهجون بما يشاهدونه من محاسنه الطاهرة وعجائبه الباهرة المدهشة للناظرين بالحواس الخمس فتراهم يصفون كل عضو من أعضاء البدن بوصف دقيق وينثرونه وينظمونه حتى كان شعراء العرب فى الجاهلية والاسلام لاينظمون القصائد لمدح الملوك إلا ويذكرون فى أوائلها دقائق المحاسن .

واذا تصفحت أكثر كلامهم وجدتهم به لهجين وهذا شائع فى الكتب لايجهله أحد من أهل العلم فلا ترى كتابا من كتب الأدب إلا وفيه نبذة أو نبذ من ذلك ، ولعمرى ان فطر الانسان صادقة ترمى الى غاية اذ الانسان كما قلنا نهاية الابداع فقد جمع المحاسن واللطائف كاللمس والشم والسمع والنظر ثم التخيل والعقل فقد جمعت فيه جميع المحاسن التى تلذ الانسان ولا ريب انها مفرقة فى هذا العالم فبعض ذلك يلتذ بالنظر اليه أو لمسه أو ذوقه أو سمعه أو شمه أو التفكر فى محاسنه أو اثنين أو أكثر والانسان هو الذى جمع هـذه اللطائف والمحاسن كلها ولذلك ترى الشعراء يشبهون أجزاءه بأجزاء هذا العالم فقال بعضهم :

أشمس فى غلالة أرجوان   وبدر طالع أم غصن بان

وثغر ما أرى أم نظم در   ولحظ ماحوى أم صارمان

وخد فيـه تفاح وورد   عليه من العقارب حارسان

[illegible] نظر كيف شبه كل عضو بجزء من العالم وتارة يفضلونه عليها كقول بعضهم :

[illegible] مرحبا يامن تشبهها   بالشمس فى الحسن لا بل أنت هاجيها

[illegible] من خال فوق وجنتها   ومبسم مثل نظم الدر فى فيها

[illegible] الشعراء هم المصحرون عن المنظر الظاهر فى الانسان ومناهم فى دلالت [illegible]

[illegible] الراجز والموالى وفى هذه المرتبة كان عشاق يوسف عليه السلام

فقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشراً ان هذا إلا ملك كريم ، ولعمرك ماهذه المحاسن الظاهرة إلا رمز لما وراءها وعنوان على مابعدها كما ان محاسن السماء وزينتها وجمال النباتات وبهجتها وبدائع الحيوانات ودقتها اعراب عما وراءها لتتوق النفس إلى ماوراء هذا الجمال البديع .

ولقد اختلفت الفطر وبحث كل عما يرمى اليه غرضه ويصل اليه فهمه (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) . فهذه المحاسن بالطبع تدعو الى التعاشق والتزاوج لجميع النوع الانسانى كما تدعو أولى النظر للتفكر فى دقيق المحاسن التى وراءها.

فوقف نظر العامى عند الظاهر واكتفى بأنواع الازدواج كما تزدوج النباتات والحيوانات فيأكلون ويشربون (كما تأكل الأنعام) وكما وقف نظر الزارع من زرعه على القوت والملابس وهكذا مربو الحيوانات المنزلية كل وقف نظره على مأكله ومشربه من ذلك ولقد ترقى عن هؤلاء قوم وهم

الطائفة الثانية

وهم الناظرون فى الرياضيات

قالوا ان لكل ظاهر باطناً ولابد لهذه المحاسن الجميلة والبدائع واللطائف من حساب منقن وهندسة محكمة إذ لسنا كهؤلاء الشعراء والعامة الذين وقفوا على الظواهر وانما نحن أرقى منهم عقلا وأسمى نظراً وأصح فراسة وقد قال الله تعالى (إن فى ذلك لآياتٍ للمتوسِّمين) وهم أرباب الفراسة وقال(فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى)وقال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسنِ تقويم) . ثم نظروا فوجدوا بالاستقراء ان الانسان اذا اعتدل خلقه فى الرحم ولم يمسسه سوء يحول وجهة خلقه كانت له مقادير معينة وأوضاع محكمة . فقامته ثمانية أشبار بشبره وقد قسمت أربعة أرباع فمن مفرق رأسه . الى رأس فؤاده شبران ومنه الى حقويه شبران ومن حقويه الى رأس ركبتيه شبران ومن رأس ركبتيه الى أسفل قدميه شبران فهذه أربعة

أقسام متساوية متى استقام وضع الجسم ولم يحصل فيه تنوع يوجب بعض الاختلاف فاذا مد يديه الى أعلى كان عشرة أشبار بشبره خمسة من رؤوس أصابع يديه الى سرته وخمسة من سرته الى أسفل قدميه و إذا مد يديه الى اليمين واليسار كان الباع كله ثمانية أشبار كطوله فتأمل كيف كان طوله كعرضه مع مد يديه وما هذا الوضع العجيب الغريب ثم ترى هذا الباع أيضاً مقسما أربعة أقسام كتقسيم الطول من رؤوس الأصابع الى المرفقين الربع والى الترقوة النصف فانظر كيف تشابه التقسيمان وتناسق الوضعان .

ثم ان طول وجهه وهو ما بين أذنيه شبر وربع وعرضه وهو ما بين منابت شعره ورأس ذقنه شبر وثمن وطول أنفه ربع شبره وهكذا طول شق فمه وشفتيه وطول جبينه ثلث طول وجهه وطول قدمه كطول وجهه شبر وربع وطول كفه من الكرسوع الى رأس الأصابع الوسطى شبر واحد والابهام والخنصر متساويان ورأس البنصر زائد على الخنصر نصف ثمن شبره وكذلك الوسطى على البنصر وهكذا ترتيب الابهام والسبابة والوسطى كل يزيد عما تحته نصف ثمن الشبر فالوسطى اليها تنتهى الزيادة والطرفان متساويان وما حول الوسطى كذلك بل حال الأصابع وترتيبها يفهمنا ترتيب الحياة إذ يخلق الانسان من ضعف الى قوة الى ضعف من الصبا الى الشباب والكهولة الى الشيخوخة

وما بين الثديين شبر واحد ومن السرة الى العانة شبر واحد ومن رأس فؤاده الى رأس ترقوته شبر واحد و بين المنكبين شبران اثنان وهذه المقاييس تحتاج الى عناية وتدقيق ومن هذا تعلم قوله تعالى (وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ،وخلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرهَ تقديراً) وقوله(وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلا) وقوله(يدبر الأمرَ يفصّلُ الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ولأكتف بهذا القدر مما ذكره هؤلاء الرياضيون عن هذا الانسان العجيب فبحثوا بما يناسب فهمهم وعلى مقدار علمهم ثم ترقى عن هؤلاء قوم ونظروا فيما هو أدق من ذلك وهم علماء التشريح المدققون وهم .

الطائفة الثالثة

(علماء التشريح) رأى بعض علماء العرب والفرنجيين وعليه مدار التعليم فى مدارسنا الآن إن الطبيعيات مؤخرة عن الرياضيات وهناك رأى آخر درج عليه صاحب الهداية وغيره يقدم الطبيعيات على الرياضيات (ولِكلٍّ وِجْهة هوَ موَلّيها) وهؤلاء نظروا فقالوا إن هذه المحاسن التى ولع بها الناس من العامة والشعراء والمقادير المقياسية التى عرفها الرياضيون لابد وراءها من سر عجيب وكما أن انتظام أوراق الأشجار وقياسها البديع واتساق أعضاء الحيوان بمقاييس معينة وحساب الشمس والقمر وانتظام سيرهما فى دوائرها وهكذا الأنوار والظلمة وهندسة العالم كله دلت العلماء على نظام عجيب من هذا الحساب الطاهر ، فبحث النباتيون عن التحليل والتركيب فى المواد وهكذا علماء الفلك حللوا الضوء بالبللورات المنشورية واستنتجوا منه المواد المكونة للشمس والقمر و بعض الكواكب ولا زالوا يوالون البحث بانوار الآلات حتى عرفوا بعض أشياء ظنيه مما على سطح القمر والمريخ بل حاول رجل فى زماننا هذا فى أمريكا أن يخترع طريقة أن يكلمهم بالتلغراف الذى بلا سلك ؟ فلنبحث عن هذا الانسان المشاهد أمامنا فلابد أن يكون فيه من الحكمة العجيبة ما يجهله هؤلاء إذ العلم ولذته هى الباقية للروح بعد الموت بل هى اللذة الحقيقية للانسان اذا عقل وهاك ملخص ابحاثهم .

تأمل فى وضع جسم الانسان وما أوتى من حق اتقانه تجد عجباً عجابا تجده كساعة بها طاهر بروق وآلات ترتب بعضها على بعض بحيث لو اختل واحد منها لاختل باقيها أو احتاجت الى الاصلاح فمثل الانسان كمثل الساعة متى اختل جزء من أجزائه تألمت الأجزاء الأخرى ولكن بينهما فرق من وجوه

(١) فالساعة من مواد معدنية كالحديد والذهب والفضة وغيرها ففيها التماسك بنفسها طبعاً بخلاف الانسان فانه من مواد نباتية وأخرى حيوانية وأغلبه ماء يبلغ نحو ٨٠ جزء من مائه منه فكل هذه الاجزاء لا تماسك بطبعها فياليت شعرى كيف

وضعت على وضع تراه فى اتقانه أرق من الساعة بما لا يتناهى

(٢) ان الساعة اذا اختل جزء منها أسرع الخلل الى باقيها طبعاً ووقفت حركتها .

والانسان لا تقف حركته بضعف جزء منه بل ولا قطع عضو أو عضوين بل يشتغل بالباقى فى منافعه مع تركيبه من أجزاء رطبة رخوة وتركب الساعة من أجزاء متماسكة

(٣) اذا اختلت الساعة فمصلحها من خارج أما الانسان فانه يسعى على الدوام لاصلاح جسمه بالقوت والملابس فمصلحه فى أغلب الأحوال هو نفسه فيأكل ويشرب ويدفع من يؤذيه بهذا السر العجيب وهى الروح المنبثة فيه المحركة له

(٤) وتركيب الساعة ليس فيه كثرة وانما هو بالنسبة لتركيب الجسم قليل التركيب

واعلم أن الشيء كلما كان أكثر اتقانا وأجمل وضعاً وأحسن تركيباً كان أكثر نفعا وأتقن صنعاً . وجسم الانسان حاز من حسن التركيب ودقة الوضع ما حار فيه أولو الألباب وقاسوه بنظام السموات والأرض فقالوا اننا بنظرنا الى عالم السموات والأرض رأينا بها مزاجاواحدا كمزاج الانسان والله هو المدبر لها وفيها ترتيب كترتيب جسم الانسان .

وكم ضربوا الأمثال للعالم وخالقه بالجسم وروحه وهكذا وعلماء السياسة وعلماء تكوين الشعوب كأبى نصر الفارابى يقولون ان المدينة الفاضلة هى التى تشبه وضع الانسان فانظر كيف أشبه العالم كله والمدينة الفاضلة وسيرد عليك هذا فيما سيأتى بأوضح بيان ولعل هذا شاقك الى معرفة وضعه لتقيس عليه المدينة الفاضلة وترتيب السياسات ودرجات الناس فيها فهاك

أول ما ينال الصبى شهوة الغذاء فيأتى له عرق متصل بأمه يغذيه بدم الحيض ويدخل فى السرة وينتشر فى سائر أجزائه فلا يحتاج الى طعام من خارج ولا الى إدخاله من الفم فاذا استهل من بطن أمه قطع ذلك العرق وعوض عنه بثدى أمه فأول ما يعطى شهوة الغذاء ثم حاسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر ثم قوة التخيل ثم العقل فبهذه القوى والادراكات مع الحركة يجلب ما يغذيه ويدفع ما يضره فاذا حصل الطعام ومضغه بفمه ونزل فى المرىء فالمعدة فالاثنا عشرى فالامعاء الدقاق وهكذا حتى وصل

الى القلب فرقه على سائر أجزاء البدن بالدورة الدمويه الآتية من الدم بخلاصة لطيفة جداً وهى حرارة تنبعث من القلب مع الدم تسمى الروح الحيوانى وتصل الى الدماغ بكثرة وقد جعل فى هذا الأخير رطوبة طبيعية متى وصلتها تلك الحرارة المنبعثة عن القلب وزعتها على سائر أعضاء البدن بالتساوى فالروح الحيوانى منشؤه القلب والموزع له مع حفظ النسب لكل قطعة من الأعضاء هو الدماغ ولذلك كانت أعصاب الحس وأعصاب الحركة انما يصدران عن الدماغ والنخاع الشوكى المتصل طبعاً به . وتوضيحه أن الانسان له حواس خمس يحس بها ما يرد عليه من خارج ليعرف ما ينافر وما يلائم فتقوم الأعضاء من اليدين والرجلين وغيرها بدفع المنافر وجلب الملائم بما لها من العضلات والعظام والرباطات والأوتار .

فههنا حركتان إحداهما من الخارج إلى الداخل حتى تصل إلى الدماغ والأخرى من الداخل الى الخارج

فالحواس تحس بالخارج وتوصله أعصاب الحس الى الدماغ ثم يأمر الحاكم الذى فى الدماغ أعصاب الحركة فتحرك الأعضاء تارة للطلب وأخرى للهرب فكل من أعصاب الحس وأعصاب الحركات لم يكن منشؤها الا من الدماغ أو النخاع الشوكى إلا أنها ثلاث درجات فمنها أعصاب تحتاج الى أن تكون حرارتها الحيوانية خالصة من المادة الكربونية وهى أكثر أعصاب الاحساس فكان محلها الدماغ إذ الحس لطيفه فوجب فى الحكمة خلوص الحرارة الحيوانية لأعصابه

ومنها أعصاب تحتاج مع الحرارة إلى مادة تكسبها لزوجة لتقوى على فعلها . وتلك هى أكثر أعصاب الحركة فكانت مغارزها فى النخاع الشوكى .

ومنها أعصاب تحتاج الى زيادة يبس عما قبلها فكانت مغارزها فى العصعص أسفل فقرات الظهر وعدد الجميع ثمانية وعشرون فى الرقبة سبعة وفى الظهر اثنا عشر وفى القطن خمسه والعجز عظم واحد مفصل إلى ستة ملتحمة من بعد الولادة والعصعص ثلاثة ولا تلتحم إلا فى سن الأربعين فهذه ثمانية وعشرون فقرة

فتأمل كيف وضع كل شيء فى موضعه فان هذه الأعصاب لو كانت مغارزها فى القلب نفسه لاحترقت لشدة حرارته فانظر كيف اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مغارزها فى الدماغ الذى جعلت فيه رطوبة حتى فى الملمس لتلطف تلك الحرارة وتأمل كيف كانت أعصاب الإحساس ناجمة من الدماغ الذى يتعالى عن المواد الكربونية الدخانية وأعضاء الحركة تحتاج الى لزوجة تساعدها على الانقباض والانبساط لتسهل بها الحركة فكانت مغارزها فى النخاع الشوكى المتصل بالدماغ وبالجملة فكلما كان عمل الأعصاب ألطف كانت مغارزها أعلى وكلما كان عملها محتاجاً إلى معاناة وشغل جثمانى كانت مغارزها أسفل بمقدار تلك المعاناة والنصب . فالقاعدة فى أعمال الجسم ان الأعلى أشرف والأدنى أنزل منه بترتيب محكم ووضع متقن

وإذا نظرت الى صورة الجسم وتلك الأعصاب رأيتها كشجرة أصلها ثابت فى الرأس وساقها مار بالنخاع الشوكى والفروع خارجة من الجذع الذى فى الرأس ومن الساق فى جميع أنحاء الجسم . وبالجملة فالدماغ بمنزلة ملك المدينة الفاضلة يوزع الحرارة الحيوانية بمقادير مخصوصة لكل عضو من أعضائه ويخص تلك الأعصاب بفضل عنايته كما رأيت وباعتدال الحرارة يعتدل فعل القوة المخيلة التى تحلل وتركب وتمثل الصور التى نقلتها الحواس بواسطة الأعصاب الى الحس المشترك وهو يعطى المخيلة مالديه منها . ويعتدل فعل القوة الناطقة التى تنظر فى الكليات . ولسنا الآن بصدد بيان تلك القوى وانما ذكرناها لبيان اعتدالها بواسطة فعل الدماغ وعدله فى توزيع الحرارة الحيوانية . وفى كتابنا ميزان الجواهر مافيه الكفاية لمعرفتها فراجعه ان شئت وسيأتى فى هذا الكتاب أيضا

ويلى الدماغ فى المرتبة القلب إذ منه ينبعث الدم لسائر البدن وكذا الحرارة والدماغ هو المنظم لها والآمر والناهى والمحرك والمسكن .

فالقلب مشتغل بمعالجة المادة الغليظة وهو الدم . والدماغ انما يعالج ماهو ألطف وأسرى وهى الحرارة الحيوانية التى هى الخلاصة . ومن آثار ذلك ان الدم اذا تغير

انحرف الدماغ واذا اعتدل اعتدل اذن الأشرف يعالج الألطف ، والأ[illegible] مرحلة يعالج ماهو غليظ.·. والرأس أعلى البدن أما القلب فهو فى وسطه فالقلب كالوزير والدماغ كالملك ولا تظن ان هذا التشبيه بعيد بل هو قريب . وما مثل الدماغ مع سائر البدن الا كمثل ملك أمامه خدام البريد ومعهم آلات التلغراف الواصلة الى أطراف المملكة فيقبل الاخبار من الخارج و يصدر أوامر اليه فاليه الوارد ومنه الصادر وهو المدبر للحركة العمومية وقد وضح المقام لكل ذى لب

وللدماغ وزيران أحدهما القلب والآخر القوة المولدة وأيضا ان الإنسان خلق فى الدنيا ولا بد له من الحياة الى أجل مسمى واقتضت الحكمة الالهية والعدل أن يموت ليقوم فى مادته صور أخرى كثيرة وكلما خلعت صورة لبست أخرى إظهاراً للقسط والعدل فلا بد من الموت والحياة و إلا لكان العالم بلا عدل ولا حكمة تامة واذا كانت الأشخاص تموت فلا بد من بقاء النوع لتحصل عمارة الأرض و يكثر المنعم عليهم . فجعل لبقاء الشخص القلب ولبقاء النوع قوة التوليد فالقلب كالوزير الأول وقوة التوليد كالوزير الثانى أما القلب فتخدمه الرئة فى الصدر والكبد تحت الحجاب الحاجز بين البطن والصدر فالأول يأتى له بالهواء والثانى بالدم و إيضاحه

ان الانسان يحس بحواسه فيعرف الأغذية و يتناولها بيديه ففمه فيمضغها و يساعد الريق فيه على هضمها وهو المسمى بالهضم الأول ثم يندفع الى البلعوم فالمرىء فالمعدة وهناك يطبخ بمساعدة سوائل أخرى هناك حتى يصير كماء الشعير وتسمى كيموسا ثم ينزل منها الى الاثنا عشرى فيزيد طبخه بمساعدة البنكرياس والمادة الصفراوية الآتية من الصفراء المفرزة فى الكبد لتحلل المادة الزيتية الباقية فى الطعام و بعد أن يتم نضجها فى الاثنا عشرى تنزل فى بقية الامعاء الدقاق الموضوعة وضعا تعريجيا وفيها غدد صغيرة لا ترى الا بالنظارة المعظمة كثيرة جدا تمتص خلاصة ذلك المطبوخ على هيئة مادة بيضاء كاللبن الأبيض تسمى كيلوساً تذهب فى الوريد الذى يذهب صاعداً الى أعلى ثم تصل الى الكبد فيطبخ تلك المادة

معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء

وأنت تعلم ان كل مطبوخ فلا بد له من مادة غليظة أسفله ورغوة فى أعلاه ومائية تتخلله ولا يمكن هذا المطبوخ أن يؤدى وظيفته الا اذا خلص من تلك الشوائب فالرغوة فى الدم انما هى الصفراء فاقتضت الحكمة الالهية أن تذهب تلك المادة الى عضو رقيق يسمونه المرارة تجتمع فيه الصفراء وتذهب الى الاثنا عشرى كما تقدم وهو أول الامعاء الدقاق مما يلى المعدة ويسمى بذلك لأنه اثنا عشر قيراطاً ثم تسير مع الغذاء فى مجراه وتسلك سبيله هذا غاية المادة الصفراوية

أما الماء فيذهب فى عروق الى الكليتين وهما يدفعانه الى الحالبين الى المثانة الى القضيب الى الخارج

أقوال القدماء وحكماء العصر فى الكبد وظهور حكمة الله تعالى فيه

وبقيت المادة الغليظة التى تكون عادة فى أسفل المطبوخ المسماة بالدردى والعكر وهى المسماة بالسوداء فقال الأقدمون انهـا تصل الى الطحال وهو يجعلها جزئين جزء يصل الى فم المعدة فيحرك الشهوة وجزء يذهب مع الخارج من الامعاء الغلاظ ولكن المحدثون لم يكتشفوا الى الآن له وظيفة يعرفونها وغاية الأمر انهم عرفوا ان فى الجسم كرات بيضاء ذات حياة تخترق كافة العضلات والأوتار والعروق وهذه تارة تكثر وتارة تقل وظيفتها انها اذا وجدت مواد سمية اجتمع منها عدد وأخذ تلك المواد ووضعها فى ناحية من نواحى الجسم لا يضره هذا السم وكذلك اذا حصل قرح فى عضو من الخارج أسرعت اليه تلك الحيوانات كلمح البصر وتراكمت على ذلك المكان فامتصت الحرارة المحرقة له وصارت هى نفس القيح الذى به نقل الحرارة عن الجرح فيستريح المريض فاذا قارب الشفاء تراكمت أيضا فصارت لحماً يلتئم به الجرح وهذا فى المكتشفات

الحديثة فهذه الكرات البيضاء المالئة لاجزاء الجسم ولا ترى الا بالمنظار المعظم قد اكتشف انها كلما كثرت فى الجسم كبر الطحال فلا بد اذن من علاقة بينها و بين الطحال ﴿ وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ الاَّ هُوَ وَمَا هِيَ الاَّ ذِكرى لِلبَشَرِ ﴾ . ولقد صنعوا تجربة فقطعوا طحال كلب فكثرت تلك الكرات البيضاء فى الدم جداً فمات ذلك الحيوان وهذا أمر عجيب جداً فقد قارب المتأخرون أن يكتشفوا ما ذكره الأقدمون فان هذه الكرات البيضاء ما هى الا فضلات الدم التى سماها الأقدمون السوداء والكبد هو المصرف لها وفى ظنى أن بين أقوال الفريقين قربا يظهره المستقبل .

هذا آخر ماوصل إليه النوع الانسانى فالأقدمون هكذا تقريرهم والمحدثون أنكروا أولا فعله فى الجسم بالكلية وقالوا لم يعرف له وظيفة ثم اكتشفوا تلك الكرات البيضاء ولاحظوا تلك العلاقة معه تخميناً .

موازنة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح

لعمرى لقد حار الأقدمون والمحدثون فى الكشف والعلم وأقروا بالعجز وانبهر حكماؤهم وعجز علماؤهم وقالوا لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . ان نظرنا الى علماء الفلك وجدناهم صاغرين أمام هذه الحكمة الباهرة مقرين بالعجز والتقصير غير معجبين بعقولهم يثبتون اليوم مانفوه بالأمس ثم يقرون على مانفوه فيثبتونه . فيالله والعدل فكأن الله لما نظم ملكه على العدل وحسن النظام أراد أن يرينا العدل أيضا فى العلم والاعتقاد . فترى علماء الفلك قبل بطليموس كانوا يحكمون بدوران الأرض حول الشمس ثم عكس القضية بطليموس ثم جاء من بعدهم كورنيكوس وأرجع الهيئة الى حالها الأولى والاعتقاد الأول وسبقه الى ذلك علماء الاسلام كما أوضحناه فى جواهر العلوم . وان نظرنا الى علماء الطبيعة نراهم حيرتهم أجسام الانسان وفعلوا فى التشريح فعل علماء الهيئة فى الافلاك من الاثبات تارة والنفى أخرى فهاك مسئلة الطحال أثبت له الأقدمون فعلا كما علمت وجاء المتأخرون فقالوا أولا لا وظيفة له ثم قالوا له علاقة بالكرات البيضاء فقد قاربوا أن يكشفوا عمله هذا ولنرجع الى مانحن فيه فنقول

ترتيب الأعضاء الباطنة فى جسم الانسان

اعلم أن الخادم للكبد ثلاثة أعضاء وهى المرارة والكلية والامعاء باتفاق الحكماء الماضين والحاضرين ولكل منها خوادم درجات بعضها فوق بعض فيخدم المرارة العرق الموصل الى الاثناعشرى وهو يخدم ما بعده المخدوم بما بعده وهكذا الكليتان وهما موضوعتان فى الجزء العلوى من البطن وشكلهما كحبة اللوبيا يخدمهما الحالبان فالمثانة فالقناة البولية والأمعاء تخدمها المعدة فالفم فاليد . فالكبدهو المخدوم لهذه كلها بعضها يجلب النافع و بعضها يدفع الضار و يبقى خالص الدم فيؤديه الى القلب وهو المقصود الحقيقى أما تلك الشوائب فانها تخرج منه لمصالح وحكم عجيبة فانظر كيف كانت المرارة مساعدة على تحليل مواد الغذاء الحاصلة فى الاثنا عشرى فما أعجب هذه الحكم وأدقها حتى قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) اشارة الى هذه الحكم العجيبة

وهذه الخوادم كما رأيت كل واحد منها خادم من جهة ومخدوم للأخرى من جهة الا الأطراف فانها خادمة لا مخدومة كاليد وكلها كما رأيت موصلة للكبد وهو يخدم القلب فهو خادم ومخدوم أيضا والقلب يخدم الدماغ فهو مخدوم وليس عليه رئيس فالرئاسة الكبرى للدماغ الذى ليس عليه رئيس وبقية الأعضاء خادمة ومخدومة باعتبارين الى أن تصل الى الأطراف فتجدها خادمة لا غير . وكلما كان عمل العضو أقرب الى الرئيس كان عمله أشرف . ثم الشرف والخسة تارة يكونان باعتبار المادة التى فيها العمل ولا ريب أن الحرارة الحيوانية أشرف من البول فعضو الأول وهو الدماغ أشرف من عضو الثانى وهى المثانة

وتارة يكون باعتبار كثرة العمل وقلته فالقلب بلا ريب أكثر عملا من الكبد مثلا فهو أشرف بهذا الاعتبار وتارة باعتبار كثرة النفع وقلته فرب عامل يعمل قليلا ومنفعته أكثر ممن يعمل كثيرا كأعصاب الحركة فان معاناتها أشق وأصعب ولكن أعصاب الحس أكثر نفعاً إذ هى موجبة للعلم وهو أشرف من العمل .

وإلى هنا عرفنا الحكمة الالهية فى الكبد وخوادمه

ان الغذاء بعد مروره من الامعاء الدقاق وقد أخذ الكبد خالصه تبقى هناك حثالة فتخرج فى وعاء متعرج يسمى الأعور منسد من أسفل مفتوح من أعلى فتصل إلى الامعاء الغلاظ فتذهب فيه تلك الفضلات الى وعاء متعرج يسمى السينى وتنزل منه الى وعاء آخر نازل على الاستقامة الى أسفل يسمى بالمستقيم فكأن الطعام فى مروره من أعلى الى أسفل انطبخ حتى اذا وصل الى وسط الانسان أخذت خلاصته وذهب ثقله الى أسفل فلله الحكمة البالغة والصنع العجيب (صنعَ اللهِ الذى أتقنَ كلَّ شىء) فمن هنا نفهم اتقان شخص الانسان أما اتقان النوع فيكون عند ذكر المدينة الفاضلة وقياسه تماما على جسم الشخص الواحد لنفهم معنى قوله تعالى : (ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذا ما أردنا ذكره بالنسبة للكبد الذى هو أحد خادمى القلب أما الخادم الثانى فهى الرئة

الرئة

اعلم أن الحكيم جلت قدرته جعل الفم باب الجسم يدخل منه الطعام والشراب الواصلان إلى المعدة أسفل الحجاب الحاجز فى الجهة اليسرى من البدن ويدخل الهواء أيضا منه الى الحنجرة الى القصبة الهوائية المتفرعة فرعين داخلين فى الرئتين اللتين وضعهما الحكيم جلت قدرته فى الصدر وهما عبارة عن أنسجة كالاسفنج تتخللها تلك الشعب الدقيقة الحاملة للهواء . ودخول الهواء فى الرئتين يحدث بحركتين شبيهتين بحركة المنفاخ إحداهما حركة الدخول بانتفاخ الصدر المسماة بالشهيق والأخرى حركة خروج بالانقباض المسماة بالزفير ولكل منهما حكمة عجيبة . أما حركة (الشهيق) فبها يدخل الهواء فى الرئة وقد علم فى المكتشفات الحديثة أنه مركب من خمسة عناصر وهى الاكسوجين والأزوت (النيتروجين) وحمض الكربونيك وبخار الماء والأرغون.

وهو عنصر استكشف حديثاً وحمض الكربونيك عبارة عن كربون وأكسوجين وأدرجين فالعناصر البسيطة له خمس وهي :

(الأكسوجين والأزوت والكربون والادروجين والأرغون) فيقابل الدم هناك بواسطة الدورة الدموية .

الدورة الدموية

عملت فيما ذكرنا آنفا أن خالص الغذاء يصل بعد نضجه في الكبد وصيرورته دما الى الكبد ونقول الآن أنه يمتزج بالدورة الدموية وذلك أن القلب مقسم أربعة أقسام مجوفات فالتجويفان الأعليان هما الأذينان والسفليان هما البطينان والدم اذا تقابل مع الهواء في الرئتين وهو مسود المزاج متغير أخذ من الهواء مادة الاكسوجين لتعطيه الحرارة التي بها الحياة واعطاه المادة الفحمية وهي الكربون إذ الدم اذا أعطى كل عضو ما يستحقه بالحرارة الغريزية والتفاعل العجيب في الجسم فلا جرم تتخلل فيه أجزاء فحمية دخانية تعكره مع تركه ما فيه من المواد الصالحة للغذاء في الأعضاء فقد أخذت الأعضاء من الدم الجيد وأعطته الخبيث فانظر هذا العجب العجاب كيف دخل الهواء فأعطى الدم ما فقده في الأعضاء وهو الاكسوجين وأخذ منه تلك المادة الفحمية فيصفو الدم ويذهب الى الوريد الرئوي الى الاذين الأيسر فالبطين الأيسر بواسطة فتحة بين الأول الذي هو أعلى والثاني وهو الأسفل ذات صمامة تفتح وتقفل سريعاً على حسب الانقباض والانبساط بنظام محكم عجز عنه مهندسو القناطر وغيرها ومن البطين الأيسر يخرج في الأورطى وهو يوزع الدم في البدن كله بتقدير محكم فيعطى الغليظة غليظا والدقيق دقيقاً والكبير كثيراً والصغير قليلا .ولولا هذا لكانت العين كالرأس والرأس كالعين والأنف كالرجل والرجل كالانف حكمة قد حيرت من يبصر

وهناك يؤدى مادة الحياة والغذاء الى تلك الأعضاء فيصير لحما وعظما وعروقا وأوتارا بعلة وشرايين وأوردة وعيناً وأنفاً وفماً ومخاً وظفراً وجمالا وحسناً وبهاء وبهجة ، فانظر كيف

صار التراب حسناً و بهجة . وكيف أصبح الجماد حيوانا وانسانا (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) ثم يذهب ذلك الدم الباقى مادة سوداء فى تلك العروق الشعرية المنتشرة فى الجسم الآخذة للدم الصافى عن العروق الكبرى الوريدية المعطية الدم الأسود للعروق الشريانية ومنها الى الاجوف الذى هو مجتمع العروق الشريانية إلى الأذين الأيمن ومنه ينزل الى البطين الأيمن بصمامة كالمتقدمة فى الأيسر ويندفع منه الدم الى الشريان الرئوى المتفرع الى فروع داخلة فى الرئة وهناك يتقابل مع الهواء الجوى وهكذا يدور دورات لانهاية لها (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وانى ليعجبنى ان هذه الآية ذكرت فى مسئلة دوران النيرات العلوية ، فانظر كيف ذكر هناك التقدير وان ذلك كله ليسير بمقادير معينة وأوضاع محكمة وما أشبه العلوى بالسفلى بل ما أشبه الانسان الصغير بهذا العالم الكبير

ولسنا نقول هذا من باب التقليد وانما نقوله علماً وفهماً فتأمل معى أيها الأخ فها أنت ذا رأيت هذه الدورة ونظامها المحكم فقارنها رعاك الله بسير الكواكب التى يحدث منها اظلام واضاءة أليست كالدورة الدموية وان جرى الدم فى الجهة الشريانية اليمنى كالليل و فى الجهة الوريدية اليسرى كالنهار اذ الأول دمه خال من مادة الحياة والثانى فيه الغذاء والحياة وانه لو انقطع التنفس لحظة لوقفت حركة الدم ومات الانسان كما ان الكواكب لو وقفت لحظة لفنى العالم فالحركة فى العوالم كلها لاتتناهى . طبع العالم على الحركة علوية وسفلية

ألست تشاهد الرياح فأنت تراها تتحرك يميناً وشمالا وقد قال علماء الطبيعة ان هناك رياحا دورية تجول فى الجو كما تدور الدورة الدموية وكما تدور الكواكب

حدق ببصرك قليلا واجل طرفك فى الماء ودورانه ألست تجده فى البحار الملحة فالسحاب فالأرض فالنبات فيتبخر فيصير سحاباً فيرجع ثانياً وينزل فى البحر الملح .

أليست هذه كلها دوراناً متشابهاً

تأمل فى الطعام فانك تراه ينقسم الى قسمين أحدهما يصير دماً والآخر ينزل فضلات من الانسان والحيوان ويجعل سماداً ويترقى ثانياً وهكذا حتى يرجع فيصير دماً أو ينزل الى الخارج وهكذا فما من شيء الا وهو مستعد دائماً للترقى ومهما سفل فانه يرجع كرة أخرى طالبا العلو

ولقد علمت ماذكرناه فى الصفراء الذاهبة مع البنكرياس الى الاثناعشرى وماهى إلا افراز من الكبد ذهبت إلى الطعام لتهضمه حتى يصير دما آخر .

فياعجباً كيف كان كل مالفظته الطبائع يرجع لها فيصير نافعاً فلولا الصفراء ماتم هضم الغذاء ولولا براز الحيوان و بقايا النباتات ما نما نبات ولكانت الحياة رديئة (كلوا وَارْعَوْا أنعامَكم إن فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهَى منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نخرِجُكم تارةً أُخرى) وكما خلقنا فيها و يعيدنا ويخرجنا فهكذا يفعل مع كل ما رأيته فى الكائنات وكأن هذه الآيات لفت لأولى النهى والألباب الى هذه البدائع العجيبة

وتأمل ثم تأمل كيف رأيت الصفراء التى هى ألطف من الفضلة الغليظة جعلت طابخة لخالص الغذاء فى الجسم أما الفضلات الغليظة فخرجت لتصلح النبات الذى هو فى غاية البعد عن الانسان فلله الحكمة البالغة .

ولعمرك أيها الأخ ما هذه الكائنات كلها إلا طالبات للترقى الى الأعلى فهاك مقالا حسناً .

تأمل فى التراب كيف يصير نباتا بتلك الأسمدة من فضلات الحيوان والانسان و بقايا النباتات فينمو حتى اذا بلغ حصاده درس وازيل المحمول وهو غذاء الانسان عن الحامل وهو غذاء الحيوان كالتبن وتأمل كيف كان الأعلى للانسان والأسفل للحيوان فى نحو البر عدلا وحكمة واتقاناً للصنع .

واذا فصل البر من التبن فانه لا يصلح للدخول فى جسم الانسان وانما يحتاج الى صنعتات نحو ما يفعل به اذا دخل الجسم بأعضاء الهضم فانه يغربل ليفصل منه بقية

المادة الغريبة ثم يطحن ويفصل منه المادة غير المقصودة . فمن وقت حصاده الى نخله تعمل فيه اعمال لفصل مالا لزوم له فاذا تم ذلك لم يصلح لدخوله الجسم وهو على هذه الحال . وهذه الاعمال هندسية من حيث كميته.أما كيفيته فلا بد له من عجن وخبز وبعد ذلك يصلح للأكل فاذا تمت أفعال الهضم داخل الجسم صار بعضه انساناً سمعاً وبصراً وحركة وبعضه صار مبدأ لانسان آخر مثله وبعضه مادة تسمد النبات أو يأكلها الحيوان فما هو غذاء الانسان صار انسانا حيا ومبدأ انسان سيحيى وغذاء لحيوان أو نبات وكل واحد من ذلك يرجع الى الترقى كما صار اليه الارقى وهو القسم الذى صار سمعا وبصراً وعقلا وهكذا فتأمل فى هذه السلسلة من ابتداء كونه تراباً الى نهاية كونه انساناً فلما كان نباتاً عامت ان الأعلى ذهب الى ما ذكرنا واما الأسفل وهو التبن فانه أكل الحيوان أو منفعة للانسان أدنى من الأكل كأن يجعله وقوداً أو داخلا فى البناء

فانظر كيف كانت الأشياء موضوعة مواضعها والجاهل لايعقل لها معنى وهذا من ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله لسيدنا ابراهيم اذ قال : (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِين) فهذا حقا الايقان واليقين الذي يرينا كيف يكون النظام ثم غذاء الحيوان طبعا ترقية له ويحصل فيه انقسام كانقسامه فى بدن الانسان فمنه مايصير حيوانا سمعا وبصرا وذوقا وشما ومنه مايكون مبدأ لحيوان آخر ومنه مايخرج فيصير غذاء للنبات وكل واحد من هذه يترقى إلى المرتبة التى فوقه

فتأمل بعقلك كيف كانت جميع هذه المواد طالبة للرفعة والتنقل من أسفل إلى أعلى وكلما صارت ترابا رجعت الى العلو ولا تظن من التعبير اننا نقصد انها هى التى تطلب فانه غير معقول وانما نقول نظام وأحكام وحكمة عالية دبرت هذه المواد وبرهنت للعلماء والحكماء على حسن الابداع وجمال الصانع وغرابة أفعاله حتى أدهشتهم وحيرتهم وكلما زادوا تعمقاً فى البحث ازدادوا شوقا واستطلاعا وازدادت الحقائق تقصياً واستبعاداً

ولقد ضرب رئيس المجمع البريطانى فى آخر القرن التاسع عشر مثلا لذلك (فقال كان الأقدمون يقولون إن الهواء بسيط وآخر اكتشاف وصلنا اليه أنه من خمسة عناصر فأصبح كل عنصر يحتاج الى بحث وحده ولعله مركب من عناصر وهى مركبة من أخرى الى مالايتناهى فها هو ازداد العلم وتباعدت الحقائق) ويقرب من هذا أن نعيم الجنة لا يتناهى وهو يتزايد كلما امتد الزمان كما أنه بالعلم بازدياده تزداد الاشواق وتبتعد الحقائق ثم تأمل فى سوق النباتات وجذوع الأشجار وفضلات الحيوان التى قلنا انها منافع للانسان فى خارج جسمه أو للحيوان فى أكله اذا احترقت فانك ترى ناراً ودخانا ثم ناراً صافية ولعمرى انها تعبر عما يؤول اليه حال الرماد الباقى إذ هو مستعد تمام الاستعداد الى الدخول فى جسم النبات ثم يترقى فى زمان طويل أو قصير الى أن يصير حيوانا أو إنساناً ألا ترى أن النار الخالصة من شائبة الدخان كانت نهاية الاحتراق فهكذا يرتقى الى النور الخالص والعقل فى الانسان وكأن النار فى شبوبها تمثل حركة نمو هذه الحوادث وتشير بلطف خفى الى رقيها من أحسن الى أشرف . وهنا نكتة لطيفة وهى أن مركبات العناصر تارة لاتقبل النار اذا كانت فى مرتبة الحجرية والترابية فاذا ترقت نباتاً قبلتها وتدوم فيها بدرجات مختلفة على حسب المواد الزيتية قليلة أو كثيرة الى الزيتون فاذا ترقت حيوانا قبلت الاحساس مترقياً فيها من أسفل الى أعلى الى مرتبة النبوة التى هى نهاية العقول فلذلك ضربت الأمثال للعلوم والعقول بالنور (اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ مثلُ نورِهِ كمشكاةٍ الآية) ويشير اليه قوله تعالى (الذى جعلَ لكمْ مِنَ الشجرِ الأخضرِ ناراً)

وهذه العناصر فى الترقى مختلفة فمنها ما يطول أمده ومنها ما يقصر على حسب ما يصادفها فى سيرها ومنها ما يرجع الى أول أمره ثانياً وهكذا ومتى وصل العنصر الى النهاية رجع ثانياً وانحل الى أسفل وقام غيره مقامه فى الدخول فى جسم الانسان القائم بالخلافة . فأنت ترى أن المستضعف منها السافل هو الذى يأخذ فى الترقى وأن ماوصل الى النهاية رجع الى أسفل سافلين كما فى قصة ابن افعى الجرهمى وأبناء نزار وقولهم ان

الشراب تغذى من جسم ميت فاذا هو أبوه فقد صار جسم الانسان غذاء نبات بعد انحلاله الى عناصر .

وههنا جواهر

(الجوهرة الأولى) ان سنة العالم الترقى مهما عاقته العوائق وهكذا النوع البشرى يترقى فى مدنيته فى الدنيا والشخص الواحد يترقى بعد موته فيما هو فيه . ومن هنا نفهم أنه كيف استدل على البعث بهذه الآية وهى قوله تعالى (ياأيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ مِن البَعثِ فإنا خلقنا كم مِن ترابٍ ثم مِن نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغة مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقة لِنبيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ مانشاء الى أجلٍ مسمًّى ثم نُخرِجُكم طفلاً ثم لِتبلُغوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوَفى ومنكم مَن يُرَد الى أرْذَلِ العُمُرِ لِكيلا يَعلمَ مِن بعدِ عِلمٍ شيئاً وترَى الأرضَ هامِدةً فاذا أنزَلْناعليها الماء اهتزَّت ورَبَتْ وأنْبتَتْ مِن كلِّ زوْجٍ بهيجٍ ذلكَ بأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ وأنَّهُ يُحْيِي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن فى القبور)

فانظر هذه الآية كيف استدل بها على البعث أليس ذلك لتشابه العالم وأن أوله كآخره فى سنن الترقى .

(الجوهرة الثانية) ان سنة الكون وان كانت كلها فى الترقى فهى تختلف فى تعريج سيرها واليه الإشارة بقوله مخلقة وغير مخلقة ثم أعقبه بقوله لنبين لكم إذ السير ليس متحداً بين أنواع السائرين

(الجوهرة الثالثة) ان الذى يصل الى النهاية هو الذى ينزل الى أسفل سافلين من العناصر ويقوم غيره مقامه ومن هذا يعلم أن الأمة المستضعفة هى المستعدة للترقى الى أن تصل الى نهاية العزة وتقوم مقام غيرها ألا تراه تعالى يقول (ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا فى الأرضِ ونجعلَهم أئمَّةً ونجعلهم الوارثين ونُمكِّنَ لهم فى الأرضِ) ويقول (وتلكَ الأيامُ نُداولُها بينَ الناسِ)

وهذا حقيقة مقتضى العدل وسنة الكون لاتجد دولة تبقى أمداً طويلا فللدول

أعمار وآجال كاعمار الانسان وآجاله اليها تنتهى وتقوم أخرى مقامها .

(الجوهرة الرابعة) لما علمت ان سنة الكون هى الترقى وان المستضعف هو الذى يرقى فاليائسون أغبى الجاهلين ولذلك قال (انَّهُ لا يَيأَسُ مِنْ رُوحِ اللهِ الاَّ القَوْمُ الكافِرُون) فكل أمة تيأس من الترقى فقد دلت على جهلها بنواميس الكون ووقوعها فى مهواة الانحطاط ودرك الخسران فى الدنيا . أولا يرون ان دوران العالم كله كالدورة الدموية فى الجسم التى نحن بصددها فبينما يكون الدم وريديا اذا هو شريانى فيرتفع تارة وينخفض أخرى وهكذا نجوم السماء وماء البحر وكذا الجو

(الجوهرة الخامسة) إن الآية المتقدمة مذكورة فى سورة الحج ومن العجيب ان الحج عبارة عن أعمال مخصوصة من العبادات فى مكان يحجه أى يقصده جميع المسلمين من أقطار الأرض ويجب على القادر أن يحجه فى العمر مرة فتأمل كيف ناسب الوضع الدينى نواميس الكون إذ كلها تنتهى الى نقطة واحدة وهو الترقى وان اختلف سيرها بطئاً واسراعاً فهكذا الحجاج يدهبون لمكان واحد وان اختلفت المسافات قربا و بعداً بل الدين كله عبارة عن قصد الى رقى النفس وان اختلفت العبارات وتنوعت الاشارات وتباينت العقول .

(الجوهرة السادسة) من المدهش العجيب ان البعث الذى استدل عليه الله سبحانه وتعالى بالآية المتقدمة الدالة على ترقى الكون يناسب تمام المناسبة لسنن ترقى العناصر ألا ترى ان الصراط يختلف مرور الناس عليه فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من هو كالنجم وهكذا الى من يمشى على بطنه فهاهنا اختلاف فى السير من باب ضرب الأمثال كما اختلفت العناصر فى سيرها للترقى وهكذا الحجاج والعباد على اختلاف طبقاتهم فبين الحج والبعث وترقى العناصر مناسبة فلهذا استدل به الله تعالى فكأنه يقول ها أنتم أولاء شاهدتم سير العناصر فى الترقى من نطفة وعلقة وهكذا الى أن تصير بشراً سويا وسنتنا واحدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا فأنتم هكذا ترقون فى عالم أخر ولقد وضعنا لكم سننا تسيرون على مقتضاها عبادة وعلما ترمز الى ذلك « أَفَلاَ تُبصرُون »

(الجوهرة السابعة) هذه الحركة المستمرة فى الدورة الدموية ونظائرها فى الكواكب والماء والعناصر تستفز الانسان الى التشمير عن ساعد الجد والنشاط فمن وقف عن الاستطلاع الى المعالى لحظة واحدة فهو جاهل بسنن الكون حائد عن الوجهة التى خلق لها أولا يرى ان الحركة عامة فى جميع الكائنات حتى الذرات الصغيرة بل لولا الحركة ما أمكن التجاذب الذى به حفظ النظام فأية أمة أو انسان لم يفقه ما خلق له ولم يجتهد فى الاعمال النافعة المرقية له ولأمته فجزاؤه السقوط فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . وليغالب عقبات الدهر وتقلبات الحوادث مستعيناً بمن سن هذه القوانين قارئاً (انَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكافِرُون)

(الجوهرة الثامنة) الدورة الدموية تجرى بنظام محدود وقانون لا تتعداه وبهذا السر دام الكون كله فمن لم تكن أوقاته كلها مرتبة وكذا أمكنته وعلومه وأعماله فهو من الأخسرين اعمالاً (الذينَ ضلَّ سَعيهمْ فى الحياةِ وهمْ يحسِبُونَ أنهمْ يُحسِنُونَ صَنعاً أولئكَ الذينَ كفَروا بآياتِ رَبِّهم) ولا ريب ان من الآيات المذكورة حسن النظام فى جميع ما يدور فى العالم .

(الجوهرة التاسعة) ربما يظن ان موت فلان وحياة فلان وتحرك الأشجار وتمايل الأغصان وهبوب الرياح بلا نظام حسب ما يصادف من الأحوال وترى الدم فى العروق الشعرية فى الجسم كأنه ساكن وهو يزيد وينقص بالاتفاق . ومن علم ان الدورة بنظام فلا جرم ان ما نتج عنها بنظام تبعاً لها وإنما كثرة الفروع التى لا يمكن عدها حتى كان كل عضلة من عضلات الجسم مركبة من عروق شعرية لا تكاد تحس أوجبت عدم تمييز الدورات فيها وتمييز النظام وقس عليه ما ترى فى الماء والعناصر والتفرق والاجتماع والموت والحياة كل ذلك بمقدار تابع لنظام السموات السائر بقوانين محدودة (وكلُّ شيء عِندَهُ بمقْدَارٍ عالمُ الغيْبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعَال)

(الجوهرة العاشرة) سير هذه الدورة والدورات المناظرة لها بنظام ينتج منه العدل وبيانه اننا لو نظرنا كوكباً من الكواكب سائراً فى جو هذا الأثير فبالله أي نقطة

أولى به من الأخرى وكل نقطة يجب أن يكون ملازما لها الكوكب فتعارض أمران بقاء الكواكب فى موضع واحد دائماً أبداً من حرمان النقط الأخرى من الدائرة منه وسيره فى جميع النقط واحدة بعد الأخرى مع ان كل واحدة منهن تطلبه لها دائماً فلم يمكن الا أن يمر بالنقطة الواحدة حيناً بعد حين ويعم جميع نقط الدائرة . وان سألت عن العدل لم تجده سوى هذا فقد حصل دوام الوجود فى كل نقطة ولكن وقتا بعد وقت ووفيت كل واحدة قسطها من الكواكب ومثل هذا ما نحن فيه من الدورة الدموية والرياح والماء والعناصر فبين النظام والعدل مناسبة تامة وهذا هو المعبر عنه بقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان فمتى فهمت هذا الكتاب عرفت مقصود الميزان والعدل والقسط المذكور فى قوله تعالى (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم)

فياليت شعرى ماللنفوس البشرية معرضة عن ادراك كنه ماحولها من الكائنات

(الجوهرة الحادية عشرة) واذ عرفت أن سنة الكون انما هو العدل فيجب علينا أن نعدل فى جميع أقوالنا وأفعالنا بأن نضعها فى مواضعها اللائقة ونحكم بين الناس بالعدل كما شاهدنا فى الكائنات وعلى طبقها جاءت اشارات الكتب السماوية

هذا ما خطر بالبال عند ذكر الدورة الدموية أثبته ليكون تذكرة لى ولاخ صادق الرغبة فى العلوم

ولقد أطنبنا فى هذا المقام لغرابته وحسنه واذ قد عرفنا وظائف الكبد والرئتين الخادمين للقلب الخادم للدماغ وقد قدمنا ان القلب وحركة الدم فيه وضعت لبقاء الشخص فلنذكر الآن مابه بقاء النوع وهو أعضاء التوليد التى بها يلد الانسان والحيوان والنبات مثله

أعضاء التوليد

قضت سنة الكون ان الأشخاص تفنى ولا يبقى الا الأنواع رحمة من واضع هذه النواميس وعدلاً . ألست ترى ان هذه المادة التى منها صنع هذا الكون كما علمت مما قدمنا فى مواضيع من هذا الكتاب — مادة بسيطة خالية من كل نقش وصورة أدركتها العقول ولم تتجل للحواس إلا فى جلابيب الصور والأشكال وأنت أيها الذكى ترى ان الأشكال لاتتناهى عداً فبحقك قل لى أى صورة أولى بالمادة من الأخرى ، أليست كل صورة لها الحق أن تكون فى المادة فتساوت جميع الصور بالنسبة لها فى الحق فكانت كل واحدة يجب أن تنفرد بالصورة وحدها دون ماعداها ومن جهة أخرى فالصورة الواحدة اذا تشكلت بها المادة كان الواجب أن تبقى أبد الآبدين ودهر الداهرين فلا يموت انسان ولا يذبح حيوان ولا يحصل تغيير البتة .

فلما تعارض هذان الأمران حكم ذو العدل والميزان والقسط اللطيف الخبير منظم الأعمال فأوجب أن تلبس المادة صورة بعد صورة وشكلا بعد شكل بحكم النظرية الأولى فكان الموت والحياة والزرع والحصاد ودوران الأفلاك وهذه الحركة العامة .

ثم أخذت خلاصته من الصور ليبقى مثلها فتفنى الأشخاص وتبقى الأنواع فنوع الأنسان مثلا تموت اشخاصه ولكن يبقى نوعه و بقاء النوع بحكم القضية الدا ية ففناء الأشخاص لئلا يحصل الاجحاف و بقاء الأنواع ليكون لها نوع من البقاء فهذا هو الامكان المذكور فى قول الغزالى ليس فى الامكان أبدع مما كان .

ولعمرك لولا الموت والحياة والزرع والحصاد لبطلت الحركات وسكن الكون ووقفت الكواكب وتحطم الكون كله واليه الاشارة بقوله : (الذى خلقَ الموتَ والحياةَ) (هوَ يُحيي وَيميتُ فاذَا قَضى أمراً فانما يقولُ لهُ كنْ فيكون) فتأمل كيف عبر بلفظة قضى اشارة الى ماعلمت فى النظريتين السابقتين

واذا علمت هذا فلنذكر كيفية التناسل فنقول : إن الدم اذا غذى أعضاء الجسم

وأخذ كل قسطه منه بقيت هناك مادة تتحول الى منى فان الغذاء يطبخ أولا فى الجهاز الهضمى وثانياً فى الكبد وثالثاً فى الأعضاء ورابعاً تصير البقية منيا يتم نضجه فى عروق تحت العانة تعينها الأنثيان فاذا تم النضج أخذت تطلب الخروج الى ماخلقت له الى الرحم بواسطة عضو التناسل فيفعل الأنسان فعل الطبيب بالمريض . فكما أن الطبيب لابد له من عقاقير وآلات يديرها بها ومن تلك الآلات ماهو متصل به تمام الاتصال وهو اليد ومنها ماله به نوع اتصال وهو المبضع الذى به دخول الدواء فى جسم المريض فكذلك الرجل آلته فى تدبير مادة التناسل هى تلك العروق تحت العانة مع مساعدة الأنثيين وهى قائمة مقام اليد فى الطبيب وآلته فى ادخال تلك المادة هى آلة التناسل بها تدخل المادة فى الرحم وهى قائمة مقام المبضع وكلاهما فى المرتبة الثانية فى العمل . فالمبضع بعد اليد المحركة للدواء المعطية له قوام مايليق بالمريض والعروق التى تحت العانة أعطت لمادة التناسل قوامها وشكلها بتدبير الحكيم العليم .

وكما أن الطبيب ليس له عمل الا ادخال الدواء فى جسم المريض ثم تتم هناك أفعال الدواء ولا علم للمريض بها ولا دخل له بل ربما تتم أفعالها وهو ميت فكذلك الرجل متى وضع المادة فى الرحم حصلت تلك الأفعال التى بها يتم خلق الجنين فى الرحم ولا علم للرجل ولا للمرأة به كما أنه لاعلم للطبيب ولا للمريض بما يفعله الدواء فى الجسم .

واعلم أن ماء المرأة منه يخلق الجنين ومنى الرجل هو الذى يعطى الصورة فقط وما مثلهما الا كمثل الأنفحة واللبن والخمير والعجين فليس للأنفحه بالنسبة للبن إلا اعطاء الصورة فقط فيصير جامداً بعد أن كان سائلا وهكذا الخمير انما يعطى العجين صورة الانتفاخ وخروج المواد التى يضر بقاؤها منه فهكذا منى الرجل يتوقف عليه تخلق الجنين .

فالولد انما يخلق من مادة فى رحم المرأة وان كنت فى شك من ذلك فتأمل فى دم الحيض ألست تراه ينقطع أيام الحمل أليس ذلك لتغذية الجنين ولا ريب ان

الغذاء به النمو فأما تشكل هذه المواد بهذا الهيكل فانما يكون بحلول مادة الرجل فيه واذن تخلق الأعضاء وتتشكل بنظم عجيب وسر غريب . وياليت شعرى ما الذى ينقش تلك الصورة فى داخل رحم المرأة ونحن لا نرى نقاشا لا داخل الرحم ولا خارجه حتى صنع العين والحور والاصداغ والنظر والانف وتقويسه والثغر وحسنه والثنايا و بريقها ورقتها والشفة ودقتها وما الذى أوجب تناسب الأطراف فجعل مد اليدين يساوى طول الانسان وان الطول والعرض متساويان وانهما ثمانية أشبار وما الذى أوجب تلك النسبة ثم ما الذى قوس الحاجبين لم نر قلما يسطر ولا نقاشا يهندس هذه هى العجائب التى حارت فيها عقول الحكماء

و ياليت شعرى ما المناسبة بين منى الرجل و بين هذه الاعاجيب وهل هو الذى ساق المواد الى ما تصلح له فأعطى العين مع رقتها والأذن مع دقتها والمخ مع لطفه والافخاذ مع غلظها والعظام مع جمودها المواد الصالحة لكل بحسبه فالمواد الداخلة فى عنصر الدم مختلفة كثيرة على حسب اختلاف الأعضاء ثم توزع بعد الدخول فى الرحم الى ما اريدت له ذلك تقدير العزيز العليم

فهذه العظام تدخل فيها المادة الفصفورية التى تعجن مع مواد أخرى وتوضع على أعواد الكبريت و بها يوقد الناس وهى التى يظهر ضوءها من منافذ المقابر عند تحلل العظام فى القبور فهذه المادة فى مواد الغذاء كيف تخرج من الدم وتذهب الى العظام وهكذا حدقة العين كيف تذهب اليها المادة الزجاجية المشابهة لما تصنع منها العدسات . ان هذه لحكمة حار فيها العقلاء وان أردت المزيد فعليك بما سطرناه فى كتابنا ميزان الجواهر فاذا فصلت الأجزاء تميز القلب أولا ثم أخذت الأعضاء فى التفصيل وآخرها وجودا أعضاء التناسل و بها يتميز الذكر عن الأنثى وهذه عامة فى نوع الانسان وهكذا الحيوان فترى الذكر والأنثى منفصلين ولما كان الحيوان أقل شرفا من الانسان واضعف تركيبا وجد بعضه وليست وظيفة الذكورية كاملة فيه كبعض الاسماك تبيض اناثه فيأتى الذكر فينزو على البيض فيصيب بعضه ولا يصيب الآخر فهاهى ذه وظيفة الذكورية لم

تنل تمامها كما فى الحيوانات العليا وكما فى الانسان . ثم بعض الحيوان يتحاك الذكر مع الأنثى فينزوان على بيضهما .

أما النبات فالذكر والانثى فيه غير متميزين تميزهما فى الحيوان وقد علمت أن وظيفة الذكورة اعطاء الصورة ووظيفة الأنوثة تكوّن المادة فهاهى ذه جميع الحبوب والنوى توضع فى الأرض فتنبت وتخضر بما نالت من قوة الذكورة والأنوثة معاوهذا باعتبار ما عرفه الاقدمون وتأمل كيف أظهر الكشف تفصيلا أوسع وعلم أن النبات فيه ذكور واناث تارة فى نبات واحد وتارة فى نباتين وتارة فى زهرة واحدة وتارة فى زهرتين (يُدَبِّرُ الأمرَ يَفصِلُ الآياتِ لَعلَّكُمْ بِلقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنون) ولما كان من أعجب التدبير وأتم التفصيل ما رآه الناس فى النبات من الذكورة والأنوثة أعقبه بقوله (وَهوَ الذِي مدَّ الأرْضَ وجَعلَ فِيها رَواسِيَ وأنهارا وَمِن كلِ الثمَراتِ جَعلَ فِيها زَوْجينِ اثنينِ يُغشِي الليلَ النهارَ انَّ فى ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يَتفكَّرُون) فالذكورة والأنوثة علم انهما واضحان فى النبات كله وفى النخيل المعروف أمره من قديم فترى الزهرة الذكر تعطى الزهرة الأنثى مادة فيها فتظهر صورتها وتتخلق كما يتخلق الجنين ويبقى حبا أو نوى ويمضى زمان فيزرع ويخرج بما نال من القوتين المودعتين فيه . غاية الأمر أن الحيوان يحتاج الى الدقة والنبات بخلافه اذ يمكث جنينه مدة طويلة ويقرب من النبات الحيوانات التى تبيض وارفع منها ما تحمل وترضع . فتأمل كيف كان أرفع المولدات شروطه أكثر ومقيداته أعظم لما أعطى من العقل والقوة وما كان أوسط كالدجاج جعل بيضه يبقى مدة قصيرة ليحضن وان زاد عنها فسد أما النبات فان ماهو بمنزلة البيض فيه وهى الحبوب والنوى تعطى مواد التغذية داخلة فيها كما فى البيض وتبقى أمداً طويلا شهورا بل سنين ثم تزرع فتخرج زاهرة ناضرة .

فالاقدمون عرفوا الذكورة والأنوثة فى نفس الحب والنوى ولم يعلموا ما سبب ذلك وكشفه المتأخرون

هذا هو الاجمال فى تزاوج النبات وان أردت المزيد فعليك بكتابينا ميزان الجواهر وجواهر العلوم وأول هذا الكتاب أيضا فقد أودعناها ما يكفيك قراءته ولكن لا بد لنا من ذكر آية (وَالأرْضَ مَدَدْنَاها وَأَلقينا فِيها رَواسي وَأنبتنا فِيها مِن كلِ زَوْجٍ بَهيج تَبصرَة وَذِكرَى لِكلِ عبدٍ مُنيب وَنَزّلنا مِنَ السماءِ ماء مُباركا فَانبتنا بِه جَناتٍ وَحب الحصيد وَالنخلَ بَاسِقاتٍ لها طلعٌ نَضيدٌ رِزْقا للعبادِ) فذكر أولا عند التبصرة البهجة والتزاوج وعمم جميع الاصناف وخصص فى قوله جنات وحب الحصيد وعم الخلق كلهم فى الرزق

فكأنه يقول ان جميع النبات فيه تزاوج ذكور واناث مع بهجة وجمال وحسن وبهاء وهذه تكون ذكرى للخواص لا للعوام فبهجتهم تكون بكل نبات متى ادركوا حكمته وما فيه من العجب . وأما كافة الناس فان رزقهم يكون من أصناف معلومة كالجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد . فهذه أمور مشتركة بين جميع الناس الخاص والعام ولم يذكر معها بهجة ولم يخصصها بأحد ولم تعم جميع النبات أما فى الخواص فقد أشار الى أن رزقهم التبصرة والتذكر والتعقل الراجعة الى البهجة وادراك الجمال والحسن والرونق فلذلك ذكر فى جانبهم البهجة أماهؤلاء فلذاتهم أمور حيوانية اذ الاكل اشترك فيه الحيوان والنبات والانسان. وادراك الجمال لاولى الالباب الذين عرفوا ماهى لذتهم وما المختص بهم وماهو جمالهم وبهاؤهم واشراقهم وبهجتهم . فلعمرك ان معرفة قوة الذكورة والأنوثة من أغرب ما يدهش العقلاء ويحير الحكماء فى أصناف النبات والحيوان والانسان فانظر كيف يخلق الرجل والمرأة متشابهين فى الحواس والأعضاء ما عدا عضوى التذكير والتأنيث وهكذا فى القوى والادراك إلا فى أمور تميز فيها الذكور عن الأناث فأعضاء الحركة والتحريك فى الرجل أقوى منها فى الأنثى وهكذا الحرارة فيه أقوى منها وما كان من الصفات قوة وشدة فانها فى الرجل أقوى وما كان فيها من رحمة ورأفة فهى فى الأنثى أقوى وأما فيما عدا ذلك فيتقاربان ويحصل اختلاف واتفاق على حسب الأحوال

ابداع غريب وحسن وضع وترتيب
فى الكبد والرئة والحواس

ليعرنى قارىء كتابى هذا سمعاً وليصغ الى ماأقول الآن وليناجنى بضميره وليدخل معى فى عباب هذا البحر من العلم ولينظر الرئة والكبد وترتيبهما مع المواد العنصرية

فياليت شعرى اننا نرى ماينفع الانسان اما غاية فى اللطافة أو الكثافة والأول هو الضوء والثانى عناصر طبقات الأرض المكونة للنبات . واما متوسطة بينهما وهذا المتوسط اما أقرب الى اللطافة وهو الهواء أو الى الكثافة وهى عناصر الماء

ثم تأمل كيف كانت هذه الأقسام الأربعة موضوعة بترتيب درجاتها فالأثقل فى أسفل وهى الأرض وما يقرب منه فوقه وهو الماء ويليه عناصر الهواء ويداخلها من فوقها الضوء اللطيف الذى لاوزن له وانما هو حركات فى الأثير آتية من الكواكب سارية فى هذه الأجسام الشفافة اللطيفة المناسبة .

هذا هو وضع مايحيط بالانسان والانسان فى وسطها كأنه جنين يحيط به الهواء المتدخل فيه كرات الماء (البخار) وفيه الضوء ومن تحته الأرض فهذه كلها محيطة به احاطة الرحم بالجنين فى بطن المرأة ليتبين للعقلاء تمثيل احاطة الرأفة من ذلك المبدع بهم وكيف تمثل احاطته بالناس وما مقدار تحببه اليهم والذى يهمنا الآن أن ننظر لوضع جسم الانسان وترتيبه ومقارنته بها فنقول :

هذه المعدة تحت الحجاب الحاجز فى البطن ومعها الامعاء وكلاهما فيه الطعام يطبخ والكبد يأخذ مارق وراق ولا يدخل لهذه الأعضاء مما حولنا الا المواد العنصرية الأرضية الثقيلة مع الماء وماتركب منهما ، فانظر كيف وضعت هذه المذكورات أسفل لمناسبتها لما تأخذ منه (الأرض والماء) وتأمل كيف وضعت الرئة أعلى وأخذت من الهواء اذ هو أعلى من سابقيه فما هذا التناسب العجيب فما كان فى البطن فمادته الأرض والماء وهما أسفل وما كان فى الصدر فمادته الهواء وهو أعلى منهما ثم انظر أيضاً فى الحواس

الخمس فانك تعلم ان حاسة اللمس وان كانت تعم الجسم كله يمكن اعتبار اليد هى التى بها الاحساس أعم من غيرها لأنها تمر على الجسم كله فيمكن اعتبارها عضو الاحساس ، واللسان للذوق والأنف للشم والأذن للسمع والعين للأبصار فكل واحد منها وضع بازاء ما يناسبه وهاك البيان اللمس يكون للمواد الغليظة التفلية وغيرها فلذلك عم الجسم كله واليد جعلت أسفل من الحواس الأخرى لأن عملها فى الاحساس انما يغلب فى المواد الأرضية والمائية والذوق وضع فى اللسان لأنه لا يذوق كل شيء وانما يختار بعض ما يمكن بخلاف اليد فهى تباشر كل شيء وللذوق خلاصتها فلذلك وضع أعلى فى الفم للطف ما يذوق نوعاً وانه خلاصة لما يلمس باليد والأنف فوق الأثنين لأنه عضو الشم و يأخذ المواد اللطيفة بواسطة الهواء فلذلك كان يشم القريب والبعيد ويحتاج الى العناصر الدقيقة المتخللة فى الهواء فهو أرفع من حاسة الذوق. وأقرب الى حاسة السمع التى تسمع الأصوات وهى حركات فى الهواء لا دخل للعناصر فيها ولا مواد تخللها وتسمع من بعد كثير فهى أرقى من حاسة الشم ووضعت فى الجانبين اللذين هما أقل من المقدم الذى فيه البصر لأنه لا يرى الا بالضوء و يميز الاشكال والصور والألوان والأضواء (الآتية من الكواكب المناسبة لوضع العين فهى أشرف وأعلى) والقرب والبعد والصغر والكبر فهو أشرف الحواس لارتفاع مكانه وشدة تمييزه وحسن ما به أبصاره فهو مقدم بالمكان والشرف والرتبة على سائر الحواس و يرى من بعد عظيم الى مسافة مئات ملايين من الفراسخ والكواكب ذات البعد الذى يعجز الانسان عن تقديره وهذه لم تصلها حاسة غير النظر

ولا ريب ان كل حاسة تميز على بعد أكبر فهى أشرف والعكس بالعكس فتأمل كيف كانت حاسة اللمس وهى أسفل لا تحس الا بالملاصق ويليها الذوق ويعلو عنهما الشم فالسمع فالبصر و بالجملة فكل حاسة تتميز بأربعة مميزات المادة المستعملة هى لها وقوتها فى إدراك القريب والبعيد ومكانها فى الجسم ووضعها بما يناسب ما تستعمله

فهذه من حكم وضع جسم الانسان العجيبة التى تترفع أن ينالها من يضيع أوقاته

فى اللعب واللهو ومن يشغل الاوقات باظهار مسئلة عرفها ليفتخر على الاقران فتل هؤلاء يظنون أن المقصود من العلم انما هو غلبة الاقران فى المجالس والتظاهر ولم يعلموا أن نفوسهم تطالبهم كل آونة باشباعها من هذه الحكم الغريبة المودعة فيما حولهم من الكائنات فياليت شعرى كيف يقر لعاقل قرار اذا لم يعرف حكم هذا السكون التى تركت فطاحل العلماء والهين بها صاغرين أمامها فرحين بما آتاهم الله من فضله قارئين (فبذلك فلْيفرَحوا هو خير مما يجمعون)

أولم يروا أنهم يأسفون على الحياة اذا لمعت لهم بارقة من بوارق العلم ويتأففون حسرة على ما فرطوا ثم يرجعون لاهين على عاداتهم (كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظْلَمَ عليهم قاموا) (أفلم يرَوْا الى ما بين أيديهم وما خَلفهم من السماء والارض إن نشأ نَخسِفْ بهمُ الأرضَ أوْ نُسقِطَ عليهم كِسَفاً من السماء)

وهالك حاسة أرقى من هذه التى هى مشتركة بين طوائف الحيوان والانسان وهى حاسة العقل ولذلك كان اتصالها بالدماغ أعلى من الجميع مستخدماً لما يرد عليه من هذه الحواس بقوته الآتية من عالم فوق عالم الكواكب وهو الجمال العقلى يرتفع عن الأجسام ومخالطتها إذ أنت ترى أن الحواس قد حكمت على جميع ما نشاهد حتى أضواء الكواكب فلم يبق لقوة العقل إلا عالم فوق مانشاهد وإلا فلا عقل ولا عوالم واذا كانت هذه الحواس كل منها له مواد بها اشتغاله وهى تمده فما الذى بهصرنا عقلاء وما مادته وبهذا وحده تظهر قوة العقل ويعلم أن له عالما يستمد منه يناسبه تمام المناسبة عبر عنه الأقدمون من اليونان بالعقول العشرة وعلماء الديانات بالملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويناسب ما نحن فيه بعض المناسبة تكسير الخليل الأصنام ونظره فى الكواكب حتى وصل الى الشمس ثم استدل على المبدع (إنى وجّهْتُ وجهىَ للذى فَطرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً) . وآية النحل (أوَلم يرَوْا الى ماخلقَ اللهُ من شىء يتفيأ ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله وهم داخرون ولله يسجد مافى السموات وما فى الارضِ من دابةٍ والملائكةُ وهم لايستكبرون يخَافُونَ رَبهم مِنْ فَوقهمْ

ويَفعلون ما يُؤمَرونَ) وقصدنا من هذا موازنة ما يذكر فى الكتاب السماوى بما أدركته العقول فوجدنا اتحاداً بينهما فهذا الخليل نظر من الأسفل الى الأعلى الى الأصنام ثم الزهرة فالقمر فالشمس وما وراءها الى ما فوقها وها هى ذه الآية الأخرى ذكرت فيها فيها الظلال للأشباح الأرضية ثم السموات والأرض الشاملة للسبب والمسبب ثم مافوق ذلك من العالم الذى يستمد منه العقل المناسب له فتأمل ألست ترى بين هذه كلها تناسبا تاما

ثم ان هذه الحواس مرتبة أيضا من أسفل إلى أعلى من حيث الوجود إذ الجنين أول ما يخلق توجد له مادة التغذية فالحس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر فها أنت ذا تراها مرتبة من أسفل إلى أعلى وجوداً ومن أعلى الى أسفل شرفا وترى كل ما كان أسفل كسلم لما هو أعلى على الترتيب الطبيعى فى الوجود من جعل الأسفل مقصوداً للأعلى وهل بعد البصر إلا العقل الذى هو المقصود الحقيقى المستمد من عالم ليس بمادة واذا تكبر البصر عن الاستمداد من المادة وانما استمد من الضوء وهو أرفع منها قدراً فما بالك بالعقل ومن هنا نفهم قولهم الله منزه عن المادة ونعلم كيف يكون البقاء بعد الموت وان الى ربك المنتهى . ومن هنا نعرف قوله تعالى : (لقَدْ خَلقنا الانسانَ فى أحسنِ تقويمٍ) وقال (الذى أحسنَ كلَّ شىء خَلقَهُ وَبدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِين) فكأنه يقول كل شىء فى العالم حسن والإنسان أحسن العالم تقويماً لأنا بدأناه من طين ثم ترقى بهذه الأوضاع فى المواد المختلفة بحكمة عجيبة حتى استحق أن يلهم العقل الذى يستمد من عالم المجردات (انَّ رَبِّى لَطيفٌ لِما يشاء انهُ هوَ العليمُ الحكيمُ)

وهذه الآية ذكرت فى قصة يوسف عند مسألة صواع الملك وما ترتب عليه من السياسة الموجبة لاجتماع شملهم وحضور أبويه واخوته ليعلم ملوك الأرض كيف يحتالون فى السياسات وهكذا وضع ألف سياسة فى وضع جسم الإنسان واخراجه من المواد الميتة الى أن صار فى أحسن تقويم ، وهذا هو أعجب سياسة تحويل عناصر ميتة إلى عاقل متعلم متصرف (انَّ رَبِّى على صِراطٍ مُسْتَقيم)

فآخر ماوصل اليه الإحساس فى البدن تلك الأضواء الآتية الينا من الكواكب التى هى آلة الضوء فى الإحساس وهذا الضوء أمره عجيب جداً فانه حارت فيه عقول الحكماء قديما وحديثاً فان العوالم التى نشاهدها إما اجرام واما اعراض وهذا الذى نسميه ضوءاً الاندرى أى شىء هو فان كان جسما عارضه اننا إذا أقفلنا المكان الذى فيه الضوء أو توارت الشمس بالحجاب أو عاب الكوكب ذهب النور وهذه تخالف صفات الأجسام اذ الجسم يبقى فى المكان بعد ذهاب واضعه فاما ذهابه بذهاب سببه فلم يعهد قط فإذن هو ليس بجسم وإن قلنا انه عرض فما لنا نراه ينتقل من مكان الى مكان وكيف ينتقل العرض إذ الأعراض كالبياض ، والسواد ، والطول والقصر ، والحسن والجمال ، لا تتحرك بنفسها وانما تتحرك بغيرها و إذا لم يكن عرضاً ولا جسما ، فما هو اذن ولما رأي الأقدمون هذا التعارض قالوا انه يخلق بمجرد مقابلة الكوكب لما أمامه ويكون ظهور الكواكب سببا عاديا لخلقه وجعلوا هذا ليخلصوا من تعليله ، ثم جاء حكماء الافرنج وفرضوا انه حركات فى الأثير وهو هذا الموجود الذى لايدركه الحس وانما أدركه العقل فاذا قابل الكوكب المرئيات تحرك الأثير الذى لايرى بحركات سريعة لا يمكن إدراك كنهها تبلغ فى الثانية الواحدة مئات الآلاف فهذه الحركات ينشأ عنها هذا الضوء الذى نراه بأبصارنا وهذا الغرض الذى تخيلوه لم يجعلوه آخر الآراء وانما فرضوا ذلك لحل المشكلة مؤقتا حتى يجعل الله لها سبيلا آخر فى المستقبل وها أنت ذا تعلم أن الأثير ألطف من المادة وهو شىء أقرب إلى المجردات فبالأولى تكون حركاته ألطف وأبهج ولذلك ترى الضوء أمامنا أجمل شىء نراه حتى حمل الصابئين على عبادة الكواكب والمجوس على عبادة النار لما فيها من النور فياليت شعرى مالناس أصبحوا سكارى زماهم بسكارى ولكن الشهوات شديدة والآلام المعنوية عديدة ، هاهو ذا الضوء ينادى جميع الأمم يوبخهم انهم لم يعرفوا كنهه بل حاروا فى ظواهره ونواميسه التى بها تدرك العين الموضوعة طبقاتها وضعاً غريباً فهى من مواد زجاجية أشبه بالرمل وما معه من مواد الزجاج ويتنوع هذا النور فيها تنوعا سنأتى على تفصيل بعضه فيما

بعد والذى نختاره فى ترتيب العوالم ما أشرنا اليه من أنها تأخذ فى اللطف من أسفل إلى أعلى حتى تصل إلى الضوء وهووسط بين الأجسام والمعنويات و به تدرك الابصار وتراه داخلا فيما لايدخله الهواء لشدة لطفه جداً فاذا تراقينا عن العين رأينا الدماغ وهو مناط الروح والإدراك واذن يجدر بنا أن نتكلم على علم النفس

انتهى المبحث الأول فى ظواهر علم التشريح من مبحثي الطائفة الثالثة وهم علماء التشريح .

المبحث الثانى

فيما يهم من حقائق علم التشريح

اعلم أنى قبل أن أصل الى هذا المقام اطلع على ماتقدم بعض العلماء فقال : هذا حسن ولكنه تشريح مجمل

فهلا فصلت بعض الأعضاء المهملة تفصيلا فأين أنت مما كنت أسمعه من أساتذتى إذ كانوا يقولون أن الجسم كالآلة البخارية ولا جرم أن الآلة البخارية لابد لها من وقود والوقود مختلف الانواع والأوصاف فمنه الجامد مثل الفحم الحجرى والنباتى والخشب والحطب ومنه السائل كالبترول والبنزين ونحوهما ومنه المواد اللطيفة التى لاتراها العيون كالكهرباء ، فكل هذه وقود لتلك الآلات ثم انها تختلف أحوالها باختلاف ذلك الوقود جودا وسيولةولطافة وكل واحد من هذه الثلاثة أصناف وأنواع كثيرة وعلى مقتضاها تكون الآلة وتكون نتائجها وإذا عنى هذا الانسان بهذه الآلات أفلا يعتنى عناية أشد ويهتم اهتماماً أكمل بآلة جسمه وهيكله فيدرس أنواع الطعام للانسان القائمات مقام أنواع الوقود للآلات علما منه ان احوال الأجسام الانسانية تختلف تبع اختلاف طعامها كما تختلف أحوال ونتائج الآلات الدائرات لطحن أو خبز أو رفع ماء ونحوها باختلاف أنواع وقودها

وليس اجتهاد الأطباء فى شفاء الأمراض بمغن فتيلا عما يجب على العلماء القائمين بثقافة الأمم العامة من بحث الأغذية بحثاً عاما محافظة على الصحة وإبقاء للأجسام

صحيحة حتى لايقع الناس فى المرض فيعوزهم الطبيب
أن الأطباء شغلهم معالجة الامراض واحضار الأدوية ودرس العقاقير وابادة الحيوانات الذرية تارة والاحتراس منها تارة أخرى عن النظرات العامة فى حفظ الصحة — إذن هذا العمل مختص بأمثال هذا الكتاب من كل كتاب عام لمؤلف يعيش لنفع الجمهور
ولا ريب ان كتاب نظام العالم والأمم كتاب عام حريص أشد الحرص على الثقافة العامة وأى نوع من الثقافة العامة أهم وأجدر بالعناية من أنواع الغذاء
ثم انك ذكرت بعض الأعضاء الباطنة ولم توضح أشكالها ولم ترسم صورها مع انك قلت فى كتابك الجواهر فى تفسير القرآن ان هذا الزمان أنسب الأزمنة لظهور الحقائق اذ يقول الله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) وهذه الآراء لن تتم إلا بالمشاهدة والمعاينة التى بها أيقن الخليل عليه السلام
فهلا رسمت لنا الجهاز الهضمى وأوضحت تقسيم أنواع النبات والحيوان المتقدمات فى هذا الكتاب على تلك المصانع المعدة لتلك الأطعمة فى الجهاز الهضمى حتى يعرف الناس ان هذه الأطعمة المنتشرة فى الأرض مقسمات تقسيما منظما على تلك المواضع المختلفات فى الجهاز الهضمى وان هذا وذاك كتاب مفتوح يقرؤه العلماء ويعقله الحكماء ثم ترسم بعد ذلك الجهاز التنفسى الذى له السلطان على الدائرة الدموية ثم ترسمها وترسم الجهاز العصبى الذى له السلطان على القوة الفكرية وقوى الذكر والحفظ والخيال والعقل ، وهنالك يحق لك أن تنتقل الى الباب السابع الذى فيه العلوم والمعارف وعلم النفس أما الآن فلا
فقلت له : نعم سأفصل الكلام فى هذا المقام تفصيلا واجعله فى ستة فصول :
الفصل الأول فى ان جسم الانسان كالآلة البخارية الفصل الثانى فى ذكر ما أجمع عليه أكابر أطباء عصرنا من الأغذية النافعة والضارة حتى يسهل على أهل العلم أمر التغذية وتقل الأمراض وتطول الأعمار اذا أراد الله ذلك الفصل الثالث فى بيان ان هذه الأغذية مقسمات على ما فى الجهاز الهضمى من آلات الهضم المختلفات الفصل الرابع فى بيان الجهاز التنفسى الفصل الخامس فى الكلام على الدورة الدموية تفصيلا الفصل السادس فى الكلام على الجهاز العصبى

الفصل الأول

من المبحث الثانى

فى ان جسم الانسان كالآلة البخارية الطاحنة

من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن عند آية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا) فى سورة الأعراف فى المجلد الرابع وهذا نص مااختصرته منه :

ان البدن الانسانى كله قوامه الهيكل العظمى وأهمه العمود الفقرى الذى ينتهى بالجمجمة الكاسية للمخ الذى تتفرع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة وفى هذا العمود الفقرى تغرس الأضلاع المنحنية المكونة لما يشبه صندوقا يحتوى على القلب والرئتين وتحت هذا الصندوق البطن وفيه المعدة والأمعاء والكبد والكليتان . ثم أن هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى فبالرجلين نسعى لجلب الطعام وباليدين نتناوله ونضعه فى الفم وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواحين التى صنعها الانسان ليصلح أن يدخل فى المرىء الموصل الى المعدة فيستقر هناك زمناً ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دماً

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلا لابد لها من وقود . هكذا كانت أجسامنا فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود وما هو إذن هو الطعام . ان الجسم ليس موقداً توقد فيه النار حقاً ولكن فيه الطعام الذى يدفئنا بلا دخان ولا نار وينقلب دما يجرى فى شرايينا فينتشر من القلب الى جمجمة الرأس وإلى نهاية أصابع اليدين والرجلين ، وما القلب إلا كالطلمبة الماصة الكابسة فهو يجذب الدم اليه ثم هو يدفعه دائما ولن يدوم القلب فى حركته التى لانعيش إلا بها إلا اذا استوفينا شروطاً لابد منها لذلك الدوام فضلا عن الطعام كالهواء النقى والضوء والرياضة البدنية . اذا تم هذا كله فان الفضلات لابد من إخراجها وهى تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والأمعاء فبالجلد يخرج العرق وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون أى المادة

الفحمية وبالأمعاء تخرج الفضلة الغليظة ، ومعلوم أن الكليتين يأخذ الماء عنهما الحالبان وهما يوصلانه إلى أحد السبيلين ، إذا عرفت هذا وقمت بما يوجب صحة بدنك ومضغت الطعام جيداً ولم تر فى ذلك أى ضرر فانك تكون فى صحة جيدة ولكن لا يتم ذلك إلا بخمسة أمور وهذا بيانها .

(١) أن تكون مسروراً بما حولك و بعملك

(٢) وأن تكون آراؤك وأميالك موزونة لامضطربة

(٣) وأن تكون قانعاً بما لديك من أمور هذه الدنيا

(٤) وأن تكون صابراً عند الملمات والحوادث المزعجة

(٥) وأن تجعل لك فى وقت فراغك عملا مقبولا لأنك اذا تركت نفسك لحظة تنازعتها الأهواء فصلت فأحزنتك فمنعت الصحة

اعلم أيها الذكى أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت وإذا فقد الصحة الغنى والفقير فقد فقدا السعادة والسرور ، فالصحة شرط للسعادة متى صح جسمك نفعت نفسك ونفعت غيرك وكنت سعيداً فإياك أن تأكل فوق الشبع مثلاً أو تعرض نفسك للبرد أو تأكل ما يضرك بل عليك بالنظام الذى يشير به الأطباء

ان الدم الجارى فى الأوعية الدموية يعوض ما تفقده كما تقدم فمنه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شاكل ذلك فاذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والخبز عماد الحياة وقوامها فانه يحتوى على مادة اللحم والمادة التى تحدث فى الجسم حرارة ومن الأغذية الفاكهة والخضر واللبن والبيض . ثم أن الملح فى الطعام و بعض المعادن الأخرى التى تدخل فى الأطعمة كلها يتكون منها العظم

ولما وصلت الى هذا المقام حضر صديقى العالم واطلع عليه وقال لقد شرحت صدرى ولكن يظهر لى انه يجب أن تبين بالشكل مجموع الجسم الانسانى حتى نراه بالعين وتوضح الكلام عليه بأكثر مما ذكرت لأن هذا المقام يعوزه الايضاح فقلت جاء فى كتاب

[illegible]

تركيب جسم الانسان

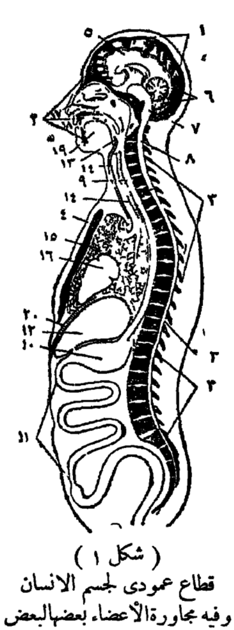
يجب معرفة تركيب الجسم بالاختصار ليسهل معرفة وظائفه :

يتركب جسم الانسان من الرأس والعنق والجذع والأطراف .

فالرأس فيه المخ وجزء من النخاع وعضو الابصار والسمع والتكلم والذوق والشم ومنافذ جهازى الهضم والتنفس .

والعنق فيه الحنجرة (وهى عضو الصوت) وفتحة القصبة الهوائية وهذه عبارة عن أنبوبة توصل الهواء من البلعوم إلى الرئتين وفتحة المرىء وهو عبارة عن أنبوبة خلف القصبة الهوائية توصل الغذاء من البلعوم إلى المعدة . وفيه أيضاً العروق التى يصعد فيها الدم إلى الرأس وفيه الجزء العلوىّ من العمود الفقرى المحتوى على جزء من النخاع

والجذع مركب من جزأين علوىّ وسفلىّ : فالعلوىّ هو الصدر وهو تجويف مخروطىّ الشكل محدود من الخلف بالعمود الفقرىّ ومن الجانبين والأمام بالأضلاع وعظام القص .



(شكل ١)
قطاع عمودى لجسم الانسان
وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه مع الأسنان (٣) العمود الفقرى (فقرات العنق والظهر والبطن) (٤) القص (عظام الصدر) (٥) قطاع المخ (٦) قطاع المخيخ (٧) اتصال الدماغ بالجزء العلوى للنخاع الشوكى (٨) النخاع الشوكى (٩) المرىء (١٠) المعدة (١١) الامعاء (١٢) الكبد (١٣) لسان المزمار (١٤) القصبة الهوائية والحنجرة (١٥) الرئتين (١٦) القلب (١٧) الحفرة الانفية (١٨) تجويف الفم (١٩) اللسان (٢٠) الحجاب الحاجز .

والصدر يحتوى فى الجهة اليسرى المقدمة على القلب والشرايين الكبيرة وعلى الرئتين وينتهى الصدر من الأسفل بالحجاب الحاجز الفاصل بين جزأى الجذع ويخترق هذا الحجاب شريان عظيم (الأورطى) والمرىء والوريد الأجوف السفلى والقناة اللينفاوية . والسفلى هو البطن المكون من الأمام والجانبين من عضلات ومن الخلف منها ومن العمود الفقرى وينتهى من أعلى بالحجاب الحاجز ومن أسفل بعظام الحوض ويحتوى على الأعضاء الآتية وهى : الكبد والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والبنكرياس والطحال والكليتان والمثانة .

فالكبد يشغل الجهة اليمنى العليا من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة :

والمعدة معظمها فى الجهة اليسرى العليا .

والأمعاء الدقيقة تملأ الفراغ أمام المعدة وأسفلها وطولها نحو ستة أمتار والغليظة تبتدئ من أسفل الجانب الأيمن للبطن ثم تصعد نحو الكبد ثم تتجه إلى الشمال مارة أسفل المعدة ثم إلى الأسفل مخترقة الحوض وتنتهى بالمستقيم وطولها نحو متر وثمانية سنتيمترات .

والبنكرياس محله خلف المعدة .

والطحال محله فى الجانب الأيسر تحت الحجاب الحاجز .

والكليتان مجاورتان للعمود الفقرى واليمنى تحت الكبد واليسرى تحت الطحال

والمثانة موجودة فى أسفل البطن أمام المستقيم .

والأطراف أربعة : الذراعان والطرفان السفليان ولا حاجة لشرح أجزائهما :

وظائف جسم الانسان

وظيفة الجسم تتكون من وظائف أعضائه ، وهذه الوظائف تنحصر فى الحركة ودورة الدم والتنفس والهضم والافراز الداخلى والخارجى والادراك والحواس وانتظام الحرارة .

الحركة هى المميز بين الحى والميت ويلزم لايجاد هذه الحركة سواء كانت عمومية أو قاصرة على بعض أعضاء الجسم (كحركة القلب والرئتين) مادة مركبة تحترق فى الجسم فيأخذ منها غذاءه ويفرز منها مالا يفيد، فمثل الجسم فى حركته وتغذيته كمثل الآلة البخارية التى لايمكنها أن تتحرك إلا بتغذيتها بالفحم فتنتفع بما يحترق منه وترمى فضلاته .

الفقد والتعويض — والحركة تنشأ عن تحليل وتركيب (تفاعلات) فى جسم الانسان وذلك بواسطة خلاياه أو الذرات الأصلية التى يتركب منها الجسم فالاحتراق والاستحالة يحصلان فى الخلايا ومنهما تتولد حرارة الجسم ولو استمرت هذه الظواهر بدون غذاء لتحلل الجسم وفنى ولذا كان من الواجب لتقوية الجسم تعويض مافقد من تلك المواد المركبة وذلك بواسطة الغذاء (المكون من مواد صلبة وسائلة وغازية)، الذى يحمله الدم للخلايا .

وتأخذ خلايا الجسم وأنسجته الغذاء الضرورى لنموها ولإعادتها لحالتها الأولى وأوكسيجينها اللازم لحياتها من الدم عند وروده اليها ويتركها حاملا لفضلات غذائها مثل حمض الكربونيك الناتج من الاحتراق . والدم يأخذ هذه المواد الغذائية من مصدرين وهما الهواء بواسطة الرئتين والغذاء من طريق القناة الهضمية فيحمل كل ذلك إلى جميع أجزاء الجسم .

الافراز إما داخلى أو خارجى

الافراز الداخلى : يوجد داخل بعض أجزاء الجسم فراغ منداة أغشيته على الدوام بمفرزات مخصوصة وذلك كالأغشية التى تبطن المفاصل أو التى تغلف القلب والرئتين وأحشاء البطن وذلك لسهولة حركتها . وأما أعضاء الافراز الحقيقية فهى الغدد من الكبد إلى أصغر غدّة .

الافراز الخارجى : لابد للجسم من تخلصه من بقايا وفضلات الغذاء وهذا لايكون إلا بخروجها خارج الجسم كالماء الزائد عن الحاجة بواسطة الأمعاء والكلى والرئتين

سوالجلد و يصل إلى الأعضاء الثلاثة الأخيرة من طريق الدم ولذا سميت أجهزة الافراز ،
ولسهولة الفهم يمكن وضع ذلك على شكل جدول كما هو آت :

اسم الجهاز	ما يدخل الجسم	ما يخرج من الجسم
الهضمى	أطعمة صلبة رطل ونصف انجليزى ماء ... ... ٥٠ أوقية	براز ... ... ٤ أوقيات
التنفسى	أوكسجين ٢٨ قدما مكعبا	ماء ... ... نصف رطل حامض الكربونيك { رطلين تقريبا ١٤ قدما مكعبا
البولى	—	بوليا مواد صلبة { أوقية واحدة مايقرب من ٥٠٠ قمحه ماء ... ... رطلين
الجلدى	—	مواد دهنية

أجهزة الجسم هى :

(١) جهاز الحركة ويدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الارادية وأوتارها ؛

(٢) الجهاز الدورى وأعضاؤه ثلاثة : القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية ؛

(٣) الجهاز التنفسى وأعضاؤه أربعة : الحنجرة والقصبه والشعب والرئتان ؛

(٤) الجهار الهضمى وأعضاؤه تسعة : الفم والأسنان وغدد اللعاب والبلعوم والمرىء والمعدة والبنكرياس والكبد والامعاء ؛

(٥) الجهاز الليمفاوى وأعضاؤه عروق الدم : الأبيض والأوعية اللبنية والطحال و بعض الغدد ؛

(٦) الجهاز البولى وأعضاؤه : الكلى والحالبان والمثانة ومجرى البول ؛

(٧) الجهار الجلدىّ وأعضاؤه : غدد العرق والغدد الدهنية والشعر والأظافر وطبقات الجلد ؛

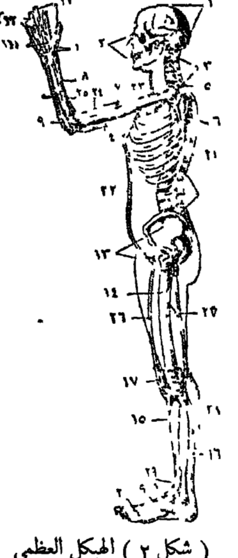
(٨) الجهاز العصبي وأعضاؤه : المخ والنخاع والأعصاب بأنواعها وأعصاب الحواس الخمس .

جهاز الحركة

يتكون هذا الجهاز من الهيكل العظمى الذى تتصل عظامه بعضها ببعض بواسطة المفاصل ومن العضلات التى تحركها وتحرك العظام .

الأطراف السفلى تحمل الحوض الذى يتصل بها وتحمل العمود الفقرى الذى يحمل من أعلاه الجمجمة ويتصل به فى جزئه الخلفى اثناعشر زوجا من الأضلاع وبذلك يتكون الصدر المتصلة به الأطراف العليا أنظر (شكل ٢)

حركات المفاصل تختلف باختلافها فحركات مفصل اليد مثلا مخالفة لحركات مفاصل العمود الفقرى ولا يمكن أن تقوم إحداها مقام الأخرى والمفاصل مغطاة بغضروف أو بما يشابهه ومبطنة بغشاء مندّى على الدوام بسائل لزج .



(شكل ٢) الهيكل العظمى

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه (الفك السفلى والعلوى) . (٣) الفقرات . (٤) القص . (٥) الفقرة الأولى الظهرية . (٦) عظم اللوح . (٧) عظم العضد . (٨) عظم الزند (٩) عظم الكعبرة (١٠) عظام الرسغ (١١) عظام المشط (١٢) عظام الأصابع (١٣) الحرقفه (١٤) عظم الفخذ (١٥و١٦) عظما الساق (١٧) الرضفة (١٨) عظام القدم (١٩) عظام المشط (٢٠) سلاميات القدم (٢١) عضلات العمود الفقرى (٢٢) العضلات المستقيمة للبطن (٢٣) العضلات المقدمة للعضد (٢٤) عضلات الذراع (٢٥) عضلات الساعد (٢٦) عضلات الفخذ المقدمة (٢٧) عضلات الفخذ الخلفيه (٢٨) عضلات الساق الخلفية (٢٩) عضلات الساق المقدمة

العضلات إرادية وغير إرادية :

فالأولى كعضلات الهيكل تتصل أطرافها بالعظام فتنثنى هـذه متى انكمشت وتنبسط متى انبسطت وتدور حيثما دارت

والثانية لاتسلط للارادة عليها كعضلات القلب والمعدة والأمعاء .

الفصل الثانى

من المبحث الثانى

فى الـكلام على مايوافق من الأغذية ومالايوافق منقولا ومختصراً من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة ص فى المجلد الثامن عشر وهاهو ذا أقصه عليك فهو كافلك أيها الذكى فإن أبيت إلا التفصيل فارجع إلى ذلك التفسير وذلك فى قوله تعالى: (فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين) و بيان أن بنى آدم مثلوا قصة أبيهم فهاهم أولاء الذين يكسون ورق الموز فى بلاد السودان فى الرسم المتقدم فى آخر سورة يس وأولئك العراة هناك ، ويشابه الأولون آدم بعد الأكل من الشجرة والآخرون يشبهونه قبل الأكل منها ، وهاهم أولاء أهل المدنيَّة الحاضرة كلهم يشابهونه لماطرد من الجنة ، وسرُّ تكرار هذه القصة فى القرآن أن نحترس مما دفعنا اليه جهلنا بفوائد الخبز الذى لم ينخل دقيقه والخضر التى لم تطبخ و بفوائد ضوء الشمس و ضرر الإكثار من الطعام والتوابل وهكذا و بيان أن الطب الحديث وكشف الفيتامين قد أضافا إلى معجزات الاسلام معجزات جديدة ، فهاهو ذا الخبز الذى ينخل دقيقه وعدم طبخ الطعام هذان وردا فى الأحاديث السابقة ، والعلم الحديث يقول : « إن الفيتامين أى قوة الحياة فى النخالة وفى الطعام الذى لم يطبخ » إذن دين الاسلام ابتدأت تظهر أسراره الآن ، و اذا كان الأمر كذلك فلنذكر ماجاء فى كتاب

« دستور التغدية » المترجم عن علماء أوروبا وكيف يقولون « إن الانسان يمكنه أن يعيش مائتى سنة بحسب ظنهم ، وأن التداوى بالعقاقير مهلك . وخير التداوى ما كان بالشمس . والحمية وتدبير الأغذية والمركبات الطبية مهلكة للناس . والطبيب قد يكون شرا من المرض »

وهاك أسلوب الدكتور هيج وكانتانى وسو بروسكى وكوهن إذ يقول الأول « حمض البوليك هو أصل الشقاء . وهذا الحمض سببه ما يتخلف من الأغذية فهو يسد المسام . وأمر باقلال اللحم والفول والعدس والبازلا والفاصوليا واللوبيا الجافة والكرنب والقنبيط والشاى والقهوة والكاكاو ومتى ترك الانسان هذه الأشياء وأكل الخبازى والاسفاناج والكرنب والفواكه واللبن والجبن والقنبيط صح جسمه » وكانتانى يمنع الدهنيات والسكر والنشا والخل والمخللات واللبن والجبن مخالف هيج فى هذين والأمراق والعجينيات والارز والبطاطس والحلوى والتوابل ويكتفى بالبيض والنباتات الخضراء والفواكه مع الحركة فى الهواء الطلق

وسو بر ويسكى أمر بالفواكه أيضا والليمون والنباتات كالشكوريا والكمثرى والحماض والهندبا والخس والكرفس والجرجير والفجل

ومثل هؤلاء كوهن فانه يمنع التوابل واللحم والأشربة المخدرة كالنبيذ والعرقى والقهوة والشاى والنشوق والتبغ وهكذا الأبخرة الصاعدة من أماكنها والعبار ، وهو يقول باستعمال الحمامات الجاوسية مع دلك الجسم بفوطة خشنة مبتلة والحمامات البخارية ثم ذكر ملخص لذلك

(الفصل الثانى) فى ضرب مثل لأجسامنا ودمها وغذائها وأمراضها بالأرض المصرية ونيلها والغرين الذى فيها . فالجسم كالأرض ، والدم كالماء . والغرين فى الماء كالمواد الغذائية فى الدم . والسدود فى النيل كسدود العروق وازالتها بالحمامات أو بالبقول والفواكه الخ كازالة السدود من النيل وكثرة الأورام والأمراض بسبب انسداد العروق كهلاك الزرع بقلة الماء أو كثرته فى البلاد المصرية . والانسان بعد

حفظ صحته أشبه بالأمة المصرية التي بلغت الآن (١٤) مليونا والانسان إذا لم يحافظ على صحته يكون أشبه بالأمة المصرية قبل أيام (محمد على باشا) إذ لم يكن للنيل قناطر تحفظ الماء فكان السكان نحو مليونين أو ثلاثة . فأنت أيها الذكى إما أن تكون كآدم قبل الأكل من الشجرة فتتبع نصائح الأطباء واما أن تكون كآدم بعد الأكل من الشجرة فتتبع العادة ، إن سر هذه القصة ظهر الآن

(نصائح عامة) نصيحة الأستاذ (هند هيد) انه قال : « ان الناس يدفعون الأثمان غالية ولا يشترون إلا الموت باللحم والبيض وقال : يكفى من المادة المغذية من (٢٠) الى (٢٥) غراما بدل (٨١) فى الرأى القديم وهذه تحصل من ثلاثة أرطال من البطاطس وقد أعطى هذا المقدار لرجلين مع أشياء أخرى فغلبا فى الجرى من أكلوا اللحم ، إن الوفيات فى المدن أربعة أضعافها فى القرى لكثرة اللحوم فى المدن ، والخبز والتمر يجعلان فى البدو صلابة وقوة تدهش الاوروبيين »

(نصيحة دورفيل) يقول : « إن دولة قوة المصارعين الدين يأكلون اللحم قصيرة الأمد ، والذين يمتلئون شحما بالأغذية الغنية إما أن يمرضوا بالبثور ونحوها ، واما أنهم تظهر عليهم علامات الصحة والجمال . فالمريض هو القوى لأن جسمه صرف مافيه من الفضلات والذى لا يمرض هو الضعيف لأن جسمه عجز عن استخراج الفضلات وهذا يموت فجأة فى عشية أو ضحاها »

(ضرر الأغذية المركزة) لدورفيل أيضا . يقول : «إن مستخرجات اللحم والأنبذة والبرشامات وما أشبه ذلك أشبه بضربة سوط للحصان يجرى ثم يقع »

(ضرر السكر الصناعى وفوائد الطبيعى) السكر المعلوم مهلك فيجب الاقلال منه. نعم الصغار تظهر عليهم ملامح الصحة ولكن ذلك لا يدوم فيجب أن يستغنى الناس بالفواكه عن السكر ولا فرق فى الضرر بين السكر والخمر واللحم وهذه هى الأغذية الثلاث المميتة

نصائح الاستاذ باز : متى نأكل وكيف نأكل؟ يجب إطالة المضغ ونظافة الاسنان

وعدم شرب ماهو حار . والأحسن أن يضطجع بعد الأكل من نصف ساعة الى ثلاثة أرباع ساعة . الفواكه والحبوب هى أجود الأغذية وأفضل الحبوب القمح ومثل الحبوب النباتات

نصائح دوفورست :

(١) لا تأكل بين أكلتين ولو تفاحة

(٢) لا تأكل بسرعة بل امضغ جيداً كل الطعام وأجد المضغ

(٣ و ٤) لا تأكل غذاء حارا ولا باردا بردا مفرطا

(٥) الأغذية الدسمة المقلوة مضرة

(٦) احذر الفلفل والخردل والقرفة والقرنفل وجميع التوابل لأنها تحدث النزلات والأمراض

(٧) الجبن وكل مخلل واللحم وما يستعمل نقلا من الأجسام الدسمة المركبة ، كل هذا يجب منعه

الكلام على الفيتامين أى سر الحياة ، الفيتامين هو (ا . ب . ج . د) وهذه قد كشفوها فى الغذاء الطازج النيء على حاله الطبيعية ، وقد حبسوا بعض الحيوانات فى مكان مظلم وأعطوها أغذية مطبوخة فصارت ضعيفة جداً ، فلما رأت نور الشمس وأكلت المآكل النيئة صحت أجسامها ، ووجدوا ركاب البحار الذين يأكلون طعاماً محفوظا فى العلب مرضى لأن الطعام لاحياة فيه فأطعموهم أغذية نيئة وعرضوهم للشمس فشفوا ، ووجدوا أن مرض الأسقربوط شفى بالليمون المالح والبرتقال والخضر النيئة ولم يشف بشربات البرتقال ولا بالخضر المغلى على النار ، وثبت ثبوتا لا شك فيه أن الأغذية النيئة هى المشبعة بالحياة والزيوت النيئة كذلك ، أما التى مر عليها زمن أو التى عليت بالنار فانها لم تفد

الحبوب كالقمح والفول والذرة اذا استعملت نيئة كما تأكل الحيوانات أعطت قوة جيدة جداً . طبيب روسى جرب فى مكتبه (٢٠) سنة تجارب فأعلن أن الانسان

يعيش (١٦٠) سنة اذا أكل النبات الذى لم يطبخ ، وههنا ذكر أن العلوم التى نقلها الناس عمن قبلهم وقلدوهم فيها أشبه بالمطبوخ من الطعام أو المحفوظ فى العلب فان هذا فقد قوته ، فلا بد من التفكر فى تلك العلوم ليستجد البحث وكما أن نار الفحم من آثار حرارة الشمس ولكنها لا تقوم مقامها فى إعطاء الطعام قوة الحياة ، هكذا آراء كبار العلماء فى الاجتهاد لا تقوم مقام الرجوع للعقل والعمل بلا تفكر يؤخر الأمم فليرجع الناس للكتاب والسنة حتى يفهموا كيف استنبط الأوائل علومهم . المسموع إذا خلا من المنظور كان قاصرا على التقليد

وهذا الذى ذكرته هنا إجمال ومن أراد زيادة الفائدة فعليه بما ذكرناه فى تفسيرنا الجواهر فى سورة ص وفى سورة البقرة عند آية (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) وعند آية الاسراف فى سورة الأعراف وفى سورة الحجر عند الاشارة إلى قصة آدم وفى سورة طه كذلك وفى سورة الشعراء عند آية (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

﴿ فائدة ﴾

جاء فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن من المجلد الرابع تحت عنوان مناقضات الصحة وموجبات العلل والاسقام

(١) الطباق وتسميه الفرنجة (توباكو) سموه باسم جزيرة (توباجو) إحدى جزائر (أنتيله) بأمريكا قد اعتاد الناس تدخينه وحرم جميع الأطباء استعماله وقد شرحنا هذا المقام فى سورة (البقرة) عند آية الخمر بايضاح تام وكذلك شرحنا مسألة الطعام عند قوله تعالى (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ الخ) فقد أفضنا فى هذا المقام هناك و بينا أن أكثر ما اصطلح عليه الناس أنه حسن هو صار بهم كالسكر الصناعى المعروف وقد أشار الأطباء بالاكثار من الفواكه بدله لأنه صار وقد عملت بهذا ووجدته حقا . وهكذا مما لا نعيده هنا وانما نريد أن نشرح مسألة الطباق (الدخان) شرحا أوسع لم نذكره هناك . وإليك مواد أضراره بالصحة العمومية وها هى ذه :

إن أكثره (١) يفسد الريق (٢) ويضر حاسة الذوق والشم والبصر (٣) ويضعف المعدة (٤) ويقلل شهوة الطعام (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية في الرئة (٦) ويورث الخفقان في القلب (٧) ويضعف الأعصاب (٨) ويجعل في المخ ارتجاجا وتخديراً (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة (١٠) ويضعف القوة المفكرة (١١) وقوة الارادة (١٢) وربما يحدث الجنون (١٣) وتارة يحدث الرمد في العينين (١٤) وفي المجموع العصبي يجعل فتورا (١٥) ويعيق الجسم عن النمو. وقد حلله الأطباء كيماويا فوجدوا أنه يحتوى على مادة سامة إذا وضع منها خمس نقط في فم كلب مات في الحال أو عشر نقط في فم جمل كفت لقتله. وهاك حكاية.

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطى التدخين فلم يزدد المريض إلا غراما به فبينما هو سائر ذات يوم إذ رآه الطبيب يسعل وهو لا يستطيع المشي ولا أي عمل الا ببطء وقد أصبح يحمل العصا لتعينه فقال الطبيب له لقد صدق من قال (الذي يفرط في استعمال «الطباق» لا يسرق متاعه لص ولا يعضه كلب ولا يبيض له شعر) فلما استفهم المريض عن سبب ذلك قال الطبيب لأنه يسعل الليل كله لمرضه فيظنه اللص مستيقظا فلا يسرق منزله وعصاه التي يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب وهو يموت في ريعان شبابه فكيف يبيض شعره وقد ضمه القبر فاعتبر المريض وتحمل فراق « الطباق » وعاش قرير العين اه

﴿ ويلحق بالدخان الأفيون ﴾

هو عصير الخشخاش يعصر منه قبل تمام شجره فاذا يبس تراه أسود اللون مر الطعم وهو خطر شديد يورث إخلال العقل ويهذى الانسان ولايعقل مايقول . ومتى ملكت هذه العادة الانسان أصبح في عبودية لها لانطاق ومثل ذلك أيضا ما يسمى

﴿ الحشيش ﴾

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول . وهو من نبات ينبت في البلاد

الحارة . وتستعمله الطبقات المنحطة فى بعض البلاد كبلادنا المصرية والحكومة تراقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالحبس وهو سم مهلك لمن استعمله إلا من تاب . وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثالا ينسج على منواله المسلمون وينشرون مضار هذه السموم بينهم حتى يخرجوا من عداد المذكورين فى قوله تعالى : — إنه لا يحب المسرفين — وهذا كله من الإسراف المذكور فى الآية وأن هذا البيان الذى ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره فالمسلم الذى يتعاطى الدخان أو القهوة أو غيرهما مما هو أشد فتكا كالشاى والخمر والحشيش والأفيون . أو أقل فتكا مثل الكاكاو وغيره معدود من المسرفين ويقول الله تعالى : — إنهُ لا يحبُّ المسرفينَ — ولما قل حب الله لنا بسبب تعاطى هذه المضار سلط علينا الأمم فهو لا يحب أكثرنا لجهلنا بأمرين القرآن وعجائب صنعه لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

من المبحث الثانى

فى بيان أن هذه الأغذية مقسمات على ما فى الجهاز الهضمى من الآلات المعدة للهضم بالفطرة

مختصراً مما جاء فى سورة فصلت فى آية (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً الخ) فى المجلد التاسع عشر من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن وهذا نصه :

سمعناك يا ربنا تقول — وقدّر فيها أقواتها — . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هى المشرقات العجيبات من الشموس والكواكب والأقمار . أدرنا الطرف إلى تلك المشرقات فألفيناها لاتفتأ تلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل

فيه ولا خطأ ولا خطل . ورأينا صيفا وشتاء ، وربيعاً وخريفا ، وليلا ونهاراً كلهن بحساب . ثم أن الأنوار الواصلة إلى الأرض مختلفات ضعفاً وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات فى الأرض فقلنا لعل الحساب فى تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلا حساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكنا لما نظرنا فى أمر النبات وأخذنا نستقرى أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأيناه موضوعا أيضا بدقة لأنه مجعول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج فى اليوم والليلة من الغذاء إلى مقدار أقله نحو نصف كيلو جرام وأكثره نحو كيلو جرام . وسيأتى تفصيل هذا المقام فى أول (سورة الجاثية) فراجعه

رأينا أن الأنسان يحتاج إلى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غيرعضوية كالأملاح المختلفة والماء : والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع مايحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام النشاء (٤) كالورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كالورى ، فاذا كان فى الطعام (٣) كيلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

(غذاؤنا لابد فيه من مواد دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية)

فالدهنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه فى طعامنا ألفيناه فى النبات وفى الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوّة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء ، وتارة نكثر من الدهن ، وتارة نكثر من الزلال ، ثم اننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضاً فعرفنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة لنستعمل مايوافقنا منه بعد التروّى والبحث والتنقيب . وهاك مثلا لذلك :

(المواد النشوية)

رأينا المادة النشوية تكثر فى الأرز والذرة والقمح والبرلة الناشفة والفول الناشف واللوبية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرنب والطماطم والسبانخ والخس وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقل من عشرة فى المائة مواد نشوية . ونرى الفول السودانى والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروة وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة فى المائة .

(المواد الدهنية)

ونرى المواد الدهنية تكثر فى اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهى فى هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن فى الديك الرومى والأوز والضانى والبقرى والفول السودانى والبيض أكثر من عشرة فى المائة . ونراه فى القمح والذرة واللبن والبطاطس والبطاطة واللوبية الخضراء وما أشبه ذلك قليلا جدا

(المواد الزلالية « الآزوتية »)

اننا نرى المواد الزلالية فى الديك الرومى والأوز والفراخ والضانى والبقرى والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والفول السودانى والعدس واللوبية الناشفة والفول الناشف والبرلة الناشفة فى كل هؤلاء أكثر من عشرة فى المائة . ونراها أقل من عشرة فى المائة فى البرلة المقشرة وفى الكرنب والطماطم وهكذا

الى أن قلت نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حقا و يملؤها جمالا ويبهرها أنوارا

أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقتها للجهاز الهضمى . ياسبحان الله ٠ نرى الانسان يعوذه فى اليوم (١٨٠٠) سعر إذا كان فى فراشه . وقد عرفنا ماهو السعر فيما تقدم فربما أن الذى يحدثه فى الجسم هو المادة الدهنية والنشوية

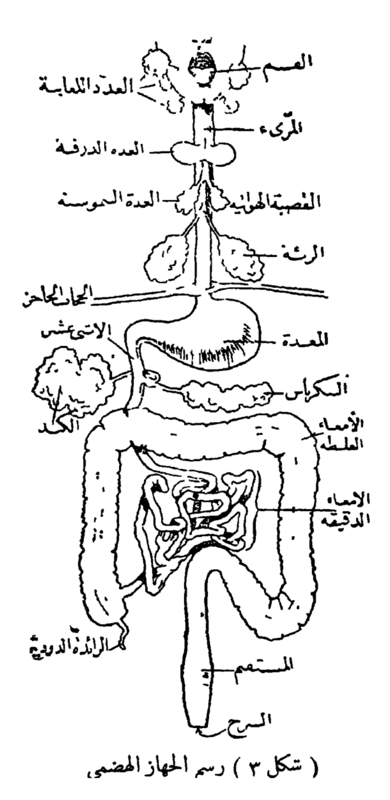
والأزوتية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر ان كان فى شغل شاق والى نحو (٣٠٠٠) اذا كان فى شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر فى الذرة والقمح والصنوبر والفول السودانى فماذا نجد ؟ نجد الجدول الآتى

الصنف	ماء	آزوتية زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى
قمح	٨ر١٢	٨ ر ١٠	١ ر ١	٨ ر ٧٤	١٥٦٤
أذرة	٣ ر ٩	٩ ر ٩	٨ ر ٢	٣ ر ٧٦	١٥٤٧
صنوبر	٤ ر ٣	٦ ر ١٤	٩ ر ٦١	٣ ر ١٧	٣٠٤٠
فول سودانى	٢ ر ٩	٨ ر ٢٥	٦ ر ٣٨	٤ ر ٢٤	٢٤٣٤

انما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت فى مقدار السعر وفى المقادير الدهنية والاوزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى فى المادة الأوزوتية والصنوبر فى الدهنية . والقمح والذرة فى النشوية وارتفع الصنوبر فى قيمة التغذية ويليه الفول السودانى وأقل منهما الذرة والقمح

هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية فى النبات ، ان كل نبات لا يخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفات كما اختلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلفت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب ! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمى للانسان مثلا . أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة وتساعد تلك المادة الملونة التى تقدم وصفها فى (سورة يس) عند آيه — سبحانَ الذى خلقَ الأزواجَ كلَّها — يارب عجبا (انظر الموضوع هناك اذ ترى صور الورقات ، ووصف الحجرات فى كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوفا وملايين فى الورقة الواحدة والمادة الملونة فى تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس فى اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا ترى

جذور الأشجار والزروع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التى يتمثل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هى مفاتيح سر النبات ، فتكون فى الصنوبر غيرها فى الفول السودانى غيرها فى الذرة والقمح بحيث لو اختلت أو اضطربت فدخلت مواد تزيد فى المادة الدهنية أو السكرية أو الأزوتيه عما هو مقرر لكل منها لم



(شكل ٣) رسم الجهاز الهضمى

يكن فى الأرض فول سودانى ولا ذرة ولاقمح ولا صنو بر ، فنظام هذا العالم نظام أدبى عجيب ، لو اختلت الأوراق فى حجراتها او الجذور فى فتحاتها فدخلت ذرات لاتوافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعش حيوان ولا انسان قال تعالى : (وكلُّ شىء عندَهُ بمقدَار) . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمى (انظر شكل ٣)

تعجب لهذا الجهاز . انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة فى النبات ، فكما نرى فى كل نبات :

(١) مادة نشوية وتغلب فى الحبوب كالقمح والشعير والأرز، وفى الخضروات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجذر والبنجر ، وفى البقول كالفول والعدس واللوبية والبزلة (الجافة)

(٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب فى البقول واللحوم

(٣) ومادة دهنية وتغلب فى الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)

هكذا نرى فى هذا الجهاز المرسوم فى الصحيفة السابقة :

أولا — (١) مصانع فى الفم وهى (٦) ينابيع تهضم بعض المواد النشوية

(٢) وما بقى من النشاء بلا هضم يهضمه النكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضما (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

ثانيا — المواد الدهنية وهى تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

ثالثا — المواد الآزوتية وهى تهضم بالعصير المعدى والنكرياس

الهواضم	المواد		
(١) لعاب الفم وهو ست ينابيع	النشاء	. . .	. . . .
(٢) العصير المعدى	. . .	. . .	الآزوتية
(٣) الصفراء	. . .	الدهنية	. . . .
(٤) النكرياس	النشاء	الدهنية	الآزوتية
(٥) عصير الأمعاء الدقاق	النشاء	. . .	. . . .

فاذا نحن جاوزنا لعاب الفم ألفيناعجبا !ألفيناالبنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وألفينا العصير المعدى والصفراء والأمعاء قدوزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعا عادلا فساعد كل مصنع فى هضم مادة من المواد ، اذن لكل مادة نوعان من الهواضم اذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية

ههنا ننظر فى ضوء الشمس ، وفى حجرات الأوراق ، وفى فتحات الأنابيب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم بحث فى الجهاز الهضمى فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد التى عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية

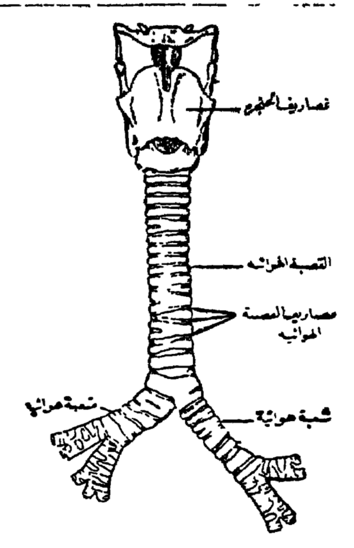
الفصل الرابع

من المبحث الثانى
فى بيان الجهاز التنفسى

أنت تعلم أيها الذكى ان ماتقدم من الأطعمة المشروحة فى الفصل الثانى من المبحث الثانى الذى نحن بصدد الكلام عليه من الأطعمة النشوية الدهنية والزلالية متى تم هضمها صارت خلاصتها دما

وتعلم ان ذلك الدم لابد له من اكسوجين الهواء وهذا الاكسوجين هو أهم مادة الحياة فى أجسام الحيوان وقد دبرت له الحكمة العالية شهيقاً وزفيراً لادخاله واخراجه فوجب أن نبين جهاز التنفس (١) فنريك القصبة الهوائية (٢) والحويصلات الهوائية (٣) ونسيج القصبة الهوائية المبطن لها لتعلم حسن صنع الله جمال الوضع وبهجة الابداع والرحمة والعناية (٤) ثم الرئتين وتفرع القصبة الهوائية فيها (٥) ثم نرسم الدورة الدموية ونشرحها ففى هذا الفصل أربع جواهر

(الجوهرة الأولى) القصبة الهوائية من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن المجلد السابع عشر



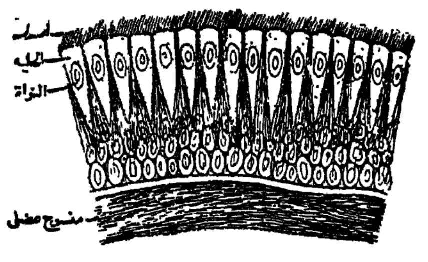
(شكل ٤) القصبة الهوائية وفروعها

(الجوهرة الثانية والثالثة والرابعة) فى الحويصلات الهوائية والنسيج الهدبى المبطن للقصبة الهوائية والرئتين وتفرع القصبة الهوائية فيهما

اعلم ان القصبة الهوائية تكون منها شعبتان هوائيتان وهاتان الشعبتان يخرج منهما مايشابه الأسجار ويسمونه بالحويصلات الهوائية (أنظر شكل ٥)



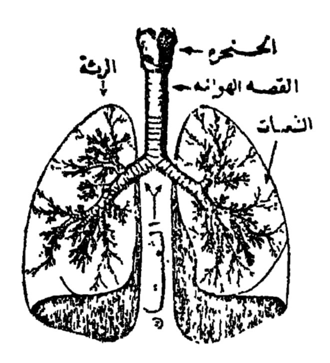
وعند تأمله فى القصبة الهوائية يجد فيها الحكيم عجبا ! يرى نسيجا هدبيا مبطنا للقصبة (أنظر شكل ٦)



(شكل ٦) النسيج الهدبى المبطن للقصبة الهوائية

فيقول : « ماعمل هذا النسيج ؟ إن فيه لأهدابا وخلايا ومنسوجا عضليا » ثم يهتدى أخيراً إلى أن هذه الأهداب أشبه بالكناسين والزبالين لأنها دائما ليلاونهاراً تتحرك من الداخل إلى الخارج ، لماذا هذا ؟ لتطرد الغبار الداخل مع النفس فىالقصبة الهوائية ، فهذه الأهداب حوافظ وخفراء تطرد الأجانب لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للمملكة الدموية ، ولقلب يرسل جنوده الدموية المنهكة القوى المتعبة فتأتى إلى الرئة فيقابلها الخدام والحفظة فينظفونهم ويحملون ماخالطهم من الأدران ويرمون به فى الخارج فضلا عن امداد هؤلاء الجنود بالغذاء وهنالك يسافرون الى الجسم كرة أخرى ويفعلون مافعلوه سابقاء ، وفى أثناء سيرهم يتقابلون مع جنود أخري يأتونالبهم من الغذاء المهضوم النى الذى تمصه الشبكة الدموية فى الامعاء ليكون عوضا عنالدم الذى تمثل بالجسم ، فيقول ذلك الحكيم إذ ذاك : « كيف يفهم المسلمون آية (وَكلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) إلا بهذا وأمثاله ، أو آية (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم) أو آية (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى

جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً الخ »
(أنظر شكل ٧).



(شكل ٧) الرئتان وتفرع القصبة الهوائية فيهما

ثم يقول : « هاتان شعبتان هوائيتان قد تشعبتا فى الرئة وهناك قابلا الأوردة والشرايين » هنالك يهوله الأمر ويزيد عجبه إذ يرى مايشبه الأشجار التى فى الحدائق قد نبتت من القصبة الهوائية وأخرى امتدت من القلب وتقابل الأعلى والأدنى من فروع وفريعات يماثل أدناها أعلاها حتى يمكن الاقتباس والائتناس والأعمال الكيمائية، وهنالك ينظر ذلك الحكيم نظرة أعلى فيقول : « ماهذه الغدد التى أراها على أنواع مختلفة فمنها البسيطة والأنبوبية والعنقودية »

والى هنا يقف القلم عن الايغال فى هذا المقام ففيما ذكرناه كفاية ومن أراد الزيادة فليقرأ نفس الكتاب المذكور

الفصل الخامس

من المبحث الثانى

فى الدورة الدموية

جاء فى كتاب قانون الصحة المنزلية تأليف الدكتور (جون سا يكس) ما نصه :

القلب : هو عضو عضلىّ لا حكم للأرادة عليه فينقبض و ينبسط بنظام خاص وله أوعية خاصة به وهو مخروطى الشكل ومغلف بغشاء و ينقسم الى أربعة تجاويف : العلويان منها يسميان بالأذينين والسفليان يسميان بالبطينين ففى الجهة اليمنى أذين و بطين وفى اليسرى مثلهما ولا تتصل تجاويف جهة بالجهة الأخرى بل يفصل الجهة اليمنى عن اليسرى حاجز عضلىّ ، ولكل بطين فتحة لها صمام يسمح بمرور الدم من الأذين للبطين لا العكس ، و يذهب الدم الى أجزاء الجسم من البطين بواسطة عروق تسمى بالشرايين

يمر الدم مرتين فى القلب ليتم دورته ففى المرة الأولى يذهب من البطين الأيسر الى جميع أجزاء الجسم ثم يعود الى البطين الأيمن وهذه تسمى بالدورة الكبرى وفى الثانية يذهب من هذا البطين الى الرئتين ثم يعود الى البطين الأيسر وهذه تسمى بالدورة الصغرى (أنظر شكل ٨)

فتبتدئ الدورة بمرور الدم من البطين الأيسر الى أكبر شريان (الأورطى) ثم الى فروعه الكبيرة فالصغيرة فالشعرية التى هى أدق أوعية الجسم ووظيفتها تغذية خلايا الجسم وأنسجته ثم يرجع الدم بعد تغذيتها الى القلب بواسطة الأوردة الصغيرة التى تصب فى وريدين كبيرين يسميان بالوريدين الأجوفين (السفلى والعلوى) وهذان يصبان فى الأذين الأيمن حيث يمرّ الدم منه الى البطين الأيمن

ثم منه الى الرئة وذلك بمروره فى الشريان الرئوي وفروعه ثم يصل بعد انصلاحه بواسطة الهواء الى الوريد الرئوى ومنه الى الأذين الأيسر ثم البطين الأيسر أعنى حيث تبتدئ الدورة وهناك فرع آخر للدورة يسمى بالدورة الكبدية وهى أن الدم بعد مروره بفروع الأورطى البطنى لتغذية الأعضاء يجتمع فى أوعية وريدية تصب فى وريد أغلظ ولكن بعض الأوردة الآتية من المعدة والامعاء والطحال والبنكرياس تجتمع وتصب فى وريد واحد يسمى بالوريد الباب الذى يذهب الى الكبد ويتفرع فيها الى أوعية شعرية وهى التى يتكون من اتحادها بأوعية الكبد الأصلية الوريد الكبدى الذى يصب فى الوريد الأجوف السفلى .



(شكل ٨)
القلب والأوعية الدموية
وسير الدورة فيها

الدم — مكوّن من سائل شفاف مصلىّ يسمى (بالبلاسما) سابح فيه كرات صغيرة تسمى بالكرات الدموية وهى نوعان حمراء وبيضاء وعدد الحمراء خمسة ملايين عادة فى المليمتر المكعب من الدم والبيضاء من خمسة الى ثمانية آلاف والحمراء تحتوى على الأكسى هيموجلوبين الذى يحتوى على الأوكسيجين والبيضاء أكبر بكثير من الحمراء ولها أشكال مختلفة

---

(١) الأذين الايسر . (٢) البطين الايسر . (٣) الأذين الايمن .
(٤) البطين الايمن (٥) الابهر أوالاورطى . (٦) فروع من الاورطى .
(٧) الاوعية الشعرية . (٨) أوعية شعرية موصلة للأوردة . (٩) وريد .
(١٠) الرئتين . (١١) الاوعية الشعرية الرئوية . (١٢) الوريد الرئوى .
(١٣) الشريان الرئوى . (١٤) الشريان الكبدى . (١٥) الكبد .
(١٦) الوريد الكبدى. (١٧) القناه الهضمية . (١٨ و١٩) القناة الصدرية .
(٢٠) الاوعية اللمفاوية .

والدم اذا سال خارج الجسم يتجمد ويكوّن جلطا دموية مركبة من الكرات الحمراء والبيضاء فى شبكة من ليفية الدم وهذه الجلط مغمورة فى سائل شفاف يسمى بمصل الدم

الأوعية — هى التى تحمل الدم وهى على ثلاثة أنواع : الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة . فالشرايين أنابيب مرنة تنقبض وتنبسط بمرور الدم فيها وبذلك تحدث النبض . وتنقسم الشرايين الى شرايين شعرية دقيقة تغذى الجسم بما احتوته من الدم الأحمر وهذا الدم يتحوّل بعد الغذاء الى دم أسود اللون يتجمع فيما يسمى بالأوردة الشعرية ويمرّ منها الى أوردة كبيرة . ولهذه الاوردة الاخيرة صمامات تمنع رجوع الدم الى الوراء .

القلب قصر يباهى ايوان كسرى

جاء فى كتاب تنوير الأفهام لأستاذنا المرحوم على مبارك باشا مانصه :

يابنى خذ عنى قبل بسط الكلام على القلب رواية كنت سمعتها فى حداثة سنى وحكاية لم تعب عن ذهنى وهى انه كان بأحسن مكان فى سالف الزمان رجل مرفه الحال منعم البال كثير المال بغناه تضرب الأمثال حتى أجمع المقاون والمكثرون على انه أغنى من قارون لأنه عثر على كنز مشتمل من الجواهر والأموال علىمقدار لايعدّ ولا يكال وقدهجس بخاطره فى بعض الأيام انه يبنى لنفسه قصراً يأوى اليه ويفاخر به ايوان كسرى بحيث لايكونله بينالقصور نظير فى حسن وضعه ورصانة بنائه وهندمته وزخرفته واتقان صنعه وأن يكون فيه من الفرش وباقىالأثاث مايأخذ بألبابالذكور والاناث ولا شك انه قادر على ذلك لأنه حائز من الدراهم على مايدفع به كل محظور وتسهل به جميع الأمور

ولما قويت عزيمته على هذا المشروع استنهض اليه من جميع أقطار الدنيا كل من أتقن فن النقوش والعمارة وأظهر فيها الابداع والمهارة وذلك بما بذله من درهمه

وديناره وصرف همته فى ليله ونهاره فطلب منهم أن يرسموا لهـذا القصر صورة بديعة ولا يلتفتون فيها الى مايصرف على عمارته من النفقة فعمل له مهرة المهندسين عدة رسوم اختار منها أبدعها وأتقنها وأحسنها منظراً وأعجبها وحوّل العملة إلى قطعة معتدلة الهواء وأمرهم ببذل الهمة فى وضع ما استحسنه من الرسم عليها فشرعوا فى العمل بعد ماجلب لهم فوق كفايتهم من المرمر والرخام والأخشاب على اختلاف أنواعها وغير ذلك من المهمات ومكثوا على ذلك مدة يسيرة من الزمن فتم بناء القصر المذكور وجاء فى اتقانه واحكامه على وفق مقصوده ومرامه هنالك نظما وزخرفه بالنقوش الفاخرة والفرش التى هى للعقول باهرة وبهذه المثابة ظهر من حيز العدم الى حيز الوجود بديع الأوصاف متين العقود ماشاد مثله فى جميع البلاد أحد من العباد وهو فى لطفه غاية وفى ظرفه نهاية

لـكن مع أنه كان نموذجا للمبانى الرفيعة ذات الصنائع المتقنة البديعة خرج عن شرط لابد منه وأمر مهم لا غنى عنه غفل عنه المهندس وغاب عن فكر المؤسس وهو ان وضعه كان فى أرض عن المياه بعيدة فكان ذلك موجبا لتكدر خاطر صاحبه وتبدل فرحه بالترح حتى كاد يتميز من الغيظ وانتهى به الحال الى كونه اهتم كل الاهتمام بجلب مايلزم من الماء الى هذا القصر فتشبث بالطرق التى يتأتى له بواسطتها أن يسوق اليه من المياه العذبة ما يجرى حوله بالليل والنهار و بث جملة من المهندسين فى عدة من الجهات ليبحثوا عن تلك المياه بغاية الالتفات وقد احتفلوا بما فوض اليهم وما أحيل من طرفه عليهم فعثروا بعد العناء والـكد على نهير صغير متباعد عن القصر بمقدار بعض فراسخ وفى الحال كروا راجعين اليه وعرضوا عليه نتيجة ماشاهدوه والتمسوا منه أن يصرح لهم بجلب الماء الى قصره من هذا النهر فبعد أن ذهب عنه غضبه وزال ما كان يجده فى نفسه من الغيظ أخذ بيده ورقة وكتب فيها للمهندسين هذه الشروط الثلاثة وهى :

أولا — ان الماء لايؤخذ الا من نفس أرضه

ثانيا — انه لايزال جاريا ليلا ونهارا فى كل مكان من قصره

ثالثا — ان يكون كافياً جيد الخواص . ثم رمى اليهم بهذه الورقة وخرج من غير أن يتكلم معهم بكلمة واحدة فلما وقف عليها المهندسون تعجبوا مما جاء به فيها مما يدل على جهله وسخافة عقله وتشبثه بطلب المحال فتداولوا فى مفارقته بقصره والتخلى عنه وتركه يهيم فى أودية جنونه وينفق أمواله كما يشتهى فيما لايعود عليه بأدنى فائدة وبينما هم معولون على الانصراف إذ قام من بينهم واحد منهم وقال اعلموا يا اخوانى ان العار يلحقنا لما تحصلنا عليه من العلوم والفنون وعجزنا عن القيام بما يفى بمرامه وانى قد قدحت فكرتى فى أثناء مداولتكم فعثرت على طريقة لائقة بهذا المقام وها أنا أشرحها لكم فأقول :

انى عند ما كنت مشتغلا بالبحث مثلكم عما يجبر خلل ماوقع منافى وضع القصر بقطعة أرض خالية من الماء أخذت معى رجلا له خبرة باستكشاف المعادن والعيون ليرشدنى إلى ماياتى به حل هذه المسئلة الصعبة فدلنى على قناة تحت سطح الأرض بين طبقتين من الطين يجتمع فيها ماء المطر وينصب فى مستنقع مجاور للقصر إلاأن هذا الماء لما كان راكدا كريه الرائحة غير نقى كان غير موافق للصحة وحيث ان القناة المذكورة قريبة من هذا المستنقع فلا شك انها تكون وافية بالمراد وان نحن توصلنا إلى ازالة مافيها من العيوب انحلت المشكلات وسهلت الصعوبات وبلغنا المرام ووصلنا الى المقصود وهذا الأمر لا يتيسر الا بجعل الماء جاريا وتعريضه للهواء ليصلحه ولقد وفقنى الله الى حل ذلك ووصلت الى كشف الغطاء عنه فنستعمل طلمبة تصل منها مجار متعددة الى جميع نقط القناة وتمتص منها الماء وبعد أن تجمعه فى مجرى واحد غليظ منته برشاشة تكبسه بقوة فيخرج من خروق هذه الرشاشه فى هيئة مطر رفيع النقط يجتمع كله فى حوض معرض للهواء به طلمبة أخرى تبدأ بامتصاصه ثم تكبسه ثانياً فى مجرى غليظ تتفرع منه مجار صغيرة متعددة بقدر عدد أمكنة القصر المذكور وبهذه الطريقة يمكن الوصول بلا شك الى مرغوب السيد المالك وحيث أنه لم يبق علينا غير صعوبة واحدة

وهى عدم كفاية ماء القناة لأداء جميع اللوازم فان هذه الصعوبة يمكن ازالتها أيضا بأسهل طريقة وهى أن نضع تحت كل بز بوز حوضاً صغيرا يخرج منه مجرى وظيفته توصيل الماء الساقط الى الطلمبة الماصة المعدة لامتصاص ماء القناة الأصلية فتمتصه فى أثناء تشغيل الطلمبة ويرجع إلى حوض الهواء فتأخذه الطلمبة الثانية وتبعث به مع غيره الى الأرض ثانيا وعلى هذا المنوال يستمر العمل فيكون كل ما أتى من القناة فى كل دفعة فيه كفاية لأداء لوازم سكان القصر وحيث انه يمكن فى بعض الأحيان أن سكانه يحتاجون الى غسل أيديهم وخلافها من البزابيز فيحدث من ذلك بعض أوساخ مضرة بنقاوة الماء فينبغى لازالة هذه المضرة أن توضع مصاف فى مجارى البزابيز ليتخلص الماء من هذه الأوساخ ويصير حوض الهواء نقيا

وبسبب استمرار الماء على الحركة فى المجارى تضيع خواصه الاولية ويكون من الجودة فى أعلى درجة بحيث لا يختلف عن المياه الصافية المعتادة بأدنى شىء فلما سمع رفقاؤه منه ما أتى به مما يتوصل به الى بلوغ المرام فرحوا فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وشكروه وأثنوا على أفكاره الجليلة ثم توجهوا بأجمعهم الى صاحب القصر وأخبروه بما عثروا عليه وتوصلوا اليه وعرضوا عليه مشروعهم وبينوا له فى الرسم المحل الذى توضع فيه الآلة اللازمة لتحرك المجارى العديدة المذكورة آنفاً فلما مثلوا بين يديه وأنهوا ما بدا لهم اليه عبس فى وجوههم وبسر وقال لهم انه لايمكننى الاستغناء الا عن هذا المحل وأشار بيده الى خزانة ضيقة مظلمة لا تزيد سعتها عن بعض اقدام مربعة فى ركن غير طاهر من القصر واشترط عليهم انه لايجوز بسبب القرب من محلات السكنى ان يوقد به فحم ولا خلافه لما ينشأ عن ذلك من الوساخة وان لايوضع بجوار هذه المحلات أفران أو قزانات أو نحو ذلك مما يترتب على وجوده ضجره وعدم راحته وتكدره من الدخان الذى يحدث منه تشويه قصره وكراهة الاقامة به وفزعه من الحريق وانفجار القزانات وغير ذلك مما لاينبغى وجوده بمحلات السكنى المذكورة التى لايخفى على

أحد مقدار ماصرف على عمارتها من الأموال ثم ختم كلامه بقوله مخاطباً لهم انه لايسوغ لكم أن تأخذوا إلا الخزانة الضيقة التى سبق التنويه بذكرها بشرط أن لايقع منكم مايحصل لى منه أدنى جزع ومما أحيطكم به علماً هو انى أكره الارتجاج الذى ينشأ من العجلات عند سيرها والصوت الذى يخرج منها فى حالة احتكاك أضراسها ثم تركهم وانصرف فخاضوا فى الكلام وأكثروا من اللغط فى هذا الخصوص وتحيروا فيما يفعلون ليتحصلوا على الغرض المطلوب . وانتهى بهم الحال إلى كونهم رجحوا الفرار عنه لما قام بخواطرهم من اصراره على تعجيزهم وهضم جانبهم باطفاء أنوار شهرتهم والاهتمام باخماد ذكرهم وانكار معارفهم

وبينما هم عازمون على الفرار اذ ظهرت لهم جنية تميل بطبعها الى العلماء وترشدهم الى الاستكشافات العلمية ورفعت عصاها وضربت بها الأرض فخرجت من تحت رجليها بنت صغيرة فقيرة عليها ملابس رثة وأطمار بالية . فقالت للعلماء قد علمت ما أنتم بصدده وما لقيتم من التعب والعناء فأخذتنى عليكم الشفقة ورأيت انه لايسوغ لى ترككم تركضون بافراس أفكاركم فى ميادين القيل والقال ولشغفى بحبكم بين الأمم بادرت مسرعة اليكم وأحضرت معى هذه البنت وأعطيتها نموذجاً تصلون باتباعه فى العمل إلى أقصى المرام . ثم خلت سبيلهم وانصرفت وعن أعينهم فى الحال اختفت . هنالك أحاطوا بالبنت وطلبوا منها النموذج فأخرجت لهم من تحت ابطها ملفاً صغيراً قدر مجمع الكف به خيوط عددها غير متناه وقالت لهم هذه الآلة الموافقة لأغراض السيد صاحب القصر فلما تأملوا فيها وجدوها عبارة عن كيس طويل ضيق من جهة ومقفول من جميع جهاته ومنقسم من داخله الى شقين بحاجز ممتد من أعلى إلى أسفل وكل شق تخرج منه قناة غليظة متفرعة الى غير نهاية وفوقه شىء مجوف كالحق تخرج منه قناة كالأولى وكلها كانت تنقبض وتنبسط بالتعاقب على الدوام فلما امتحنها المهندسون ظهر لهم انها مستوفية لجميع الشروط فاما الشق الأيمن وهو الأول فهو مع حقه قائم مقام الطلمبة الأولى التى من خصائصها امتصاص ماء المجرى والماء الوارد من البزابيز وكانت جميع المجارى الموصلة لماء القناة والموصلة لماء البزابيز مجتمعة كلها فى الحق المذكور.

الذى اذا تمدد حصل به فراغ ينصب فيه الماء فيملؤه واذا انقبض أغلق الباب الذى يدخل منه اليه الماء بصمام و بتأثير الماء على داخله ينفتح باب آخر شبيه بالأول وينساب فى الشق الأكبر الذى هو فيه ويكون تأثيره فيه كتأثيره فى الحق بمعنى ان هـذا الشق يتمدد فيدخل فيه الماء ثم ينقبض فيغلق الباب الذى دخل فيه وراءه و بذلك يدخل طوعاً أو كرهاً فى الحوض المعدللهواء . وأما الشق الأيسر وهو الثانى فانه يبتدىء هنالك مع حقه فى عمله بمعنى ان هذا الحق يتمدد فيمتص ماء الحوض و يدخله فيه ، ثم يدفعه إلى الشق الأكبر فيكبسه كبساً عنيفاً فى مجرى التوزيع العمومى ، ثم يمتصه الشق الأيمن و يبعث به إلى الحوض كما سبقت الاشارة إلى ذلك ومنه يستمد الشق الأيسر ويرسل به إلى جهات القصر وهلم جرا وحينئذ لايكون أبسط من النموذج الذى قواعده الأصلية هى صمامات تفتح من جهة واحدة فقط ومادة مرنة تنقبض وتتسع أو تتمدد على حسب الارادة فتعجب المهندسون من ذلك وعزموا على شرائه من البنت ليعملوا مثله وقالوا لها ان صاحب القصر لايتأخر عن دفع أى مبلغ تطلبينه منه فاطلبى ماتر يدين فقالت البنت لايتسنّى لى أن أبيع الكيس المذكور فى صدر هذه الحكاية حيث انه لاغنى لى عنه فانه قلبى ثم اختفت فى الحال عن أعينهم وتركتهم يموجون فى بعضهم فأجهدوا أنفسهم فى البحث عنها فلم يقفوا لها على خبر ولم يقعوا لها على أثر

وهذه الحكاية الطويلة لاتخلو عن الفوائد التى لابد انك وقفت منها على ماأملت لأنى شرحت لك فيها دورة الدم و بسطت لك الكلام على القلب وأوضحت لك جميع كيفياته وتبين انه هو الكيس المذكور آنفاً والمراد فى تلك الحكاية بالشقين البطين الأيمن والبطين الأيسر والغرض من الحق فى كل منهما الأذين وهو الأيمن فى الشق الأيمن والأيسر فى الشق الأيسر والأبواب هى الصمامات وحوض الهواء هى الرئة التى يتحد فيها الدم مع الهواء والقناة الموجودة تحت الأرض التى يحبس فيها الماء ويبقى راكدا غير نقى هى المعى الدقيق الذى يجتمع فيه الكيلوس ويتوجه إلى القلب بواسطة المجارى الصغيرة المعروفة بالأوعية الكيلوسية ومجارى توزيع الماء فى القصر

هى الشرايين أو عروق الدم الأحمر والمجارى التى يرجع منها المائع بعد استعماله هى الاوردة وهى عروق الدم الأسود والمصافى التى ذكر انها معدة لتصفية الماء من أوساخه هى هذه الأماكن الصغيرة التى سبق ان الدم يخزن فيها عند مروره من بين المواد غير النافعة ويجتهد فى التخلص منها

فهل هذه الآلة التى صنعها البارى وأودعها فى جوف الانسان أتم وأحكم أم الآلة البخارية التى أراد المهندسون تركيبها أفد الجواب واحكم فى ذلك بما تراه من الصواب اه

جمال الوضع وبهجة الصنع وجمال الحكمة

لعلّ ماوضح فى هذه الأشكال يدعو العقلاء حثيثا الى الدهشة والتعجب من الابداع والاتقان وانى عند كتابة هذا الموضوع تذكرت انى سطرت فى سورة آل عمران فى المجلد الثانى من الجواهر فى تفسير القرآن عند قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) كلاما عاما فى بدائع هذه الأعضاء الباطنة فأحببت ذكره هنا ليبتهج الأذكياء وتنشرح صدور الأولياء والحكماء فهاهو ذا

﴿ تفصيل أفعال القوى الانسانية فى الجسم وأنها أشبه بما فى المدن من الصناعات ﴾

فتأمل أيها الفطن فى المدن والقرى تجد أولا الخبازين والطباخين وثانياً العصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبد والسمن من لبن الحيوان وثالثا الخلالين والدباسين والذين يعملون السكنجبين ورابعاً الذين يعملون الماورد ويصعدون الخل ويقطرون الرطوبات اللطيفة وخامساً الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون وسادسا الكناسين والزبالين والسمادين وسابعاً الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليجروا المياه فى خلال المنازل وثامنا العجانين وصانعى الحلاوة وتاسعاً الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج وعاشراً النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة حادى عشر صانعى المفاتيح الم[illegible]ادة ثانى عشر صانعو السفن ثالث عشر الذين يعملون القاق والأبار[illegible] رابع عشر

النحاتين خامس عشر الغزالين والحبالين والفتالين سادس عشر الحاكة والنساجين سابع عشر الرفائين والحرازين والخياطين ثامن عشر الزراعين والغارسين (١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب (٢٢) أفعال الصباغين والمزوقين والدهانين (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب

هذه الثلاث والعشرون من الصناعات لها نظائر فى جسم الانسان والناس نائمون لا يعلمون أن كل تلك الصناعات فى الطعام الذى أدخلوه فى معداتهم وهى تدفع الطعام الى الأمعاء ثم يكون ما لافائدة فيه مدفوعا الى الامعاء الغلاظ ثم يكون مستعداً للخروج

فلنذكر كل صناعة فى المدينة ونظيرها فى الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل تناولا فها كه

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الانسان
(١) صناعة الخبازين والطباخين	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وانضاجه بالحرارة الغريزية
(٢) صناعة العصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد	(٢) تصفية المعدة للكيموس وأخذ لطيفه ودفعه الى الكبد ودفع عكره الى الأمعاء
(٣) صنع الخلالين والدباسين وعمل السكنجبين	(٣) طبخ الكيموس فى الكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دماً ودفع عكره الى الطحال واللطيف الى المرارة والرقيق الى المثانة والمعتدل الى القلب
(٤) صنع الماورد وتصعيد الخل وتقطير الرطوبات اللطيفة	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة فى الرئتين وجريه فى القلب والعروق

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الانسان
(٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون	(٥) تلطيف الدم فى الدماغ حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية فى الأذنين والمنخرين والعينين واللسان وما به انفعالات الحواس
(٦) صنع الكناسين والزبالين والسمادين	(٦) دفع ثقل الكيموس من المعدة الى الأمعاء والمصارين واخراجها من الجسد
(٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقنى والأنهار	(٧) اجراء الدم فى الأوردة الى سائر الأطراف
(٨) صنع الذين يعملون الحلواء والعجانين	(٨) تجفيف المادة الدمويه حتى تصير لحما وشحما
(٩) صنع الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج	(٩) تصليب المادة حتى تصير عظاما
(١٠) صنع النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة	(١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين
(١١) صنع أسنان المفاتيح وهندسة الصناديق	(١١) تركيب مفاصيل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع
(١٢) صنع السفن	(١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع
(١٣) صنع القماقم والأباريق	(١٣) تركيب عظام القحف وهندامها
(١٤) صنع الطحانين الذين يصنعون الأرحية والطواحين	(١٤) خلقة الاسنان وتركيبها وترصيعها

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الانسان
(١٥) صنع الغزالين والحبالين والفتالين	(١٥) خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ونصبها على الأعضاء
(١٦) صنع النساجين والحاكه.	(١٦) خلق الجلود والغشاوات
(١٧) صنع الرفائين والخرازين والخياطين	(١٧) إلحام الجراحات والقروح
(١٨) صنع الزراعين والغراسين	(١٨) ظهور الشعر على الجلد
(١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب	(١٩) خلقة الكروش
(٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان	(٢٠) خلقة الأمعاء
(٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب	(٢١) خلقة الأغشية الرقيقة فى العين
(٢٢) أعمال الصباغين والمزوقين والدهانين	(٢٢) تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير
(٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب	(٢٣) تصوير الجنين وخلقة الفراخ فى البيض

هذه شذرة من الصناعات التى فى أجسامنا تصرفت فى الطعام والشراب الذى أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن فكانت الصناعات التى ذكرناها ٢٣ صناعة نراها فى المدن ولها نظائر فى أجسامنا من الذين يصنعون مالطف ورق ومن الذين ينقون المدن من الأدران ومن الحفارين والعجانين وضرابى اللبن وما أشبه ذلك.

الفصل السادس

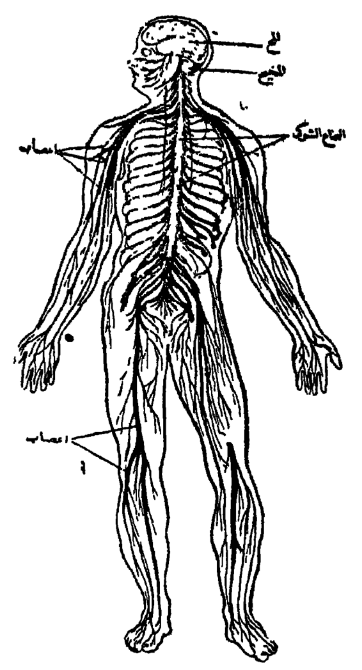
من المبحث الثانى

الجهاز العصبى

اعلم ان الطعام النباتى والحيوانى الذى صار دما بواسطة الدائرة الهضمية ووزعته الدائرة الدموية بالعدل على أجزاء الجسم كانت نتيجته المقصودة منه الدائرة الفكرية وهل يتم ذلك الا بالجهاز العصبى فلأنقل باختصار ماجاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة فصلت تحت عنوان نظرة عامة فى أعصاب الحسّ وأعصاب الحركة لذلك الحكيم

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى ويتتبع سير الدم فيقول ان الدم الآن قد تحوّل الى هذه العظام وهذه العضلات وهذه العروق وهذه الأعصاب وهذا الشعر فلأنظر

ان الناس يشتاقون الى صعود الجوّ بالطيارات والى قراءة علم الشموس والأقمار بل يودّون الصعود الى تلك العوالم ، ولكن لماذا حبسنى الله الذى وضعنى فى هذا الجسم وألقانى فيه الى أمد معلوم ؟ فيظهر لى انى حبست فيه لأدرسه ، واذا عجزت عن دراسة جسمى فأنا عن دراسة العوالم العلوية التى أشتاق اليها أعجز وعن فهم ما فوق ذلك أشدّ عجزا ، إذن انظر فى هذا الهيكل الذى كان أصله هذا الدم الذى كان غـذاء والغذاء كان نباتاً وحيواناً ومعادن . ولقد درست هذه العوالم من قبل لأنها مقدمات لحياتى فلم يبق إلا أن أدرس نفس جسمى لأنه نتيجة ذلك كله ، ولقد وجدت الأمم تبدأ بما حولها أوّلا ثم تنظر فى أجسامها ثانياً لأن ما حولنا أسهل فهما من أجسامنا فضلا عن انه مقدّمة لها والله يقول — وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون — فقدّم ما فى الأرض لأنه أسهل وأيضاً أنا محتاج اليه فى حياتى وحياة [illegible] (انظر شكل ٩)



(شكل ٩) الهيكل العصبي للانسان ، مصغر اثنتى عشرة مرة .

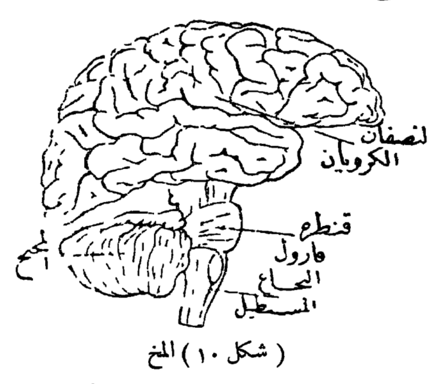
وهذه الصورة لا تكرار فيها مع صور الانسان المتقدمة فى (سورة المؤمنون) وغيرها لأن هذه للأعصاب وتلك للأعضاء والعضلات ونحوها ، وههنا ينظر الحكيم فيعجب من عالم جديد . ما هو هذا العالم ؟ هو عالم لا هو نبات ولا حيوان ولا معدن ولا هو كيموس أو كيلوس ذو قوام لبنى ولا هو دم ولا هو لحم وعظم بل هو عالم يقرب من العالم الروحى وعالم الأثير وعالم الملائكة لأن هذه الأعصاب خارجات من المخ والنخاع الشوكى .

أما المخ ففيه أولا نصفان كرويان أكبرهما تسعة أعشاره تقريباً وهما قسمان : أيمن وأيسر . وهذان النصفان هما مركز الحس والشعور والذكاء والفكر والذاكرة والارادة

ثانياً فيه المخيخ وهو الجزء الصغير الحجم الظاهر فى الرسم وهو منظم للحركات العضلية وربطها وحفظ توازن الجسم لأنه متى اختل هو اختل نظام توازن حركات الجسم فليس له الا التنظيم . ولكن مصدر الحركات هما النصفان المتقدمان

وثالثاً النخاع المستطيل وهو ٢ سنتيمترا ونصف ويوصل قنطرة فارول بالحبل الشوكى . وهذا النخاع المستطيل يحكم وينظم حركات التنفس والقلب والبلع وينظم افراز العرق وحجم الأوعية الدموية وهكذا وفيه تمر جميع التيارات العصبية الصادرة من المخ الى الحبل الشوكى الآتى ذكره والتيارات الواردة من الحبل الشوكى الى المخ . واذا أصيب النخاع المستطيل بضرر ما ظهرت أعراض خطرة

ورابعاً (قنطرة فارول) التى هى ألياف متصلة من أعلى بالمخ والمخيخ ومن أسفل بالنخاع المستطيل وهى موصلة التيارات العصبية المتبادلة بين الحبل الشوكى والمخ والمخيخ هذه الأربعة هى المخ (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠) المخ

أما الحبل الشوكى فهو يمتد من النخاع المستطيل الى أسفل . يمتد داخل القناة

الشوكية فى العمود الفقرى و يبلغ طوله (٤٥) سنتيمترا تقريبا وقطره ثمانية ملليمترات وهو ينقل الاشارات بين المخ وأطراف الجسم وبالعكس وهو مركز منظم للحركات القلبية الآتية :

ههنا يعرف ذلك الحكيم أن المخ والنخاع الشوكى هما الجهاز العصبى المركزى . ثم ينظر فى المخ نظرة أخرى فماذا يرى ؟ يرى هناك اثنى عشر زوجا من الأعصاب تخرج منه موزعات فى المنطقة الرأسية وما حولها لأن المخ أشبه بقصر الملك والملك معه الآلة التلفونية والتلغرافية فيصدر أوامره بتلك الأزواج العصبية الى أعضاء الحس كالعين والأذن والفم واللسان . فيقول للعين يا عين أبصرى والموصل عصبها وللأذن اسمعى والموصل عصبها وعنده هو جهاز الآلة التلفونية أوالتلغرافية (البرقية) و بعض الأعصاب أيضا محرّك فهو يأمر العـين مثلا بالنظر فتخبره فيصدر أمرا أسرع من البرق الى أعضاء الحركة بواسطة أعصاب الحركة وهكذا

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى فى الحبل الشوكى فيجدأمرا عجيبا مدهشا . يجد هناك ثقوبا موضوعة بين الفقرات يمرّ بها أعصاب متقابلة من الجانب الأيمن والأيسر وتمرّ من تلك النقوب ، وعدد تلك الأعصاب ٣١ زوجاً موزّعات فى جانبى الجسم بالتساوى وكل عصب من تلك الأعصاب الشوكية عند خروجه من الحبل الشوكى له (جذران * أحدهما) أمامى مركب من ألياف محركة ، والآخر خلفى مركب من ألياف حساسة و به انتفاخ صغير هو عقدة عصبية و يتحد الجذران بعد مسافة قليلة و يكونان عصبا واحداً ينفرع الى فروع منتشرة فى الجلد والعضلات الارادية

ثم ينظر ذلك الحكيم فيرى أن الاثنى عشر زوجاً الخارجة من المخ والاحـدى والثلاثين زوجاً الخارجة من الحبل الشوكى لا سلطان لها إلا على الأعضاء الارادية كاليدين والرجلين

أما الغدد اللعابية مثلا فى الفم وهكذا القلب والأوعية الدموية وأجزاء القناة الهضمية المشروحة سابقا والمثانة وأعضاء التناسل والغدد العرقية وهكذا ، فهذه كلها

لا سلطان للجهاز العصبي المركزى عليها الذى يتفرّع منه الأعصاب المتقدمة البالغة (٤٣) زوجا يسمونها الجهاز العصبى الطرفى ، فما الذى يؤثر إذن فى الأعضاء التى ليست تحت ارادتنا ، و بعد البحث يجد هناك جهازا آخر غير الجهاز العصبى المركزى وما هو ذا ؟ هو عقد على جانبي السلسلة الفقرية ممتدة من أول العنق الى الحوض يسمونها الأذراب ، ومن هذه العقد تخرج أعصاب تتوزع فى الغدد اللعابية والرئتين وهكذا الى آخر ما تقدم أى فى الأعضاء التى لا سلطان لنا عليها ، وهنا يدهش الحكيم ويقول : « يا سبحان الله . نظام محكم وآداب جمة ، إن الذى لنا سلطان عليه كانت له عناية خاصة فكان نفس المخ ونفس الحبل الشوكى فأمين بتدبيره وتدبير الحبل الشوكى متجه الى الأطراف وتدبير المخ متجه الى الحواس التى بالقرب منه . فالأعلى يدبر الأعلى والأسفل يدبر الأسفل

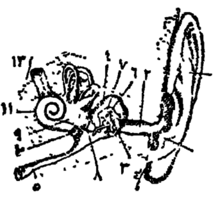
(جوهرة) فى مقال عام فى أشكال التركيب من كلام اللورد افبرى

قال نريد بالإشكال التعقيد وصد البساطة ، والإشكال فى تركيب أجسام الحيوانات أعجب من صخامتها وأغرب ، فربّ دويبّة كدودة الحرير مثلا يكون لها أكثر من ٢٠٠٠٠ عضلة . وفى جسم الانسان نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ من الغدد لإفراز العرق . وهذه الغدد متصلة بظاهر الجلد بأنابيب شعرية يبلغ طولها جميعاً نحو عشرة أميال . أما طول العروق والشرايين الإجمالى فأكثر من ذلك أيضا . وفى الدم ملايين الملايين من الكريات البيضاء والحمراء ؛ وكل منها تركيب حيوىّ مستقل بذاته ، وفى العين ما يسمونه بالعصى (وهى قوابل النور) ما قدر عدده بنحو ٣٠٠٠٠٠٠٠ . وقدّر عدد خلايا المخيخ بلا أقل من ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ خلية . وأن القلم واللسان ليعجزان عن وصف تلك التراكيب العجيبة التى إن ترَ فبالمجهر وغير واضحة جليّة

(تذكرة) ان الجهاز العصبي الذى اتّضح رسمه الآن له عملان عمل ظاهر وعمل باطن وأما عمل الظاهر فأهمه الحواس الخمس المعروفة وأما عمله الباطن فهى القوى

الباطنة فى الدماغ والثانية بعلم النفس أليق والأولى بهذا المقام ألصق ولما كان أهم الحواس الخمس السمع والبصر أحببت أن أنقل هنا ماجاء فى كتاب الصحة المذكور سابقاً :

حاسة السمع — عضو السمع هو الاذن وينقسم الى أذن ظاهرة وأذن متوسطة وأذن باطنة (الأذن الباطنة هى التى تحتوى على أعضاء أى أعصاب السمع) فالأذن الظاهرة تتركب من الصيوان والقناة السمعية الظاهرة ويوجد بها شعر وغدد تفرز مادة شمعية تسمى بالصملاخ وهى تتراكم اذا لم تنظف وتضعف السمع ، والأذن المتوسطة تتكون من الطبلة وغشائها وثلاث عظام صغيرة والأذن الباطنة مكونة من تجويف فى عظم الصدغ مبطن بغشاء ينتهى فيه أطراف العصب السمعى واذا حدث صوت بجوار الأذن يخترق الأذن الظاهرة ثم الأذن المتوسطة ثم الباطنة فيتنبه العصب السمعى فينقل الصوت الى مركزه فى المخ فيوجه المخ الاحساس الى الأذن فيجعلنا نشعر كأن الأذن هى التى أحست بالسمع (أنظر شكل ١١)



(شكل ١١) الأذن

تحدث نغمات الصوت الأساسية باهتزاز الحبال الصوتية للحنجرة بواسطة هواء الزفير ويتنوع الصوت باللسان والأسنان والشفتين ، والكلام يحصل بتغيير نغمات الصوت فى التجاويف التى فوق الحبال الصوتية فمثلا تغيير حجم وشكل البلعوم والفم والأنف يحدث نغمات مختلفه تكون حروف النطق .

حاسة الابصار — مركزها العين وتوجد هذه فى تجويف الحجاج ومعها الأوعية والأعصاب التى تغذيها وفى مقدمتها الجفون والجهاز الدمعى

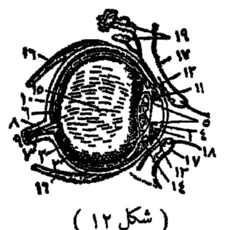
---

(١) الأذن الظاهرة (صيوان الأذن) (٢) قناة السمع الظاهرة (٣) طبلة الأذن (٤) صندوق الطبلة (٥) قناة استاك بوس (٦) المطرقة (٧) السندان (٨) الركاب (٩) التيه (١٠) مدخل القوقعة (١١) القوقعة (١٢) القنوات النصف الهلالية (١٣) العصب السمعى .

والجفون فى حافتها الأهداب وهى تقى العين ليلا ونهارا من الأجسام الغريبة التى تصادفها (أنظر شكل ١٢)

والجهاز الدمعى فى الجهة الوحشية للحجاج ويفرز الدمع منعاً لجفاف الملتحمة (أنظر شكل ١٢)

والعين مكونة على التوالى من الطبقات الآتية : وهى الصلبة والقرنية والمشيمية والشبكية . والعين مملوءة بالرطوبة المائية والجسم الزجاجى والبلورية وتجويفها ينقسم بالقزحية الى قسمين وهى ستار قابل للانقباض والانبساط ومثقوبة فى وسطها بالحدقة التى وظيفتها تنظيم كمية الضوء الداخل فى العين ، وتوجد القزحية عند ملتقى الصلبة بالقرنية ووظيفتها اعداد العين للرؤية وهي تؤثر فى تحديب البلورية بانقباضها وانبساطها فترى الأشياء على أبعاد مختلفة ، وفى الشبكية ينتهى العصب البصرى (أنظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)
قطاع من مقلة العين

والعين تماثل صندوق التصوير الشمسى فأشعة الشيء المرئى تمر بالقرنية والبلورية والرطوبة المائية والجسم الزجاجى فتنطبع صورته معكوسة على الشبكية التى تشبه زجاجة التصوير فينقل العصب البصرى هذه الصورة المعكوسة الشكل الى المخ فيردها هذا الى العين غير معكوسة فنشعر برؤية الشيء ونحكم على شكله ولونه وحجمه اه

---

(١) القرنية (٢) الصلبة (٣) المشيمة (٤) القزحية (٥) الحدقة (٦) الشبكية (٧) العصب البصرى (٨) الشريان المركزى للشبكية (٩) قطاع العصب البصرى (١٠) البقعة الصفراء (١١) الخزانة المقدمة (١٢) الخزانة الخلفية (١٣) البلورية (١٤) العضلة الهدبية (١٥) الجسم الزجاجى (١٦) العضلات المحركة للعين (١٧) الجفنان (١٨) الأهداب (١٩) الغدد الدمعية .

شرح رؤية العين

ويجدر الآن أن نذكر نبذة لطيفة فى أبصار العين وما فيه من التدبير العجيب فان للنور نواميس لايتعداها فوضعت العين على حسب تلك النواميس ولولا هذا لما أبصر حيوان فمنها أن الصور تنتقل فى الضوء على خطوط مستقيمة دائما فاذا مرت بجسم ألطف مما هى فيه زاد افتراقها وان مرت بجسم أكثف مما هى مارة فيه انضمت أجزاؤها واقتربت فاذا نفذ الضوء من الهواء إلى الماء تضامت خطوطه أو من الماء إلى الهواء تفرقت وهكذا يضم خطوط النور الأجسام المحدبة بوجهيها أو المقعرة من وجه وهى محدبة من الآخر أو محدبة وجه واحد ومستوية الآخر ثم ان السواد يتشرب النور فلا ينعكس عنه بخلاف بقية الألوان والصورة لاترسم على شىء إلا إذا كان فى بعد مخصوص من المرئى أو من الجسم الشفاف الذى مر فيه النور فهذه أربع نواميس فى جمع النور وافتراقه وتشربه وارتسامه على بعد مخصوص وهناك ناموسان آخران وهما أن النور ينحل لألوانه السبعة المعروفة فى قوس قزح إذا مر بجسم محدب وان الصورة توضع مقلوبة إذا مرت بجسم يجمع النور فهذه ست نواميس للنور وضعت العين على مقتضاها . فاذا جاءت الأشعة من الجسم المرئى ومرت بالهواء ووصلت الى الشبكية وهى أعصاب منغرسة فى مؤخر العين لم ترسم الصورة فيها قط لأنها تكون مفرقة فاقتضت الحكمة الالهية أن تكون القرنية التى نراها محدبة من الخارج مقعرة من الداخل محيطة بالعين من الامام لتلاقى النور فتجمعه بعض التجمع ويمر فى أوساط أخرى تزيد فى تجمعه وهى الرطوبة المائية فتجمع النور زيادة جمع لكثافتها فتأمل كيف وضع القرنية والرطوبة المائية مناسبين لجمع النور إحداهما بالتحدب والتقعر والأخرى بأنها أكثف من الهواء الجوى

فياليت شعرى ان الأشكال كثيرة جداً يعرفها من درس الهندسة ، بل العامة أيضا فلم أختار هذا المبدع شكل القرنية محدباً ولم وضع الرطوبة المائية ثقيلة ثم تعجب أيضا فيما وراء ذلك ولنمثل العين وطبقاتها بقبة من الزجاج خلفها ماء وتحته سد فيه فتحة

ووراءها زجاجة محدبة الوجهين ومن خلفها مادة كبياض البيض وتحتها أعصاب تسمى شبكية العين فالقبة هى القرنية والماء هى الرطوبة المائية والسد الذى فيه فتحة هو غشاء القزحية والفتحة تسمى البؤبؤ ملونة أطرافها بألوان كالسواد والخضرة والزرقة لينشرب النور وهو مار الى البلورية وهى كزجاجة محدبة من وجهين تجمع النور زيادة تجمع ثم جعل ذلك البؤبؤ وتلك البلورية تحت ارادة الناظر فيوسع و يضيق كما أراد على حسب كثرة النور وقلته فلاختلاف الأضواء يختلف التضييق والتوسيع فيوسعه إذا كان النور قليلا لتدخل كميات كافية و يضيقه إذا كان كثيراً لئلا تتشوه الصورة .

و ياليت شعرى كيف روعى ماخلق فى الخارج من أنواع النيران التى لا تتناهى فى خلقة هذه العين العجيبة حتى يتسنى لها الرؤية بكل بعد (إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العليم) و إن قلنا ان العين واتقانها أعجب ما نشاهد من الغرائب لـكنا مصيبين إذ العبرة بالاتقان لا بكبر الأجسام المخلوقة واختلاف النور كثير جداً إذ فرق بين ضوء الشمس وضوء مصباح ضعيف فبينهما مراتب لا تتناهى ومع ذلك أمكن الناظر أن يوسع للقليل و يضيق للـكثير بمراتب كثيرة على حسب اختلاف الأضواء ربما كان آلافا مؤلفة فتأمل كيف جمع فى هذه العين الصغيرة هذه العجائب التى لا تتناهى فاذا مرت بالبلورية نفذ النور فى الرطوبة الزجاجية ، ثم وصل إلى الشبكية مع حيرة العقلاء فى تعليل رؤية الأجسام معتدلة لا معكوسة كما هو مقتضى النواميس وان الجسم إذا مر فى شفاف ينحل إلى ألوانه السبعة وقد اختار بعضهم ان الرطوبة الزجاجية التى هى أمام الشبكية فرقت الصورة بعد تجمعها بالبلورية وما قبلها لـكون الرطوبة الزجاجية ألطف مما قبلها ثم اجتمع مرة أخرى على الشبكية معتدلا وهكذا لما انحل إلى الألوان السبعة بدخوله فى القرنية حلته بقية الأوساط بعكس ماحلته الأولى فرجع لونا أبيض وقد وضعت الشبكية وهذه الطبقات بحساب لا يختل شعرة واحدة لترسم الصورة فى بعد مناسب حسب النواميس إذ من المشاهد فى العلوم الطبيعية فى الضوء أنه إذا مر بجسم شفاف لا يجتمع إلا على بعد مخصوص كما يشاهد فى العدسات أمام

الشمس فياليت شعرى كيف وضعت الشبكية على بعد مخصوص من الطبقات فوقها فلم تتقدم ولم تتأخر . ثم ان الشبكية مقعرة تجمع الصورة ولكن لابد بعد رسم الصورة عليها من نفوذ النور الى ماخلفها فيقع على الصلبة التى هى خلفها مما يلى المخ ومن الحكمة الالهية انها ملونة بالسواد لئلا يرجع النور بالانعكاس فيشوش الصورة حكمة وعدلا ودقة فهذا هو وضع العين قد أوضحته بقدر الامكان لنفهم معنى قوله تعالى : (وَفى أنْفُسِكم أفلا تبصرون) وقوله (وَجَعَلَ لكم السَّمْعَ وَالأبْصَار والأفئدَةَ لعلَّكم تشكُرُون) كل هذه حكم تسجل علينا الخزى والعار إذا خرجنا من الدنيا ونحن بها جاهلون بل ان هذا الجهل هو الذى سجل علينا الذلة فى الدنيا .

ولما كان فى العين هذه الحكم وغيرها وهى كثيرة جداً كثر ذكرها فى القرآن ليلفت الأنظار اليها فالجاهل انما عرف مايقولة الشعراء فى الغزل والعالم ينظر هذه الأعاجيب . وتأمل فى أن الشىء كلما كان أكثر اتقانا كان أكثر منفعة وكلما قل اتقانا قل منفعة . فهذه العين لما أبصرت ما بعد إلى ملايين من الفراسخ ورأت صور جميع الأشياء وأظهرت لنا كواكب السماء وقربت أن تكون عقلا كما قرب النحل أن يكون حيوانا والانسان أن يكون ملكا صنعت مطابقة لنواميس النور العجيبة لتقوم بهذه الأعمال مع غرابتها وفعلت فعلا مدهشاً فهذه هى الحكمة وهذا هو العلم . فياليت شعرى كيف يحيا الانسان فى الدنيا وهو لم يشاهد هذا الاتقان وكيف يموت ويخرج من هذا الكون وهو لم ينظر مافى هذه الصنائع اللطيفة من الدقائق وما أشبه نظام العين بنظام السموات والأرض بل العين مع صغرها أخذت صور السموات مع اتساعها والأرض وأكنافها والشمس واشراقها واستحضرت هذا كله وأوصلته الى الشبكية . ولئن قلت ان هذه الحدقة فى خلقها أعجب من هذه الأجسام الواسعة وأغرب منها لم أكن مبالغاً إذ كيف تسعها كلها وتوصلها الى الدماغ وكيف يسع اللطيف الكثيف والصغير الكبير . ولئن أدهشتنا العين وصنعها فالحس المشترك

الذى وراء ذلك أعجب وأغرب وهكذا المخيلة والواهمة والذاكرة والحافظة . وقد ذكرناها مفصلة فى كتابنا ميزان الجواهر .

فلما اطلع على ماتقدم صديقى العالم قال لقد أحسنت وأجدت ولكنى لا أزال مشوقا إلى تفصيل أتم فى السمع والبصر معا بحيث يكون كلاماً جامعاً فقلت ذلك مذكور فى تفسير سورة آل عمران فى أولهافقال يجب ذكر بعضه هنا تذكيرا لأولى الألباب

فقلت بعد أن اطلعت هناك على إيضاح حاسة السمع ما نصه :

هذه هى حال السمع قد أوضحتها لك بما فى الامكان وهذا يكفيك إذا لم تجد متسعاً للدراسة العلمية ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

فانظر كيف جعل لأجل وصول الصوت بالكلام وبالنغمات وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجبا من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظمات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورملات حافظات للصوت وعصى كورنى وشعرات فى القوقعة وغيرها وأعصاب سمعية فهذه أربعة عشر كأنها ليالى الهلال ليصير فيها بدراً كاملا

ينتقل الصوت فيها حتى يصل إلى المخ فتعجب من الجسم الذى نسكنه كيف كان الهواء يحتاج إلى آلات ماظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والأشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر إلى نفوسنا إذ لا سمع إلا حيث يصل الصوت إلى المخ وانظر كيف نستعمل ما نجهل ولا أبالغ إذا قلت ان أكثر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلا من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلا وعرفها ـ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء — فالتصوير قد عرفته فى الأذن وأما قوله : ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ فالعزة والقهر قد ظهرا فى التصوير فانه نوّع أعضاء الاذن (١٤) نوعا فقد قهرها وذللها لذلك وقوله حكيم راجع للمشيئة فالعزة للتصوير والحكمة للمشيئة فكأنه يقول سبحانه ان تصويرى لكم فى الرحم لم يكن عن هوى ولكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع

والحق أن هذا الابداع غفل عنه أكثرالمسلمين وهم نائمون وترى أبناءهم الذين

قرؤا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة أما قراءته لأجل الحكمة وارتقاء العقل فلا بل منهم من كفر إذ يظن المسكين أنه أعلم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد اطلع على ما جهلوه وأدرك مالم يبلغوه والحق ما قاله الامام الغزالى إنما أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدّعون أنهم طبيعيون بل أقول إن أهل زماننا كثيرمنهم أهل مكابرة وادّعاء وقد آن أن يرجع المسلمون لأيام مجدهم ـ والله هو الولى الحميد ـ وهاك ايضاح الأذن

أما الأذن الظاهرة فهى مشاهدة وأما الأذن المتوسطة أو الطبلة فقد وضحت فيما قدمناه بالتمثيل إلى أن قلت

(اللطيفة السادسة العين)

تصور ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة وهذه الأطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ثم تصور أن كلا من هذه الثلاثة قد وضعت عليها أغطية مستديرة أيضا مجوّفة وهذه الأطباق الثلاثة موضوعة فى داخل بعضها فماذا ترى ألست ترى أن عندك كرة فى داخلها فراغ وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحته كذلك فاذا وضعت فوق هذه الأغطية الثلاثة منديلا أبيض مثلا صارت الطبقات سبعا فاذا وضعت فى جوف هذه الأطباق مادة رقيقة شفافة لا لون لها فكان أسفلها كالزجاج الذائب ووسطها جامد كالجليد وأعلاها كبياض البيض السائل إذا فعلت ذلك فى هذه الاطباق فقد صورت طبقات العين وعرفتها

وليست عين الانسان شيئا غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فتى تصوّرت ما تلوته عليك من هذا المثل تصوّرت العين وإنما ضربت لك هذا المثل لتفهم ماسيرد عليك بسهولة . لقد تقدم أن الدماغ منشأ الأعصاب التى للحس والتى للحركة ومنها مايكون من النخاع وهناك فى الدماغ للقوة الباصرة عصبتان متقابلتا الشكل

فاحداهما تتجه جهة اليمين والأخرى تتجه جهة اليسار وتصل كل منهما إلى العين التى فى جهتها وهذه العصبة مجوفة وعليها غشاآن غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل

رقيق كما يكون للبيضة والجوزة ولسلك الكهرباء وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفا يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة فالغشاء الغليظ متى وصلت العصبة إلى العين فارقها وكسا عظم العين بلباس ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لا يكون تام التكوير كما قدمنا وهكذا يفارق العصبة الغشاء الرقيق ويصير لباساً وغشاء دون الطبقة الصلبة وتسمى الطبقة المشيمية لأنها تشبه المشيمة وأما العصبة نفسها فانها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين ويسمى الغشاء الشبكى ، أفلا ترى أن هذه الثلاثة أى الصلبة والمشيمية والشبكية هى التى ضربت لها فيما تقدم مثل الاطباق الثلاثة التى هى مدورة

فاذا فكرت فى الأغطية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلتسم غطاء الصلبة وهى الأولى (القرنية) وهى جسم كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض . ولنسم الجسم الذى تحت القرنية (بالعنبية) لأنه مثل قشر العنبة أسود أو أزرق ونحو ذلك وانما كانت ملونة لتحصن الأجسام المشفة من ورائها فلا ينتشر ما حصل فيها من الضوء والصور المنطبعة لأن سواد اللون يمنع انتشار الضوء. ان الضوء يدخل من ثقب فى العنبية فيتضايق ويتسع بحسب كثرة الضوء وقلته فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب . فهذه العنبية غطاء للمشيمية . ولتسم الغطاء الذى على الشبكية الذى هو تحت الغشاءين الآخرين بالعنكبوتى لأنه كخيوط نسج العنكبوت ولم يكن للادراك بل لضبط السوائل التى تحته فها هنا ست طبقات — القرنية . العنبية . العنكبوتية . الشبكية . المشيمية . الصلبة — فرجعت الطبقات الست الى الأطباق الثلاثة وأغطيتها والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى الملتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذى هو خارج القحف فهو امتد الى العين من جميع الجهات التى من خارج الى قرب الوسط ثم أنه لما لم يكن شفافا لم يمتد على بقية العين ولو امتد لمنع الأبصار فاستعمل منه مقدار ما يكفى فى أحكام رباط العين وترك موضع الأبصار مكشوفا ليصل الضوء الى آلات الأبصار من الطبقات والرطوبات * أما الرطوبات فهى ثلاثة :

(١) أولا جسم كالزجاج الذائب الذي هو وسط الشبكية ويسمونها (الجسم الزجاجى)

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذى لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد (بالرطوبة الجليدية) وتسمى أيضاً (العدسية) وانما سميت جليدية لأنها شبيهة بالجليد فى صفاته ثم أن الزجاجية تحيط بالجليدية بمقدار النصف ويعلو النصف الآخر العنكبوتية المتقدمة

(٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الابيض الذى يشبه بياض البيض وهو أرق من الأول الذى يشبه الزجاج الذائب (بالرطوبة البيضية) وهى التى يعلوها العنبية المتقدمة أى الغطاء الثانى فى مثال الاطباق فكان جوف الطبق الداخلى فيه لبن يعوم فيه زبد قد غرق الى نصفه وفوقه بياض البيض

فانظر كيف كان العصب الممتد إلى العين قد صار كأسلاك البرق (التلغراف) لينقل الأخبار الواردة الى الجليدية فوقه فترسم فيها الصور وهو ينقلها مارة فيه الى الدماغ وكيف كان ما تحت الشبكية من الصلبة والمشيمية يأتيان بالغذاء للعين من الأوعية الشعرية الوريدية والشريانية فلذلك عبرنا بالاطباق التى يتعاطى منها الطعام

فالعين إذن تستمد من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للابصار وضوء الشمس وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدرة فى البعد والقرب بمقادير لواختلت لاختل الابصار وكانت القرنية محدبة والرطوبة البيضية فيها تماسك ما والجليدية مفرطحة فيها صلابة والزجاجية وراءها مالئة للمكان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء فالتحدب يجمع الصور والجسم الثخين يزيد الصور ثبوتاً وبقاء وكما تستمد العين الغذاء من العروق تستمد الاحساس من الدماغ فلها من الغذاء المواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم ولها من الدماغ الاحساس الروحى الشريف فانظر ما أعجب العلم والحكمة ، وما أجملهما كيف عرفنا فى العين من العلم ما لم يحلم به الغافلون وكيف نرى أن طعامنا الذى نتعاطاه قد كانت

فيه المادة التى تشبه الزجاج الذى هو مركب من الرمل مع المغنيسيا والقلى فهذان الأخيران
متى أضيفا الى الرمل صار شفافاً فكيف (١) جعلت القوى التى فى أجسامنا لها آلات
لانعرفها خلصت من الطعام المهضوم أى من الدم تلك المادة المشبهة للزجاج (٢) ثم
اختير موضع العين فى الحجاج (٣) ثم كيف كانت العين التى دبرت هذا التدبير
موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للاعضاء الشريفة التى غطاؤها ضعيف كالبطن
وغيره (٤) وأيضا عمل الأعضاء الخارجة كاليدين والرجلين من الامام فتكون العين
مشاهدة لأعمالها ، ولعمرى أن من لم تطر به هذه الكلمات ولم يشرح صدره تلك
العبارات ليلتحقن بالعجماوات ، ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد
المزاج يحتاج الى العلاج (٥) ثم كيف جمدت الجليدية لتزيد النور انحصاراً
(٦) وليكون الجمود أعون على حفظ الصور فتصل الى الشبكية المتصلة بالدماغ
(٧) وكيف كان الجسم البيضى أمامها والزجاجى وراءها ليكونا لها غذاء لأنها
لا يتهيأ لها قبول الغذاء من الدم (٨) وكيف يكونان سبباً لاستضاءتها (٩) ولتكون
هى بهما دائمة الرطوبة (١٠) وليكونا ردءا لها فلا تتصل بمحجر العين ولا غيره من
كل صلب (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدمة شبكية لتضبط الزجاجية حتى
لا تكون سائلة (١٢) ولتتمكن المشيمية من تغذيتها أمامها (١٣) وجعلت البيضية
أرق قواماً لتكون أعون على تأدية المبصرات (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة
البيضية (١٥) وألوان العنبية لتحفظ الصور المرسومة فلا تذهب وتضيع (١٦) والثقب
يضيق ويتسع بالاختيار كما تقدم (١٧) وجعلت القرنية جسما صلباً لتحفظ العين كلها
وهى تتلون بلون العنبية (١٨) وجعلت مشفة لئلا تستر الثقب المؤدى للصور من
الأضواء الخارجة (١٩) والملتحمة رباط يمسك العين أن تزول إذ لاممسك لها سواها
(٢٠) وهى غير شفافة فلذلك امتدت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب لأنها
تمنع الصور عنه بخلاف القرنية (٢١) والجفن ممتد من الجلد وله عضلتان من جهة
الموقين لينزلاه الى أسفل (٢٢) وعضلة من جهة وسطه لرفعها (٢٣) وجعل الاسفل

أصغر لئلا يستر شيئاً من الحدقة وهو ساكن دائما (٢٤) ولئلا يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله اذا كان كبيرا (٢٥) والجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الاقفال (٢٦) والأهداب تمنع الغبار وتدخل الضوء عند الحاجة اليه كما فى أوقات هبوب الرياح فهذه ٢٦ حكمة من حكم العين وهى بعض ماظهر للناس من العلم فيها — والله يعلم ولكن أكثر الناس لايعلمون .

عجائب العيون

حضر صديقى العالم الذى يحادثنى كثيراً فى غرائب العلم فقال : ان ما كتبته هنا فى عين الانسان جميل وبديع فهل فى عين الحيوان مثل هذا الجمال والبهاء فقلت : ان أعين الحيوان فيها عجائب لاتخطر ببال نوع الانسان ان فتح أبواب العلم فتح لأبواب الجنان أو ماسمعت الحكمة الاسلامية المشهورة وهى : من سلك طريقا يطلب علما سلك الله له طريقا الى الجنة . فقال نعم ولكن أى طريق هـذا ؟ أطريق العيون ! فقلت نعم ، فقال : حدثنى فانى يخيل لى ان الحديث طريف وظريف فقلت :

قد كنت فى بعض الكتب المؤلفة قبل هذا الكتاب اطلعت فى كتاب انجليزى على ان للنملة الواحدة مالا يقل عن (٤٠٠) عين فى كل عين من عينيها (٢٠٠) عين ومعنى هذا ان لها خمسة أعين فى مقدم رأسها ثلاث منها بهيئة مثلث وثنتان أخريان موضوعتان بهيئة عيون الانسان وهاتان الاثنتان مركبة كل منهما من مائتى عين ، ومضت سنون تلتها سنون واجتمع معى المدرسون فى قصر درب الجماميز لامتحان طلاب الشهادة الثانوية فأرسل جمع من المدرسين مدرسا لى وأخذيحاورنى (وأنالاأعلم بما دبروه) فقال : (وقد أمسك فى يده غصنا من أشجار الحديقة) أيهما أفضل أنظام هذه الأوراق الدقيقة أم نظام النمل وعيونه فأجبت على الفور الحيوان أرقى من النبات فهو طبعا أرقى نظاما على ان للنملة الواحدة (٤٠٠) عين فما كدت أنطق بها حتى جمع هذا المدرس اخوانه وقال فلان قال كذا فضحكوا جميعا وأخذوا يسخرون فقلت على

رسلكم أيها الاخوان أنا قرأتها فى كتاب انجليزى تدرسونه أنتم فى مدارسكم فأخذ هذه المدرس يقول يافلان ألم تكن فى ألمانيا يافلان ألم تكن فى انكلترا يافلان ألم تكن فى فرنسا يافلان ألم تكن فى ايطاليا فأجابوا جميعاً (باستهزاء) ان هذا العلم فوق متناول عقولنا وعقول أوروبا ، فقمت من فورى أبحث فيما لدى من الكتب الانجليزية ، ثم قابلت الأستاذ شوقى بكير الاختصاصى فى علم الزراعة فبحث فى الكتب الفرنسية والانجليزية والألمانية والنمسوية وخرج منها بهذه النتيجة وهى :

ان من الحشرات ماله (١٢) عينا ومنها ماله مئات العيون ومنها النمل الذى لكل عين من عينيه مالا يقل عن مائتى عين وقام وأتى بشىء لا أراه ووضعه تحت الآلة المكبرة فرأيت عين النملة الواحدة أشبه بأعين الغربال وأخذ بشرح تلك العيون من تلك الكتب المتقدمة التى ألفت حديثاً باللغة الألمانية والنمساوية فى نحو سنة ١٩١١ وما بعدها فشرحوا كل عين من العيون الصغيرة واستبان ان كل واحدة منها مستقلة فى نظرها عن بقية العيون حتى ان العين الصغيرة لو عميت لم تؤثر فى أخواتها ولكل واحدة منهن أثر خاص فى المواد المنظورة بحيث ترى كل واحدة منهن جزءا صغيراً من المواد المرئيات و نفقد تلك العين تحرم النملة من نظر ذلك الجزء الخاص بتلك العين وتتمتع بالنظر لجميع الجسم ماعدا ذلك الجزء الصغير الخاص بالعين المفقوءة الصغيرة أى ان النملة اذ ذاك رأت جميع الجسم المراد إلا جزءاً واحداً من أربعمائة جزء من ذلك الجسم ، فلما عرضت ذلك عليهم وهم يعلمون انه اختصاصى فى علم الحيوان والنبات ، سكتوا وكأن على رءوسهم الطير

فلما سمع ذلك صاحبى قال : هذا عجيب جداً وهل دونت هذا فى كتاب غير هذا فقلت نعم : فى الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة النمل والرسالة هناك بأكملها تسمى (رسالة عين النملة) وفيها كل ماذكرته هنا مشروحا موضحا مما لايحتمله هذا الكتاب فقال : وهل ذكرت فى الرسالة غير عيون النملة ؟ فقلت : هناك حشرة تعيش على العليق لها (٢٧) ألف عين وهذه أكثر الحشرات عيونا ، وأذكر أنى ذكرت

فى مكان آخر أن الذبابة الواحدة لها أربعة آلاف عين على هذا النمط

فقال : ياسبحان الله اذن جمال الله وابداعه يطوف حولنا وليس خاصاً بما هو حسن بل بالقبيح القذر مملوء من الجمال والحكمة والابداع

فقلت نعم وهذه حجة قائمة على المسلمين النائمين اليوم ولعل هذه المسائل ستوقظهم من نومتهم فقال انا ان شاء الله سأقرأ رسالة عين النملة المذكورة ولكن حدثنى رعاك الله كيف أجمع المدرسون اذ ذاك بقصر درب الجماميز على انهم لم يعرفوا وأحوجوك إلى البحث والسؤال من عالم اختصاصى فقلت : ان أمم الشرق الى الآن لايزال بعضها غافلا عما هو ضرورى من العلم وان كان بين يديه لظنه انه من سقط المتاع فاحتقار بعض الحشرات وشؤنها وعدم العناية بالجمال والبهجة فى العوالم وسيادة الفكرة العامة المانعة من العلم تغشى على عقول الطالب وان كان فى أعظم جامعة فهو انما يقدم فيها لأخذ الشهادة للوظائف أما الجمال والحسن وبهجة النفس بالعلم فهذا عند بعض الشرقيين قليل القيمة فهؤلاء من هذا القبيل

ولقد مضى على المعارف المصرية حين من الدهر أيام الاحتلال الانجليزى وهى تغض الطرف عن علوم الحيوان والنبات التى بها ارتقاء العقول وهؤلاء من المتخرجين فى تلك المدة ، والانسان اذا لم يعشق العلم صغيراً فما أبعده عن حبه كبيراً

فلنفتح للناس طريق المحبة العلمية للعوالم المحيطة بنا يفتح لهم طريقان طريق إلى سعادة الدنيا وطريق إلى الجنة والحمد لله رب العالمين

الباب السابع

فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية

الذين درسوا علم النفس

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا لاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ماوصلت اليه ابحاثنا ، ولو عرفنا علم من هم أرقى منا من علماء العلم الأعلى ما اقتصرنا على هذه المباحث فجاء قوم أرقى منهم عقلا وأسمى نظرا وقالوا نحن عرفنا ما عرفه عوام الناس وشعراؤهم وما استنتجه رياضيوهم من القياس فى الجسم وما أدركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث اذن نحن عما هو أرقى من هؤلاء ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجد والبحث والتشمير فى نظر الأشياء ولقد رأينا الأطباء لا يعرفون من الانسان الا أعضاءه المفصلة وروحه الحيوانى وهو عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية فى سائر الحواس وما هذه الحرارة الا كسراج يدار فى جانب المنزل فتضىء جوانبه وتخرج منه أضواء الى الخارج من منافذه فهكذا هذا الروح الحيوانى المبث فى أعصاب الحس وأعصاب الحركة الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكى ، وهذا الروح هو الذى يعرفه الطبيب فاذا سد شريان أو وريد اوانقطع عرق أووقف العضو عن العمل عالج الطبيب هذا العضو حتى يخلص الروح الحيوانى اليه .

أما ما فوق ذلك من عالم النفس الذى هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق عالمنا وفوق قدرة الطبيب ، ولا يمكن معرفة بعض ظواهره إلا بمزاولة الطبيعيات والرياضيات . وقد قدمنا فى كتابنا هذا وسائر كتبنا ما يكفى الذكى ان يدخل معنا فى عباب البحث فى هذا العلم

وقد قدمنا فى آخر التشريح قريباً أن البصر أدرك الأضواء وبها ميز الألوان بعضها عن بعض والأشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاظمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشامخت عن المادة وارتفعت الى ماهو متوسط بين المادة والمجردات

أما العقل الذى يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطة الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا أعظم من الجزء من مبادىء الهندسة ومبادئ معرفة مالادخل للانسان فى خلقه والتمييز بين الحسن والقبيح من أفعال الانسان وهى الحكمة العملية فذلك لا يجوز أن يكون مدركا بلا شئ مشرق عليه مما يناسبه

وكما ان العين مع صحتها لا تدرك الا باشراق أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جدا فهكذا عقولنا التى هى أرقى من أبصارنا لا تدرك إلا باشراق نور عليها من عالم لا يجوز أن يكون جسما والا لكان هو أخس من العين ولا متوسطا بين الجسمانى وغيره والا لكان مساويا للعين وقد علمناه أرقى منها مكانا ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انما يكونه باشراق نور من مجردات عن المادة لانراها بحواسنا وانما عرفناها بعقولنا ، وكما أن البصر لايدرك الا اذا كان صحيحا فهكذا العقل لايدرك الا اذا سلم من الآفات وكما أن البصر لا يدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتى له من عالم أعلى وهى الكواكب فكذلك العقل لا يدرك وان كان صحيحا الا باشراق عليه مما يناسبه

وكما أن البصر يدرك النور بنفسه و يدرك بواسطته الأشياء و يدرك مشرق النور وهى الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة أخرى مما هى تحت العين فهكذا العقل يدرك الأشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بجسم فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو أسفل منه طبعا وهو البصر وغيره وكما أن الأضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جدا مرتفعة مكانا فكذلك الموجود الذى لا نراه

الذى يشرق النور على العقل الذى ليس له مكان أعلى فى الرتبة والشرف من العقل بما لا نهاية له

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لا تبصر لمانع صرفها عن ذلك كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة الأغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الأصدقاء ومعاداة الأعداء والى ذلك تشير الحكمة الاسلامية

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات والأرض) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لايعرف منها لشدة بعدها الاظواهر قليلة لا نعرف حقائقها ، بل نرى أكثرها قدر بيضة مع انها قد تكون أكبر من الشمس فكذلك من أشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لا نعرف عنه الا ما يصل من نعمه لنا نظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الامقدارماعرفنا من جرم الكواكب وكما ان فينا قوما نظروا بالمنطار المعظم فعرفوا كثيرا من ظواهر الكواكب وآخرين بالبرهان علموا ابعادها وأقدارها واقطارها فكذلك العلماء من جملة الناس قد يبحثون بالعقل تارة و بصفاء الفكر أخرى فيتجلى لهم كثير من العلم بصفات من أشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ، ومن هذا نعلم كيف أقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فتأمل كيف أقسم بمواقع النجوم ثم أعظم هذا القسم وأكبره جداً وأشار الى جهل أغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر المقسم به وهو مدح القرآن وأشار الى انه فى كتاب مكنون اشارة الى بعد مناله كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم ومصدره والكواكب وأنوارها من المشاكلة ، وأما النور فنظير قرآن كريم ، وأما

مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لأنه هو معلم العلم ومنزل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير تعلم كيف يتصور أن يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع وأجمل من النور وأبهى وأبهر وانه محيط بكل شئ واذا رأيت أن النور أكثر احاطة بالأشياء فلابد أن يكون ما فوقه أكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله — الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح — الآية ولسنا نأتى بهذه الآيات مقلدين وانما هى البراهين والحجج العقلية التى نراها بعقولنا كما نسمعها من الشرع ليتحد النقل والعقل واعلم أن العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالى فى احياء علوم الدين

هذا ولعلك شاقك ما سمعته الآن الى معرفة ما هى النفس وما صفاتها وما الذى تحسه وكيف تحس فهاك البيان فنقول :

اعلم أن النفوس ذللت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولنا الا شيئين خادما ومخدوما فالمخدوم هى النفس والخادم هى المادة ولا ريب ان كلتيهما لم تظهرا قط وانما الظاهر صفاتهما فقد أجمع حكماء العصر والأقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما أثبته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذى اعتبرها كرة غازية تنوعت الى آخره : وما أشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التى يتصور وجودها فى العقل ثم وقفت أمام النفوس بحللها وحلاها (والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الأخرى) وحلاها وبهاها ونرى النفوس كالعشاق والمادة كالمعشوق فتتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها ما رق وراق بصور فى قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المعشوق واليه الاشارة بقوله (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً) وقال أيضا (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً) ولذلك ترى أغصان الأشجار كأنما تمد يدها بالأزهار وتسلم على الناظرين اليها وتحيى القادمين عليها وكأن كل شئ يدعوك بلسان حاله (خذ

ما تشاء)، (كُلُوا مِمَّا فى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا) وقد آن لنا أن نشرع فى المحسوسات فانه أسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول :

المحسوسات

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها أبعاد ثلاثةوهذا هو الفرق بينهما وانما هىجوهر ليس بمادةوهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هى المادة أو الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذى ليس صفة فى غيره كالبياض والحمرة والصفرة وهكذا والصورةهىالابعاد الثلاثة والمادة يستحيل ظهورها إلا بالصورة فهى لم تعرف الا بالدليل إذ لم نر إلاالجسم واما المادة التى هى أحد جزئيه فلم تر قط . وإذا علمت ان الجسم ماذكر فجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهى صور متممة وهى صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من حواسالنفس الانسانية فالحواس خمساللمس والذوقوالشم والسمعوالبصر وصفات المادة ست وثلاثون صفة فعشرة منها لحاسة اللمس وهى الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارةوالبرودة فهى انما تدركها القوة اللامسة بملاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لامن حيث هو جسم وانما هى عوارض حدثت له من أحوال عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الأرض مع قربها فى الأول وعدماندماجها وتخلخلها أو بعدها عن مركز الجاذبية فى الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلة المواد السائلة عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة فى سطحها والعكس بالعكس و بقيتها ظاهرة وقوة اللمس تدركهذهالعشرة من صفات المادة بملامستها

المذوقات

وللأجسام تسع صفات أخرى وهى الحلاوة والمرارة والملوحة والدسومة والحموضة والحرافة والعذوبة والقبض والعفوصة كالعسل والحنظل والملح والزيت واللبن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية إلى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة انما تكون فى خلاصة المواد لا كالملموسات التى كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذى جعل فى الفم وهى أرقى من الملموسات فكانت الخلاصة للأعلى

المشمومات

وكثير من النباتات والمواد الأخرى تخرج منها أجزاء لطيفة تمتزج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم فى الأنف وتصل إلى الدماغ فيحس بريحها وينقسم إلى محبوب ومكروه ، فتأمل كيف كانت حاسة الشم فى الوضع أعلى من سابقتيها ولها الشرف من حيث لطف ماتستعمله . ألا ترى أنه لايأتى لها إلا مواد لطيفة فى الهواء سائرة اليها فقد استخدمت الهواء لتنال مشتهاها أما سابقتاها فانهما تباشران نفس المادة بدون توسط الهواء ولعمرى انه لوضع عجيب

المسموعات

وإلى هنا عرفنا صفات المادة الأحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولا جرم انها كلها غليطة لم تصل إلى اللطف التام وبقى للمادة بهجة أرقى مما ذكر وهى الأصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمرى ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت أن تؤدى مافيها من المحاسن وتظهر مااستكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذ لاتسع صورتين فى

أن واحد مع انها مستعدة لصور لانهاية لها ولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبر عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنغمات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة فى الأزمان المتباعدة وسرت تلك الأصوات فى أرق جزء من الأجسام وهو الهواء اللطيف فأتى إلى الأسماع فطربت النفس وصمت ، ولعمرك ان النفس وقد سمعت الألحان لأشبه شىء بمن عشق فسمع كلام معشوق .

وترى ان النغمات كلما كانت أكثر وزنا وأحسن وقعاً زادت قبولا و بهجة وحسناً عند النفس لمشاكلتها وزن الصور وتناسقها .

والأصوات اما حيوانية أو غير حيوانية وغير الحيوانية إما آلات كالطبول والأوتار و إما طبيعية كخرير النهر وصليل الحديد .

والحيوانية إما منطقية و إما غير منطقية الثانية أصوات الحيوانات والأولى أصوات الانسان وهى إما مفهومة أو غير مفهومة فالأولى كالاشعار ونحوها والثانية كالضحك والبكاء فهذه خمسة

فانظر كيف كان الهواء اللطيف يحمل هذه الأصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها ببعض فيحمل صوت الأشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى و يسمع الانسان هذا كله و يميزه إذ الهواء لطيف و بلطفه يسع هذا كله

وتأمل كيف تحفظ الأذن هذه الأصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس لها لطف الهواء ، ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة التى هى وراء أعصاب الأذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة تبلغ نحو ثلاثة آلاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص بسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الأعصاب فى الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الأعصاب لا كالهواء الذى هو لطيف محيط بالأرض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطا بالقائلين والسامعين على الدوام . وههنا يجب

تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغني لحظة عنه لغذاء أجسامنا بتلطيف الدم اذ لسنا فى تلطيف دمنا أحوج منا اليه فى كلامنا وتوصيل أخبارنا والتواصل فيما بيننا مع ما فيه من نقل الروائح الينا لنعرف الضار والنافع ، فما أقصر عقول كثير من نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وانما يحمدونه على المال والغنى أما المبذول لنا فى كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نكترث به ولا نعده نعمة وهذه معنى قوله (قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكفَرَهُ) ، (إنَّ الانسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) نعم هذا هو كفر النعم

المبصرات

أما المبصرات فهى عشرة : الأنوار والظلمات والألوان والسطوح والأجسام والأشكال والابعاد والأوضاع والحركات والسكنات فالظلمة ترى ولايرى فيها غيرها بل هى كالحجاب أما النور فيرى وترى به الألوان و بها تظهر السطوح وهى لا تقوم الا بالأجسام فتظهر تبعاً لصفاتها والجسم لابد له من شكل فتظهر الاشكال فالابعاد فالأوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من الكواكب السارى فى العوالم كلها الداخل فى العيون الزجاجية المناسبة له كل المناسبة الموضوعة بترتيب يناسب نواميس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى المخ مع أخواتها السابقه فيحكم بين جميعها وهو من لطائف الحاكمين

واعلم أن تقسيم الأجسام الى مضيئة ومظلمة خطأ وانما هى مظلم وهو ماله ظل كالأرض ومضىء كالشمس وهو مالا ظل له يعطى الضوء لغيره وشفاف وهو مالا يحجب الضوء وانما يسرى فيه و يفيض على ما بعده ومنه عين الانسان والزجاج و بعض الأحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الأثير الذى تسبح فيه اجرام الافلاك

واعلم ان الألوان بعضها حقيقى و بعضها غير حقيقى فالأول ألوان الزرع مثلا ، والثانى كخضرة الهواء وزرقة الماء العميق وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج

فى تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الأغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الالهية تلك الخضرة وأختها الزرقة فى الأرض وفى السماء لشدة مناسبتهما للعيون (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فهذه حكمة تحار فيها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجدا وياقوم كيف جعل فى الأجسام الشفافة ناموس عام فيها وهو الزرقة فى عمقها المتباعد ، وكيف كانت بهجته بهجة الحيوان وحسن منظره ، وأن هذه الظواهر حكم وراءها جمال وبهاء وحسن أعلى وأشرف وأبهج (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بهذا يفرح الأذكياء المجدون ويفر فرار جعل من ريح الورد الجاهلون . فالملموسات عشرة والمذوقات تسعة والمشمومات اثنان والمسموعات خمسة والمبصرات عشرة فالجميع ستة وثلاثون وأغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو ما يرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والأشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء المهم من علم تمييز الجمال .

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل تسمى انفعالات هذا فى غير الأنفس فان كانت الصفات الراسخة فى الأنفس سميت ملكة لجميع المتدربين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حالا

و بعض الأجسام فيه صلابة بها يدفع الوارد عليه كالحديد و يسمى هذا الاستعداد قوة و بعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها

فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومعها الوضع والكم المتصل الذى هو الابعاد الثلاثة . وهناك كم منفصل قار وهو الاعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو ابعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المتصل الذى ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث فى الطبيعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ فى علم التاريخ المتى وفى الجغرافيا الاين وفى علم تمييز الجمال الوضع وفى الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل ، وفى المواد السائلة

والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفى الاحاطات كلها كاحاطة الثياب بالأجسام والماء بالأرض والهواء بهما مقولة الملك وفى علوم الانسان ومعرفة منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات واللطائف الى الكثائف والاسراع الى البطء وهكذا تلاحظ النسبة

فهذه عشر مقولات وهى الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال والمتى والاين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق الحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها

واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن فى كيفية وصولها الى حواسنا ولنشرح أعمال الباصرة فنقول :

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ، ومن العجيب أن الضوء يحمل هذه الصور والأشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ما نراه . وياليت شعرى كيف يتكيف الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه و يوصلها الى الابصار ولكن لاعجب فى ذلك فان الهواء الذى هو أقل منه لطفا يحمل مالا يحصى من الأصوات المختلفة و يميزها فكيف بهو وهو أرق وألطف وأعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها

أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء كالآلات الفوتوغرافية والهواء كالفونجراف فالأول مظهر لصور الأشياء والثانى معبر عنها بألفاظ والضوء يقرب فعله من فعل المخيلة التى تزدحم الصور فيها ولا يختلط بعضها ببعض فتأمل كيف كان الشئ كلما رق ولطف كان أوضح فى فعله وأشرف وكلما قرب من الغلظ ضعف ايضاحه ووضوحه فالهواء حمل الأصوات وهى بلا ريب أضعف تعبيراً عن الأجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخلة فى الأعين مرسومة فى الدماغ فتدركها النفس

ولعمرى كم من الفرق بين من يعبر عن الشئ وهو الهواء و بين من يحضره بنفسه

وهو الضياء ، ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ما هو أرقى من هذا وهى عقولنا ونفوسنا ومن هو ألطف منها وهو مبدع الكون وملائكته (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ)

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هى كثافة الأجسام فالقوة اللامسة والذائقة لا تدركان الا المجاور لها فتتكيفان بكيفيته ولا تشعران بها وتنقل فى الاعصاب حتى يحس بها المخ وأرقى منهما الشامة

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انما يدرك بواسطة الضوء الذى لبس بجسم فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست بأجسام إذ لم تبق مرتبة بعد الضوء إلا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه نفهم معنى القدوس والمنزه وكيف أحاط بالكائنات علماً إذ الذى علمناه بالمشاهدة أن المادة هى العائقة فاذا لم تكن مادة حضر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادمنا فى جلابيب المواد فاذا تخلينا منها كنا أقرب الى العلم بذلك

ثم اننا اخترنا فى الأبصار مذهب علماء الطبيعة وهو أنه بالانطباع كما أوضحناه لامذهب الرياضيين إذ قالوا أنه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط قاعدته على الجسم المرئى وقمته فى العين الباصرة ولهم فى ذلك أراء كثيرة فلا ثمرة فى الاطالة بذكرها والانطباع الذى اخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة الاسلام وقالوا إن مقابلة المبصرات للباصرة تفيد استعداداً لتفيض به صورته على الجليدية ولا يكفى فيه الانطباع فى الجليدية وإلا لرأى شيئاً واحداً شيئين لانطباع صورته فى جليدتى العينين وإذن لابد من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه إلى الحس المشترك ولم يريدوا من تأدي الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس المشترك انتقال العرض الذي هو الصورة إذ لا ينتقل العرض وانما أرادوا أن انطباعها ... الى الحس المشترك كما كان

الضوء بين الجسم والعين معداً أيضاً وقس على سير الضوء سائر المحسوسات بالحواس الخمس فى الأعصاب حتى تحس بها النفس فهى أشبه بالكهرباء أو النار تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى أن ما كان فى الجزء الأول انتقل الى الثانى بل هى استعدادات حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم فعلم المعلم لم ينتقل عنه إلى التلميذ و إنما تعليمه جعل فى المتعلم استعدادا لقبول فيضان الصورة التى عند المعلم نظيرها

الحس المشترك

فاذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الخمس كلها اجتمعت فى قوة واحدة لايهمنا مكانها وانما يهمنا فعلها تسمى الحس المشترك يزعم الأقدمون انها فى مقدم الدماغ وماهى إلا كرئيس أرسل رسلا ووكل كلا بجهة من أطراف بلاده ليأتى بأخبارهم حتى إذا اجتمعت عنده الأخبار رصدها فى دفاتر الوارد ثم أودعها مخازنه حتى إذا حضر الحاكم الأكبر فيها فصل فى قضاياها وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها . فللعين الألوان وللأذن الأصوات وللشم المشمومات وللفم المذوقات وللحس الملموسات

فاذا أبصرنا سرابا وسط النهار رأيناه أبيض كالماء فهذه الحاسة أدت وظيفتها وهى رؤية اللون والحس المشترك يودعها فى المخيلة — وهى ترفعها إلى العقل فان حكم بأنه ماء فقد ضل لأنه لايجوز له الحكم إلا إذا شهدت حاسة أخرى وهى الذوق هنا لحينذاك يحكم بأنه ماء ، وهكذا إذا نظر ماهيئة رمانة صناعية فلا نحكم بأنها رمانة حقيقية إلا باستعمال حاسة أخرى كالذوق حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بحاستين شيئاً واحداً مراراً يوجب الاستغناء باحداهما عن الأخرى ، فاذا رأى أى حيوان نباتاً وأكل منه فوجد طعمه لذيذاً ثم نظره كرة أخرى فلولا الحس المشترك الذى اجتمع فيه الذوق والمنظر لما عرف الحيوان ان هذا الأخضر هو اللذيذ بعينه .

فمن رحمته تعالى أن خلق هذه القوة الرئيسية تجتمع الأخبار عندها بهيئة غريبة و يتصرف الانسان والحيوان فى شؤونه باعانتها .

فالحواس الخمس كأنها خمسة أنهر فى حوض واحد فهذا الحوض مخدوم وهى خادمة فهو أجل منها قدراً إذ المخدوم أشرف من الخادم والعالم بخمس فنون أفضل من العالم بفن واحد على ان الحواس لاعلم لها وانما هى موصلات لصاحب الحس كما علمت من قبل فهو العالم وحده ثم هذه الصور تخزن فى الخيال

المخيلة او المصورة

أفعالها عجيبة فانها تخزن فيها الصور إلى وقت الحاجة من كل ماأحس به الانسان ومن العجيب انك كما أحسست به تراه بشكله بعينه مجسما واضحاً فيها ، فاذا أبصرت قصراً منيفاً أو نهراً جارياً أو بستاناً زاهراً وأغمضت عينيك رأيته واضحاً فيها . وإنما الفرق بينه و بين الحواس الظاهرة انها لاتشاهد إلا بعلاقة بينها و بين المحسوسات فاذ انقطعت العلائق كالهواء والضوء بأن ضمت الأجفان أو سدت الآذان فلا إبصار ولا سمع ، أما هذه القوة فانها تشاهد مافيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بأمثالها قطعاً إذ خضرة البستان فى الخيال ليست هى التى فى النبات وانما هى مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا فيه نوع الصفات لاهى

فياليت شعرى كيف تسع هذه القوة عالم السموات والأرض وصورها المختلفة المجتمعة فيها وكيف يوضع الكبير فى الصغير

قد أجمع الحكماء على عدم تدخل الأجسام فلو كانت هذه القوة جسما فكيف تسع هذه الأجسام كلها . ينسى الانسان الشىء مدة طويلة حتى إذا أراد أن يتذكره كرة أخرى أحضره من هذه المخيلة ولولا حضوره عنده ماتذكره فهذه القوة :

(١) تقبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحفظها عندها لوقت مسيس الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب مادامت الحواس مشتغلة بالعالم الخارجى فهى ترسم مايرد عليها . فاذا ركدت الحواس أخذت المخيلة فى النظر فيما عندها من الصور فتحلل تارة وتركب

أخرى اما صدقا واما كذباً فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء البلاغة باختراع صور جميلة فى هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات والروايات والتآليف والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان أطلقت المفكرة لها العنان أخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس جمل أو بالعكس

(٤) ثم هى كما تحلل وتركب تضرب الأمثال وبيانه انها تصور الشىء بصورته تارة وتمثله بصورة غيره تارة أخرى ولذلك نرى النائم يتخيل أخاه فى صورة صديقه والعدو فى صورة الصديق وبالعكس .

هذه أعمال القوة المخيلة فى الصور المخزونة عندها

(١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان وأخلاقه ومعقولاته

(٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه فى الشمس قرب نار . وتأتى بالمعقول فى صورة المحسوس الذى اعتادت عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات أو المعقولات إلا وترجعها إليه

(٣) وتمثل الأخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الأقران والشهوانى انه يتصرف فى شهواته والكريم انه يفرق الأموال .

فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

(٤) وتمثل المعقول ألا ترى ان العلم يؤتى به فى صورة اللبن . والكتابات فى صورة الجزئيات كما إذا تصورنا الرحم وهى الأمر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته بين يدى ملك . فهذه تمثل الأمر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة . هذه هى أعمالها فى التمثيل وهى أربعة كما رأيت

(٥) ومن صفات المخيلة انها سريعة الحركة فتخرج من الكلى إلى الجزئى وبالعكس ومن الكل إلى الجزء ومن الصديق إلى العدو وبالعكس رحمة من الله بعباده ليذكروا

مانسوه فيخرج الانسان من صديقه إلى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق وينتقل إلى جاره ويذكر قضية له ومنها إلى القاضى ومنه إلى الحكومة ومنها إلى السياسة وهكذا فتكون الأفكار سلسلة واحدة أيا كانت متضادة أو متماثلة أو متجاوزة أو متناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ماأمكن الانسان أن يكون مدنيا ولم يتذكر مانسيه ولم يعرف معايشه (صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) فهذه خمسة أعمال اجمالا ثمانية تفضيلا للمخيلة فأنت ترى من هذا البيان ان أعظم نعمة علينا هى هذه المخيلة ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شىء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية

فياليت شعرى ماهذا الذى ليس معروفاً ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع السموات والأرض وما بينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت فى شك مما تلونا عليك فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد مارأته عيناك وما سمعته أذناك حاضراً فيها بصوره وأشكاله . فان كنت لاتتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها بالآداب والعلوم حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفى مع ظهوره

هانحن أولاء نصور الكرة الأرضية والسماوية بطريقتين احداهما بالكرات الصناعية المشاهدة فى المدارس والأخرى بالخرائط الجغرافية وكلاهما صور ناقصة فالكرة تكون صغيرة جداً عن الحقيقة والخريطة ليس فيها إلا ظل لاحقيقة له وهو مع ذلك صغير جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون .

أما هذه المخيلة التى ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر جمجمة الرأس وهى شىء صغير جداً على أن جمجمة الرأس لاتسع شيئاً من ذلك كله إذ هى مملوءة مادة دهنية هى المخ وأعصاب موزعة فى الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع لرسم نجم صغير فضلا عن السموات والأرض .

ولذلك أيها القارىء بان لك ان نفوسنا شىء غير مادة بالمرة وعرفت انها عالم أوسع من عالم النور الذى ذكرناه لك سابقاً لأن المادة أمامنا قد عجزت كل العجز عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى الذى أقمناه فى هذا الزمن والعلوم راقية والأمثال مضروبة منها

ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين مع صغرها فلئن [illegible]
هذا البرهان فى المخيلة التى هى ظاهرة من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التى هى من أعضاء البدن وما بالنا نراها تسع هذا كله وتدخله إلى المخيلة .

حارت الأفكار فى قدرة هذا المبدع الحكيم . وانى لأذكر لك المحاورة المشهورة بين ابليس وادريس التى ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس أيقدر ربنا أن يدخل الدنيا فى قشرة بيضة فقال يقدر أن يدخلها فى سم هذا الخياط وفقأ عينه بالابرة . وأجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذى لاتتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الايجاد والا فالقدرة لاحجر فيها .

هذا ملخص ما أجابوا به . وأنت أيها الأخ القارىء لكتابى هذا تأمل فى السؤال وما يشير اليه الجواب فان هذه المسئلة من الأشياء المضروبة للناس أمثالا لعلهم يتذكرون فلقد شاهدت أن الحدقة والمخيلة قد وسعتا العلم كله بشكله وهيئته مجرداً عن المادة (ان الله على كل شىء قدير) إذ ليس المراد من العالم إلا خلاصته وشكله ولقد قالوا ان الله يقدر أن يدخله كله فى قشرة البيضة بأن يكبر البيضة أو يصغر العالم وها أنت ذا شاهدت أن العين والمخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر كيف قالوا فى هذا المثال اه فقأ عينه فتأمل كيف أشار الى ان العين هى نفس جواب السؤال كأنه يقول ان عينك ومخيلتك فيهما الجواب

هذا ما خطر بنفسى عند كتابة هذا الموضوع والذى انقدح فى نفسى أنها ضرب أمثال للناس ثم تنوقلت فى الكتب على انها حقيقية مع أن أصل الواضع لم يرد به إلا تنبيه العقول والتأمل ويظهر أنه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفى نسبتها الى سيدنا إدريس دلالة على أنها قديمة الوضع من وضع بنى اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثر النقل عن موضوعاتهم ورواياتهم فى كتب المفسرين على أنها مواعظ يراد غاياتها لا حقائقها وهذا أمر يعلمه

رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن الأمثال إذا تداولت عليها الأيام أن يظن أنها حقائق .

ولعلك تقول لم لم توضح فى كتب التوحيد قلنا أن العقول لا تحتمل أن المتخيل يقال له موجود وانما يعرفه من ارتاض بالعلوم

هذه الصور المتخيلة يصدق عليها أنها موجودة وأنها معدومة وانها متوسطة بين الموجودة والمعدومة إذ فيها إمارات الأحوال الثلاث فلعدم الجرم ربما يتوهم العدم ولوجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما يقال لاموجود ولا معدوم . وما أقدر هذه القوة على الأعمال فانظر كيف لطفت الأجسام الكثيفة ووضعتها فى أعلى بعد وان كانت فى أسفل واضاءتها بعد الاظلام فى قوله تعالى (انى رأيتُ أحدَ عشرَ كوْكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُم لى ساجدين) ثم أبرزت المعقول فى صورة المحسوس والمعقول هو التعظيم والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه فى هذا المقام من عجائب المخيلة والى هنا قد ذكرنا قوتى الحس المشترك والمخيلة التى ذكرنا لها هذه الأعمال كلها ولها غير ذلك من الأعمال فهى تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاة مثلا هذا ما يظهر من كلام أبى نصر الفارابى فى آراء أهل المدنية الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء أما كلام غيرهما من العلماء فانهم يجعلون القوى خمساً وهى الحس المشترك والخيال وليس له وظيفة إلا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات بين الصور والحافظة تحفظ المعانى الصادرة عما قبلها والمتصرفة تتصرف فى تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة أو الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لا يهمنا كثرة الأسماء والألقاب وانما المهم هو معرفة ما فيها من الغرائب وها أنت ذا قد عرفت المذهبين من باب الاحاطة فلندع الاصطلاحات جانباً ولنذكر القوة العاقلة

القوة العاقلة

اعلم أن جميع ما ذكرنا من القوى الباطنة والحواس الخمس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهى التى تستنتج من تلك الصور المخزونة والمعانى المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملى وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظرى

قال الطوسى فى شرح الاشارات « فالعقل العملى هو إدراك كل مستنبط من مقدمات كلية أولية أو تجريبية أوذائعة شائعة أوظنية يحكم بها العقل النظرى ويستعملها العقل العملى فى تحصيل ذلك الرأى الكلى من غير أن يختص بجزئى دون غيره والعقل العملى يستعين بالنظرى فى ذلك ثم أنه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية أو محسوسة الى الرأى الجزئى الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله مقاصده فى معاشه ومعاده » أما العقل النظرى فاعلم أن له ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لايحصى عددها إلا مبدعها

ولنتبع درجات الانسان من صباه إلى بلوغه النهاية من العلم ونسمى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا إليه فى أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الأشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولانيا أى ماديا لم يرتسم فيه شيء من أنواع الصور العقلية فكأنه مادة خالية من الصور وان كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فها هو ذا خلا من الصور العقلية واملك تقول أنه يحس ويتخيل كما تقدم نقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك المتقدم للجزئيات لا للكليات . فان ميز بين الأشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملكه وهذا يكون عند الفطام ونحوه إلى سن التمييز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهى القوة الفكرية التى تحصل المعلومات بالمشقة والتعب فى استخراج المجهولات كما

يحصل للتلاميذ فى علوم الحساب والهندسة والجبر . فإذا استكملت هذه القوة ونمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهى الحدس وهى سرعة حصول النتائج بحضورالحدود الوسطى بلا مشقة كما كان فى الفكر كما يحصل للمدر بين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم من الفطرة معين على ذلك . وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى عنهم فيصير ذا قوة قدسية إذ هى صافية تكاد تضيء . والعلم المشرق عليها عقل مستفاد من المبدأ الفياض بالنور على الناس واجتماعهما معا عقل بالفعل . فهذه سبع مراتب . العقل الهيولانى

العقل بالملكة . الفكر . الحدس . القوة القدسية . العقل المستفاد . العقل بالفعل ولنضرب مثلا لهذه الدرجات السبع بالمشاهد أمامنا فنرى أن العقل الهيولانى عند الطفل كالمشكاة وهى الكوة فى البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة حسب مافيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة كالزجاج فانه أشف من الهواء فى الكوة ومن حيطانها وأكثر قبولا للانارة منهما : والقوة الفكرية التى هى أرقى منهما كشجرة الزيتون إذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب والتعب فى اعتصاره واستخراجه ، والحدس كالزيت إذ هو أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعا يولدان النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لاخراج النور منهما وانما هما قابلان لاشراقه عليهما فنفطن للفرق بين الجميع

والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذى يكاد يضيء ولو لم تمسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم أشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلا بالفعل وهو كالمصباح صار مضيئاً بنفسه . وفى التحقيق إن الثلاثة الأخيرة مرتبة واحدة و بهذا تكون المراتب خمساً فقط .

إذا فهمت ماتلونا عليك عرفت مانشير إليه الآن وهو قوله عز وجل (اللهُ نورُ السَّمَوَاتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ) الفائض على الناس من العقول والعلوم (كَمِشْكَاةٍ فِيها مصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كَوْكَبٌ دُرىٌ يوقدُ من شجرةٍ

مُبارَكةٍ زَيتُونةٍ لاشَرْقيةٍ ولا غَرْبيةٍ) اشارة إلى الاعتدال الغريب (يكادُ زَيتُها يضيء ولولَمْ تمسسْهُ نَارٌ نورٌ على نورٍ يهدِى اللهُ لنورِهِ منْ يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ واللهُ بكلِّ شيءعليم) فتأمل هذه الآية كيف جمعت فى نظمها من المشاهد أمامنا ماينطبق على درجات العقول فى النوع الانسانى وما استخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب المعقول والمحسوس وبقى هنا شىء هو : أنه ذكر النار وهى توقد بها المصابيح ولعلك تتذكر ماقلناه قريبا ان العقول البشرية لاتأتى لها العلوم إلا من مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما أن الكواكب مبدأ يشرق النور المشاهد على الأبصار المناسب لها وقد أوضحناه فى أول الكلام فى هذا الباب وهو علم النفس بما لامزيد عليه .

فهذه النار اشارة إلى موجود لانراه ولا نسمعه ولا نحس به ولا نشمه ولا تذوقه ترفع عن ادراك الأبصار (لاتدركهُ الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ) عجزت الأبصار عن ادراكه لأنه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للابصار الا على الأضواء الظاهرة وكيف لها أن تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك مايدرك العقل كلا ثم كلا وهو يدرك الأبصار إذ هو مسيطر على العقل قطعا يمد له والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم (وهو اللطيف الخبير) فللطفه جدا ودقته عن الأضواء المشاهدة لم تدركه الأبصار فهو برهان عقلى للقضية الأولى (الخبير) لأنه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الطاهرة ثم الحجج الباهرة

فالممد للعقول المخرج لها عن البساطة إلى المعقولات فى الدرجات المختلفة موجود لانراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الأعلى وكلها نفوس قدسية شرفت على المادة أقرب إلى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا . فكل علم حصل فى قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله إلينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة . وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذى اختص به (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوحى والرؤيا ونحو ذلك)

واعلم أن النوع الانسانى على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون المغيبات فى المنام وهم كثير جداً . ومنهم من تحتاج رؤياه إلى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى فى اليقظة ما يراه فى المنام ثم بالحواس وهى مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحا نحوهم من كل من يستعين بشىء من الخارج كالمندل وضرب الحصى والنظر فى الزجاج فى الشمس وتحضير الأرواح والتنويم المغناطيسى وبالجملة كل ما يفعله الانسان ويشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتخبر بالمغيب الذى هو شغلها الحقيقى ومنبعها الأصلى فالكهان قسمان قسم يحتاج الى استعانة وقسم لا يحتاج وهذا الثانى هوما كان لكهان العرب مثل سطيح وغيره ولكنهم لا ينطرون بكهاناتهم الا فى الأمور الجزئيات أما الكليات فمعرفتهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل عندهم كثير من العلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لأن المخيلة تحلل وتركب فى المنام واليقظة صدقا وكذباً كما علمت فى تعبيرها عن المزاج والأخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور .

يشير لذلك ابن صياد وقول النبى صلى الله عليه وسلم له كيف يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب. فقال : خلط عليك

وهؤلاء قوتهم المخيلة قوية حتى تتحمل ما يرد عليها من الحواس وما يرد عليها من العالم الأعلى وهى عند الكهان أقوى منها عند عامة الناس إذ لايقوون إلا على اختلاس المغيبات وقت المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جدا

القوة التى هى أرقى من هذين قوة الأنبياء فانهم يرون فى اليقظة وفى المنام وأول الوحى الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً فى اليقظة وأخبار الله الأنبياء على ثلاثة أقسام

(١) وحى فى القلب بحيث يعلم أن هذا من عندالله ولايمكن دفعه (٢) وبروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك

(٣) وظهوره الى البصر وهو رؤية الملك يكلمه و إليه الاشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمهُ الله إلا وَحياً) هي المرتبة الأولى (أوْ مِن وراءِ حجاب) هى المرتبة الثانية (أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء) وهى المرتبة الثالثة (إنه عليم حكيم) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الأعلى وقد علمت أنه كله سبعة أقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة . وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان

ولعمرك لولا قوة مودعة فى نوع البشر وهى الرؤيا الصادقة ما صدقوا الأنبياء فما من إنسان إلا ورأى رؤيا صادقة أو سمع بمن رآها

اقسام العلماء

ولما اختلف الناس فى أخذ العلوم من بابى الحواس والعالم القدسى رأيت العلماء قسمين قسم أخذوا علومهم عن الفكر والنظر فان تبعوا الأنبياء فهم المتكلمون وإن لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم أخذوا العلوم من جهة إشراق النفس فان تبعوا الأنبياء فهم الصوفية . أو لم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه أربع فرق لا يخرج أحد من العلماء عنها .

أقسام العلوم

والعلوم ستة أقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية إما أن تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهى الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعى والبيطرة والبيذرة وعلم التشريح وغيرها وإما أن تحتاج الى المادة فى الخارج فقط لا فى الذهن وهى العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الأعداد إلا فى مقدرات ومعدودات معينة ولكنها فى الذهن لا تحتاج إلا إلى تصور مطلق مادة لا مادة مخصوصة. و إما أن لا تحتاج إلى المادة لا فى الخارج ولا فى الذهن

وهى علم ما وراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة إذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت فى البراهين التى قدمناها و يتصورها العقل بلا مادة

و إذا كانت العلوم الرياضية لم تحتج الى المادة فى الذهن فكيف بالمجردات فهى لا تحتاج إليها من باب أولى

وهذه الأقسام الثلاث كالتقسيم الذى قدمناه فى الأجسام والأضواء وعالم العقل فالأجسام كعلم الطبيعة والأضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كالعلم الالهى فاجتمع التقسيمان فى لفظه واحدة لأن البراهين الصادقة ترجع إلى أمر واحد كلها فهذه أقسام العلوم النظرية .

وهناك علوم عملية وهى سياسة الانسان لنفسه وسياسته لأهل بيته وسياسته لأهل مدينته وهذه تكلفت بها الشريعة الاسلامية وعلوم الأخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة أقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة و إلى هنا تم الكلام على أقسام المعرفة الثلاثة وهى الحواس والقوى الباطنة والعقل

التقسيم الحديث

هذا هو التقسيم الذى اعتبره المتقدمون ، ولقد عرف الغربيون هذه العلوم لما نقلوها وأخذ (كانْتْ) يفكر فيها فاعتبر القوى العقلية محلا للتقسيم وجعل المدار فيها على القوة المخيلة والقوة الذاكرة والقوة العاقلة فللقوة المخيلة جميع العلوم الأدبية وما ينحو نحوها كالشعر والنقش والتصوير وما أشبه ذلك لأن هذه منبعها الخيال و يدخل فى هذا علم البيان البديع

والشعر ثلاثة أقسام قصصى وتمثيلى وغنائى ، وللقوة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان أثرى و بشرى والأثرى ماجاء فى الديانات والبشرى تاريخ الأمم وهو المشهور فى الكتب والعلوم الرياضية والطبيعيه وهو المعمول به الآن حتى ان كا [illegible] حاص ، به وللقوة العاقلة (١) علم الفلسفة وهو الباحث عن نظام

الطبيعة (٢) ومعرفة مافوق الطبيعة من العالم الأعلى والبحث عن الله عز وجل وعن النفوس المجردة (٣) ومعرفة نفس الانسان ويدخل فى ذلك علم النفس ثم المنطق ثم علم الجمال والقانون ونظام المنزل ونظام علم الأخلاق وهكذا

وهذا التقسيم يدخل فيه فروع جميع العلوم كما ان التقسيم الأول كذلك

ولأذكر لك أيها الذكى نبذة صالحة من مجمل علم المنطق فأقول جاء فى المجلد الخامس عشر من تفسير الجواهر فى سورة الروم عن آية (فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها) تحت عنوان (اللطيفة الثالثة فى العلوم المنطقية)

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شىء خلقه فهدى ، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشؤونه العامة والخاصة . فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملأها بالعسل وربى ذريته . وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذى يكون فيه مأواه و به يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر فى هـذا التفسير فى مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدى لثدى أمه و يمسكه و يمتصه و يبكى عند الجوع و يضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشؤونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه و بصره وشمه وذوقه ولمسه . كل ذلك بفطرته بلامعلم يعلمه ولامرشد يرشده . وقد وجد الناس فى عصرنا انهم عثروا فى الآثار المتوغلة فى القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود . واختلافهم انما هو فى أوصافه وعدده ولكنهم جميعاً متفقون على وجوده . إذن الاتجاه إلى موجود له سموّ وعلوّ مسلم به فى الفطرة وهذا معنى قوله تعالى (فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَليها) فان هذا النوع الانسانى قد اتفق تاريخ أممه على انهم جميعاً كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى . وفطرة الناس منحصرة فى (أمرين اثنين) لاثالث لهما (الأمر الأول) نماء الجسم والمحافظة على النسل فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما

وتربية ذريتهما . هذه فطرة فيهما ولولاها لخلت الأرض من نوع الانسان وهكذا كل حيوان (الأمر الثانى) المحافظة على اسعاد الروح وآية ذلك ماتراه من حفظ العرض والخوف من الشماتة والعار والخزى والذل وما أشبه ذلك وهكذا ماذكرناه من توجهها لمبدع الكون واعترافها به وعموم ذلك فى كل زمان ومكان قديماً وحديثاً حتى ان الحيوانات عند حدوث الملمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هنالك مصدراً لوجودها تستغيث به ليس فى هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم اجمالا .

هذه الفطرة كما ألهمت الصبى التقام ثدى أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون فى الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهراً يجرى كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدربون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرثون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها فى غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم فى حال بداوتها وفى حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم سمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن فى فطرهم من فنون العلوم كالهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزاً كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة فى فطرهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) ان الانسان يسمع ويبصر المسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة ، فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع . فاذا كان المحسوس لايعرف إلا بحاسة واحدة وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة فى حكمها عليه ، ألا ترى

أن الصوت انما يعرف بالسمع ، أما اللون والشكل مثلا فالسمع لايدركهما هكذا الصوت لايدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لايشاركها سواها فى إدراكه . إذن يصدق السمع فى المسموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فانهما لايختصان بحاسة واحدة . فاذن لانصدق العين فى حكمها على التفاحة ولا فى حكمها على اللبن ، وبيانه أن الانسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة وقد يكون مخطئاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولونّاها بلون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكمنا فى أول الأمر خطأ انها تفاحة مع ان هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فان حكمتا فبها و إلا فلا. هكذا إذا صنعنا مايشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء فالعين تراه ويخيل للعقل انه لبن فلابد من حكم القوة الذائقة مع العين ، فهنا (ثلاث مراتب فى الحكم) حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فاذا خالفنا هذه القواعد فان العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى انه يرى السراب فى وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة فى أنها رأت لون الماء وهيئته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لايعرف بحاسة البصر وحده فلابد من انضمام حاسة اللمس اليه ليعرف انه سائل وحاسة الذوق ليعرف انه ماء وما دام ذلك متعذراً على من بالصحراء فحكمه معرّض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهى فى أحكام الحواس فى محسوساتها

﴿ مقاييس العقول التى تقبس بها المعانى فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الانسانية المنبعثة من الفطرة (مقاييس خمسة) مقياس يحكم حكما قاطعاً . ومقياس يحكم حكما ظنياً . ومقياس يقيس ويكون أضعف حكما مما قبله . وقياس يكون أقرب إلى الوهم . وقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان . وأما الثاني فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس

فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو المبنى على ماشهدت بهالفطرة فى مبادئ أمرها بحيث لايختلف فيها ولا يشتبه الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل :

(١) أن الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء

(٢) والشيآن المساويان لشىء واحد متساويان

(٣) والنفى والاثبات لايجتمعان

(٤) واذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين

(٥) واذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويان

(٦) واذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين

(٧) واذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين

(٨) واذا ساوى شيآن نصف الشىء كانا متساويين

(٩) واذا ملأ شيآن حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين

وهكذا مما ذكر (اقليدس) فى أوائل الهندسة ، وهذه وأمثالها هى المسميات أوّليات لأنها تعرف فى أوائل العقول ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التى أشرنا اليها . وهكذا ماتصدّقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والمنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدّت من المقطوع بها . وهكذا المتواتر الذى شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم كما نقول فى مصر ان فى الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو ستراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه نقطع بوجودها وان لم نرها . وهكذا مالاحظناه مرراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلا للشمس امتلأ ضوأ وكلما اقترب منه قلّ ضوؤه . ومتى كان مقارنا لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمدّ نوره منه لأنه لما قابله أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كان وجهه المشرق

فى جهة الشمس لافى جهتنا ثم تكرر هـذا فحكمنا حكما يقينيا كما حكمنا فى المجربات سابقاً . وهكذا نلاحظ فى باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شبقا وأخرى نسميها مرضاً وهى كثيرة لاحدّ لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقداً ورهبة وحباً وكراهة فهذه يقينيات

فهذه كلها اذا جعلت مقدمات فى أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة . هذا هو المسمى بالبرهان و يليه فى القوة الجدل

﴿ الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو مايستعمله المتناظران بحيث يورد كل منهما مايسلم الخصم به كالمسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة فى كل أمة فهؤلاء يكفيهم فى أدلتهم مايوجب الظنّ والترجيح لاغير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بمايخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلا ويحببهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالأساوب الشعرى ، وهناك مايقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . بهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر فى النفس وأدناها كلها المغالطة وهى السفسطة التى يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلا وقد شبهوها بالدينار فان كان ذهبا خالصاً فهو مثال للبرهان الذى لايخطر ضده بالبال وان كان فيه زغل لايعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل وان كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للخطابة وان كان نحاساً كله كان مثالا للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق واعلم أن المطلوب علمه

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لايبرهن عليه ولكن سبيل

العلم اليه انما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الـكيمياء ، فترى علم الـكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء و يفصلون العناصر التى حواها كلاهما فيحكمون حكما قاطعاً

(٢) وان كان نوعا كالانسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولـكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين فى المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب فى الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد فى الثانى

(٣) وان كان المطلوب جنسا فلاحكم عليه بحد ولا بتحليل بل باالقياس كحدوث العالم وكنفع العقاقير وضرها وهكذا فهذه لابد فيها من القياس

(٤) وان كان المطلوب هو تمييز الـكليات بعضها من بعض فلاسبيل لها إلا بالتقسيم كمعرفة الفرق بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمذوقة والملموسة ومن نسبتها إلى غيرها كالابوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعلها فى غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لايتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن المقولات) من علم المنطق وهو أيضا من الفلسفة العامة . واعلم ان المتعلمين فى مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم فى علم الـكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقيناً فيما يزاولونه و به استنتجوا منافع للنوع الانسانى وهـذا من فطرة الله التى فطر الناس عليها فاذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدى أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس ، باقتراب جسم غريب اليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة فى الأول لاتحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن فى أنفسنا ، وهم أيضاً يقسمون الكلمة الى (ثلاثة أقسام) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضاً يقرؤن الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التى يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذى به استخرج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فاذا فطر الله الناس على

استعمال الفاكهة التي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث مايوازى مااستعملوه بلا جد ولا نصب ، واذا رأيناهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا نراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له علوما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد النبات بمجرد سماعه ولكن لا انتظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وأعمال فكر بمساعدة فطرتنا

﴿ مراتب الناس في الاستدلال ﴾

(١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم مابين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فاذا رأى الصبي نظيره في مكتب أوطريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لابد له من علة

(٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لهما أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لاتنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لايلزم من وجودهما وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة

(٣) وهكذا كلما رأى ولداً ظن أن له أخوة كاخوته وداراً وجوعاً وشبعا على حسب مايقوم بنفسه هو في وقت الاتصاف بذلك ، فان جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وعلى ذلك فقس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه

(٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر في كل بلد حين يكون ببلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهـذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم

(٥) إن كل نتيجة لابد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أوهندسي

أو غيرهما وقد تكون المقدمات كثيرة جداً مثل قولهم زوايا المثلث تساوى قائمتين فانها لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلا وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلا وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس

(٦) وقد يكتفى فى البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك فى الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم فهو ذو جهات) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لاعوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضاً صادقة فى أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة فلعلة ما تحرك) وهذا اثبات للنفس ، ويراد بعد ذلك اثبات انها جوهر لاعرض فيقال (وكل علة محركة للجسم لايخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة فى جهة واحدة مثل حركة الثقيل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، واما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بارادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حساً (وكل علة محركة للجسم بارادة واختيار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لافعل له

هذا ملخص ماذكره (اخوان الصفا) هنا وأنا أقول أيها الذكى هـذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فمعنى هذا كله أن الانسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة الهندسة فهى متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المئات ولكنها فى آخر أمرها ترجع إلى مايعرف فى أوائل العقول مثل ماتقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال فى الاستدلال على النفس ان الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلابد من سبب ، فان رأيناه تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناه علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذى حرك هذا الجسم ليس حسيا بل هو أمر معنوى وان رأيناه يتحرك إلى جهات مختلفات بارادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفسا وذلك كالحيوان والانسان ، ولكن هذه القوة التى سميناها نفسا ربما كانت عرضا أعنى شيأ كاللون والخفة والثقل وإذن

يكون تابعاً للجسم لأنه من أوصافه فنقول « وكل شيء يحرك الجسم بالارادة والاختيار لابد أن يكون جوهراً » أي انه ليس عرضا لأن العرض لافعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقل والخفة وهذا تأباه الفطر الانسانية

هذا كله من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق فى النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فاذا رأينا قوما يعيشون فى الأكواخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرث ولا القناطر ولا الجسور قلنا هكذا رأينا فى الحيوان أمثال الناس تربى ذريتها بغير وجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الانسانية هنا ناقصة لم تستحكم . واذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربى ولدها وهذا كله سميناه فطرة . فالطير تربى وتحضن بيضها بالفطرة كما ان الجراد ترك بيضه وفقص وحده بالفطرة مع نقصهم وآخرون عاشوا بالعلم فحرثوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراخها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة فى الطير والانسان المدنى أكمل من الفطرة فى الانسان الهمجى كما ان الفطرة فى الطير أكمل منها فى الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير الى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الانسان المتوحش وذى المدنية فى عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامى — فطرة الله التى فطر الناس عليها — فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التى لا ترى ذريتها أصلا . فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إيماء الى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقانعين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا

مسامرة فى علم الحكماء والفلاسفة

يحكى أن ملكا عظيما من ملوك الهند كان له وزير عالم حكيم وهو مطلع على جهل الملك وعبادة الأصنام وقد مكث ذلك الوزير دهرا طويلا يطلب الفرصة لخطابه الى أن اتفق ان قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغا من النظر فى أمر الرعية وكتب النوبة وتدبير السياسة هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية وننظر الى آثار المطر وكيفية هذه البلاد ومصالح العباد وكان من سنة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك الا فى كل سنة مرة ولا يظهر للرعية إلا يوما واحدا كل ذلك تعظيما لأمر الملك وسياسة لأمر الرعية فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين فبينماهما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدا نحوه حتى دنوا منه فاذا هما بمزبلة شبه رابية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة واذا فى أسفله ثقبة شبه المغارة واذا فى أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المزبلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفى رجليه تبان[1] وعلى رأسه شملة مثل ذلك واذا بحذائه امرأة تشبهه فى الخلقة والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة واذا بين يديهما سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة و بجنبه جرة مكسورة فيها دردى كالخل وقد مزجه بيسير من ماء والى جنبه سلة خوص فيها تاقات كرفس وكراث و بيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة و يشربانها واذا على فخذه قصبة قد مد عليها خيطا شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب فى يده ويغنى بأبيات غير موزونة خارجة عن الإيقاع واذا به يذكر فى تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وافراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جايفة منتنة الرائحة شبه الدف وهى تنقر اذا غنى هو وترقص وتثنى عليه واذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياه بتاقة من ذلك الكرفس

(١) التبان كرمان سروال صغير يستر العورة

والكراث وهى تثنى عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه شاهنشاه ملك الملوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويثنى عليها ويصفها بالحسن والجمال مايقصر وصف الحور العين فى جنب ذلك واذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ماهما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبدا ما بقى الدهر فلما أبصر الملك والوزير ماهما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن انى فى طول حياتى وعز سلطانى ونعيم ملكى وأيام شبابى ومجالس لهوى مع تمكنى من شهوتى بلغ منى الفرح واللذة والسرور ما يصفان هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالها ومع هذا كله أظن انه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة ان أرادا لأنه لا يعرض لهما شىء من العوائق التى تعترض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج فى اطراف المملكة واضطراب النواحى وشغب الجند وطلبهم الأرزاق ومثل النظر فى تظلم الرعية وهمج العامة والنظر فى محاسبة الكتاب وتولية العمال ومثل النظر فى التعازى والتهانى والنظر فى أمر الخاصة واصلاح أمر العامة ومثل النظر فى القصص والتوقيعات وحفظ الخزائن وتفقد الرسل الواردين من الأطرف واكرامهم والتجمل لهم ومثل النظر فى الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها وما شاكل هذه من الأشغال المنغصة للعيش المنقصة للذات الموردة للغموم والهموم والأحزان ثم قال الملك ولكنى أظن انه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعاينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا الى حالها لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة هما التى فيها لذة أبدا وصغر فى أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك تذكر ما قال له صاحبه لما شكا اليه اطلب الفرصة وضع الدواء على حيث الداء فان لكل مقام مقالا قال الوزير للملك أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا

وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقورون وجميع أحوالنا فى أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين عند أحوالنا فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه فقال له وهل تعلم فى الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطانا أعز من سلطاننا أو بلدا أكثر نعما من بلدنا أو مروة أحسن من مروتنا قال له الوزير لا قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت انه يصغر حالنا فى أعينهم ويستحقرون أمرنا قال قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أى ناس هم قال هم من قبائل شتى متفرقين فى المدن وفى الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأى واحد قال صف لى مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله فى خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس فى الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم فى الأنام كالملح فى الطعام بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات فى الأرض و بدعائهم يرفع الله من العباد القحط والغلا والوبا ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بنى آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينهم و بين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح الذى فى ملكوت السماء الى عالم الكون والفساد فى الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده الى جواره فى الجنة التى كان أبوهم آدم فيها فقال الملك وماذا يصفون من أحوال عالم الأرواح وملكوت السموات قال يقولون ان هنالك فضاء فسيحا وافلاكا دوارة وكواكب سيارة وأنوار ساطعة و بهجة ونسيما وروحًا وريحانا ونعيم الجنان والرضوان وحوار حور حسان وولدان وغلمان ومردان وطيب ونسيم لا يخالطها هجير الصيف وزمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ولا فيء الأجرام ولا مزاحمة فى المكان وملك دائم وعز سرمد وأهلها أحياء لا يموتون وشبان لا يهرمون وأصحاء لا يمرضون وأغنياء لا يفتقرون وجيران لا يتحاسدون وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم لا يكدره بؤس ولذاتهم لا يخالطها آلام وسرورهم لا يشوبه أحزان وفرحهم لا يداخله غموم ولا هموم ولا نوائب ولا حدثان ولا تغيير الزمان فقال الملك وماذا يقولون هل

الى هناك وصول قال الوزير لا يشكون ان من طلبها كما يجب وصل اليها قال الملك فكيف وجه الطلب وكيف المسلك وكيف الوصول فوصف له الوزير ما ذكرنا طرفا منه فى رسائلنا الناموسيات وما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام فى كتبها وما أشارت اليه الفلاسفة الحكماء فى مرموزاتها

﴿ فصل ﴾ فقال الملك للوزير مذ متى عرفت هذه القصة واعتقدت هذا الرأى وعلمت هذا المذهب فقال مذ زمان قال فما الذى منعك ان تذاكرنى بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير فى طول صحبتك معى قال الوزير انى لم أترك مذاكرة الملك بهذا الأمر الجليل لأنى بخلت عليك به أو لم أرك أهلا لذلك ولكنى تركته انتظارا وطلبا لفرصة توجب الخطاب وموضعه للكلام لأن النظر فى هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصور له بكنه المعرفة يحتاج الى قلب فارغ من أشغال الدنيا ونفس صافية من العوارض المكدرة والآراء الفاسدة والعادات الردية وهمة عالية فى طلب الأمور الشريفة والزهد فى الشهوات الجسمانية المذمومة وترك اللذات المحسوسة الجرمانية الفانية حتى يتصورها بحقها وصدقها كى لا يكون المقر بهذا الأمر مقلدا كالعوام الذين لا يعلمون من القول الا زورا ولا من العمل الا ظاهرا ولا من العلوم الا قشورا ولا من الدين الا تعصبا وان الملوك أكثر الناس أشغالا فى أمور الدنيا وأطولهم آمالا وأرغبهم فى الخلود فى الدنيا وأكثرهم تمنيا للبقاء فيها لشدة تمكنهم من التمتع بنعيمها واستغراقهم فى شهوات لذاتها ولا يصلح للمذاكرة بهذا العلم الا فتيان أذكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون من الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الردية أو مشايخ مهذبون فى العلوم الرياضية مجربون الأمور السياسية محبون للعلوم الالهية غير متعصبين فى المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة أو نفوس ملكية لها همم عالية فى طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد

فقال الملك ما يسعنا بعد هذا اليوم الا أن نجعل أكثر عنايتنا فى الكشف عن حقيقة هذا الأمر على صحة و بيان من غير تقليد ولا تكذيب فان بان انه حق طلبناه

حق الطلب وتركنا ما نحن فيه من عبادة الأصنام وأمور هذه الدنيا التي كلها الى زوال وفناء كما فنيت أعمار الذين كانوا من قبلنا فزال ملكهم ونعيمهم ثم قال له اخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بني آدم من أجناس الأمم من الترك والحبش والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزط والاكراد ويأجوج ومأجوج والسيسان وأمم آخر غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبراري نحو من سبعة عشر ألف مدينة يملكها نحو من ألف ملك هذا في الربع المسكون من الأرض على ان الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب ما هي في فسحة سعة الهواء الا كحلقة ملقاة في برية صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة أفترى أيها الملك ان الخالق تعالى ترك تلك الاماكن الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغة خالية لم يجعل فيها أهلا وسكانا وخلائق يليق بها وهكذا انه لم يترك البحار الإجاج الأمواه حتى خلق في قرارها الزاخرة أجناساً من الحيوانات وأنواعا من السموك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغا حتى خلق فيه أجناساً من الطيور تسبح كما يسبح السمك في الماء وكذلك هذه البراري اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك في الآجام والآكام ورؤس الجبال و بطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر في جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال انتهى

الارادة والاختيار

وللإنسان ميل طبيعي الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث ويسمى إرادة وهي عامة في الحيوان والانسان فيشتاق الحيوان الى ما يراه بحواسه وينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهي ستة أقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت إرادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه في الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الأفعال هنا جسمية بالأعضاء وعقلية بشعور الحواس وأما القوة المخيلة فيكون وصولها الى ما أرادته بمجرد التخيل أو بالاستعانة بالحواس على استحصار الصورة بالمشاهدة أو بأخذها من العقل كما في حال الرؤيا الصادقة .

وأما العقل فمتى اشتاق لشيء فانما يكون بأعمال عقلية لا غير مسخراً تلك القوى تحت أمره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكليات ذلك عمل عقلي فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

السعادة والاختيار

لا ريب ان الإرادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله في الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس اما الانسان فارادته التابعة لعقله أرقى من تلك الإرادة إذ هذه معرفة للعواقب لا كالإرادة في الحيوان إذ لا يعرف الا المشاهد أمامه الحاضر ولنسم إرادة الانسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة وينزل الى حضيض الهوان تارة أخرى ومتى تمكن الشوق في فؤاده حركه طبعا الى المشتهى ولا تظن ان العقل مهما وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكفي للحياة في هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والانسان بعقله مهما أدرك كل منهم النافع والضار لا يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب أو الهرب فلا بد اذن

فى كل أمة من انماء قوة الشوق عنـد التلاميذ الى المعالى وعلو الحياة ونظام الأمة والعلوم والمعارف ومكارم الأخلاق وبهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

حكمة تامة ونظام عجيب

ها أنت ذا علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولا ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فها هو ذا تركيب العين فى غاية من الاتقان والبهجة والنواميس الغريبة التى علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت أن العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والأرض وان كانت لا شعور لها بشىء وإنما هى آلة والنفس وقواها قد أدركت مالا نهاية له من الصور والمعقولات فكأن كلا منها عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمرى ان بينهما و بين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْض) إشارة الى النظام العمومى فى السموات والأرض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية إشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هى آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره إلا بأشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بها يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهى لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض فى الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكوّنت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لأن تركيب الجسم أتم من تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح فى تركيبه بل كالجسم فى نظامه فكلما كان الشىء أتم تركيبا وأجمل وضعاً كان أكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته أجمل من نظام السراج فى صنعته ولذلك كان نفعه أعم وأهم وما نسبة العين لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج فى العالم محسوس من الكواكب والمصابيح

فهو نظير الحواس عند الانسان ولكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس وجسم الانسان لما كان مداره على الروح كان نوره أقرب لها وهو نور العين

فقوله الله نور السموات والأرض إشارة لنظام العالم وقوله مثل نوره إشارة الى روح الانسان فى جسمه موازنا بينها و بين المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين أو الروح صحيحة فأيهما وزن بالآخر صح اعتباره فاذا وازنا بين روح الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه كالمصباح وكما ان للمصباح زينا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم المنبعث من القلب المبخر لخلاصته وهى الحرارة الغريزية

وكما أن السراج يضىء البيت فكذلك الروح تضىء الحواس كلها وكما أنه اذا أحيل بين السراج و بين ركن من أركان البيت أظلم فكذلك الروح متى أحيل بينها و بين حاسة من الحواس بحصول عائق فى أعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس تلك الحاسة وأظلمت وكما أن المصباح ينطفىء بأحد أمرين إما بوارد عليه من خارج و إما بانقطاع مادة إيقاده كالمواد الدهنية أو روح الكهرباء فهكذا الانسان يكون موته إما بقتل و إما بنفاد مادة الحياة وكما أن للسراج مادة يتقد فيها أيا كانت تلك المادة فهكذا الروح لها مادة وهى خلاصة الدم السارية فى جميع العروق واعلم أن هذه المواد المشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فالمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا أشرفت إلى أن صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها أضوء كالشموع التى نورها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية فى جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية صارت الروح أجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الإبداع فهذه هى سنة الكون وهى الترقى (ولنْ تجدَ لِسنةِ اللهِ تبديلاً ولنْ تجدَ لسنةِ الله تحويلا) (فسنة الله فى الكون الترقى دائماً)

فوازن بين هذه السلسلة الآخذة من الجماد الميت الى الروح العاقلة فى الانسان

و بين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الأمة تبدو كالطفل فتشب فتصير فى الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار فى زيادتهما ونقصهما فى السنة كلها وهكذا فى نفسهما فترى الشمس تأخذ فى الارتقاء حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كأحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة (ما ترَى فى خلقِ الرحمنِ مِن تفاوُتٍ وكلُّ شيء عندَهُ بمقدارٍ عالمُ الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعال)

ابداع العقل والمنطق والخط

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت أنها جمعت تفاصيل ما لدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل فى الكثيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فللمحسوس مراتب ثلاث صوره الخارجية ثم تلطفه وخروجه عن المادة بصورة فى النفس ثم صوره العقلية المنتزعة من صور الخيال فما أعجب هذه الحكم وما أبهجها فياليت شعرى كيف صار الجماد معقولا و بأى وسيلة أصبحت هذه الاجرام العظيمة كلها فى عالم النفس بصورها وأشكالها ثم كيف ترقت فصارت أموراً كلية فى العقل و بأى وسيلة ترجع الأمور المعقولة فتصير خيالا إما فى النوم ورؤية الكليات فى صورة جزئيات و إما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها الخيال ثم تبرز فى الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج بواسطتين إحداهما الأفعال بواسطة المواد والآلات وثانيتهما بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل بأشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات لاحصر لها مساوية لما يحدث فى الخارج من المركبات العنصرية فى أنواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة فى الخيال

ولكون الانسان مدنياً بالطبع احتاج الى النطق يبرز مافى ضميره الى ذهن غيره

فكان نسخة العالم كله احضرت أمامه ويختار منه ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكملة فانه لايمكنه أن يكلم من هو بعيد مكانا ولا من فى مستقبل الزمان ولا يعرف أخبار الماضين فلهذا كله اقتضت الحكمة الالهية أن يكون الانسان كاتباً لتبقى أفكاره بعده ويحيط بها علماً من أبعد مكان ويدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لأنها أثبت ولا يمكن انكارها فها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهى دالة على مافى العقل والخيال وهما دالان على ما فى الخارج إلا أن الصورة فى الكلام أضعف من صورة العقل والخيال لأن الكلام دال وذانك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف ولعمرى كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الأشياء بنفسها فى المخيلة .

اقرَأ ورَبُّكَ الأكرَمُ الذِى عَلم بِالْقَلَم عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَم يَعلَم)وأشار الى النطق بقوله(الرَّحمَن عَلَّم القُرآن خَلَقَ الانْسَانَ عَلَّمَهُ البيَان)والى الكتابة بقوله (ن والْقَلِمِ ومَا يَسْطُرُون) وقوله (اقْرأ بِاسم رَبِّكَ الذِى خَلَقَ خَلَقَ الانْسَان مِنْ عَلَق اقْرأ وَرَبُّكَ الأكْرَم الذِى عَلَّم بالقلم عَلَّم الانسانَ مَالَم يَعلم) . وهنا دور عجيب تنظر الحواس الأمور الخارجية فترصد فى دفتر الخيال ويسمى المصورة أيضاً ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الأول فانها دخلت أول مرة بصورة والآن بدال الصورة فيكون العلم أضعف من المشاهدة ولذلك كان أقل الناس علما من حرموا النظر فى الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار فى رحاه (أولَمْ يَنظُروا فى مَلَكوتِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَا خَلقَ اللهُ مِنْ شىء وأنْ عَسى أنْ يكون قد اقتربَ أجَلُهم) فوجود العلوم فى الكتب فى مرتبة سابعة فافهم

ضرب مثل لحال النفس مع الجسم

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر أمور رعاياه ويقوم بشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى أوامر الملك أو كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر فى أمور الناس ويسمع أمر الوزير وهو أعلى منه فهو بين أعلى يأمره وأسفل يأتمر بأمره فاذا أظهر استعداده لرتبة من هو أعلى رقاه الوزير وباشر الأمور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى فى تكميله بالأخلاق ويتكمل هو بالعلوم ليستعد للترقى الى ما هو أعلى فى عالم أجل من هذا

واذا تأملنا أحوال النفس مع الجسم نرى انها مع قواها كرب المنزل سكن هو وأسرته فيه فالنفس رب المنزل والقوى أهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل .

ومن جهة أخرى نجد أن هناك أعمالا داخلة فى الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب ان هذه القوى لها اعمال عجيبة داخل الجسم وخارجه وما أشبهه الا بصانع وتلامذته أو مهندس وعماله يعملون جميعا فى دار صناعة واحدة

ثم ان هذه الأعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة أعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما أوضحناه فى ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة نراها منبثة فى جميع الأعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فترى المعدة تجتذب الغذاء الى أسفل لا سيما الحلو وهكذا المرىء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فانها تمسك لكل عضو من أعضاء التغذية ما أودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا أعضاء الجسد كلها تمسك عليها ما يغذيها من الدم فالأول كالمعدة والأثنا عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها الى أن تدفعها الدافعة والثانى كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من

هذه الأعضاء اذا جاء اليها بتقدير الحكيم العليم ما يليق لها من الدم للتغذية أمسكه الله عليها حتى يتم بناؤها فلله الحكمة البالغة ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق أعضاء الحس والحركة وغيرها فى سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصناع منتشرة العمال لا يهدؤن ليلا ولا نهاراً فى أعمالهم .

ثم اننا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحاسة والمحركة تأمر الجسم فيأتمر وتنهاه فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر وهو (النفس) أمكننا تشبيهما بملك وأعوانه مسلط على مملكة الجسم وأى ملك فى العالم أقدر على رعيته من النفس للجسم وأى رعية أطوع لمالكها وأخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها و يضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم

ثم اذا راقبنا أعمالها نجدها كأنها حارث يحرث أرضا يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحارث والجسم كالأرض والأعمال كالثمر .

ولما كان نوع الأنسان غير منحصر فى عدد بل أفراد منتشرون وهم فى أعمالهم يتنافسون وفى أغراضهم يتنازعون أمكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هى المعالى فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر وأعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لا يظلمون أمكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة فى السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطى كلا من هذه الأنفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر .

و إذا لاحظنا أن نفس الجسد منظم فى غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ فى نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شبهناها بصبي يتعلم فى مكتبه . ثم نرتقى عن ذلك كله إلى أن النفس تنظر إلى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر رصد فيها الصادر والوارد والعالم بأجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون أجمعه (انَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقوم يعقلون) فانظر كيف

شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب

قوى الانسان كلها ترجع الى نفس واحدة

اعلم أن القوة الغاذية وممداتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتدبير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو مايليق به من مقاديره وأنواع غذائه — مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغاذية خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للمخيلة (المصورة) وهذه مقدمة للنفس الانسانية

فاذن هى نفس واحدة لها خدم يشتركون فى خدمتها بعضهم فوق بعض فأولها المخيلة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الى مشتهى أو نفور عنه فيكون للارادة ستة أنواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بخبر عالم من العوالم كما أوضحناه سابقاً فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب أو مكروه كالتمر والحنظل فتأمل كيف تتسلط القوة النزوعية على أعضاء الحركة فتحركها إما إلى طلب وإما إلى هرب وتستعين بالأعضاء الظاهرة فى السعى إلى ما أحبت وفى الهرب عما كرهت وان كان هناك مانع أثناء السعى أزلناه بأيدينا حتى نصل اليه فهذه كلها أعمال الأعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه فعل النفس بعد فعل الأعضاء فما أحسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس وهكذا تخيله تدعوا ارادة إما إلى طلب المتخيل أو الهرب منه وذلك يكون بأحد ثلاثة أمور

إما باستخدام الحس المشترك وإما باحضار الخيال تلك الصورة فلا عمل للجوارح من جهة المخيلة فاذا اشتاقت إلى إحضار صورة جميل نعرفه بعينه فتارة تستخدم

الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هى بنفسها . وأما الارادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحسن والقبيح وتستخدم جميع القوى فى درء ما كرهت وجلب ما أحبت

و بالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسية والقوى الارادية فهى نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولا تظن انها تتمثل بجزء وتحس بالحواس الخمس بجزء وتتغذى بجزء بل هى شيء واحد وله أحوال مختلفة كما أن الكاتب يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وانما العمل لواحد ولكثرة قواه كثرت أفعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكر ويفر وهو واحد فى ذاته

برهان ان النفس وقواها واحدة

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فانى لا أقنع إلا بالبراهين واما ضرب الأمثال فكيف يكفى من درس العلوم أقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين وربما أخال ان كثيرا لايفقهون جلها ولكن لابد من ذكر اجلى البراهين وأوضحها فعساك يطمئن به قلبك هاأنت ذا تعلم أن طبيعة الأجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فما لنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لا نهاية لها فاذا كانت أجساماً فكيف تسع مالا يتناهى من صور السموات والأرض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الأجسام فليست منها واذن فهى لا تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس أمر بسيط

وأيضاً نرى أن القطعة من الشمع مثلا لاتقبل صورة إلا بعد ذهاب أخرى وهل يمكن أن تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة فى آن واحد كلا فما بالنا نرى القوى التى فى الدماغ تقبل علماً وتقبل آخر فآخر إلى ما لانهاية له ومع ذلك لاتمحو الصورة

المتأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسما لمحى السابق بالعلم اللاحق بل العلوم كلما كثرت عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم ، أما الأجسام فلاتقبل إلاشكلا واحداً (انّ فِي ذَلِكَ لِعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَار) أليس ذلك لكون النفس أمراً غير جسم فلا ينقسم إذ لو انقسم لكان جسما وقد برهنا أنه ليس بجسم فكفاك هذا برهاناً على أن النفس أمر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها و إنما هي صفات لها كماقدمنا أيضاً أن المادة أمر مجهول ظهرت صفاته التي عشقتها النفس وسعت لها بقواها

المادة والنفس

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تعاشقاً فجعل المادة بظواهرها مكملة للصورة الانسانية) إنّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون) .

المادة والنفس والعقل والملائكة

اختلفت الأفكار وتباينت الآراء فى الموجودات تبعاً لاختلاف الفطر وفوق كل ذى علم عليم ، فقال قوم ليس فى الوجود إلا الله والمادة ، فالمادة هى المصنوع والله عز وجل هو الصانع وأنكروا النفوس والأرواح وقالوا ليس هناك شىء سوى المادة وقالوا أن ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهى قوة جسمية وجميع ما نراه من أفعال الجماد فى الطب والكهرباء فمنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسبه إلى الطبيعة فاذا سئل عنها عجز عن تفسيره، ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا إننا نشاهد المادة أمامناميتة مطلقة وجميع أعراضها لاتعطيها قوة بل هى قبلها لاحراك لها فالمادة وصفاتها ميتة منفعلة فكيف تكون فاعلة فى نفسها هذا مما لايكون

ثم أننا نشاهد بعض الأجسام حلها أمر غريب عنها فحركها وأعطاها الحس

فسميناه نفساً وهذا لكافة الحيوان بل والنبات فكل ما ينمو سمينا ما فيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سمينا الأمر الذى حل فيه نفساً حيوانية إذ هذه الأفعال. والقدرة والادراك ليست من صفات المادة وإنما هى فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً أمر ثالث غير المادة والخالق

ثم إننا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف أفكارهم وتتفاضل قرائحهم بأمور أخرى فقلنا أن هذا التفاضل جاء لها بأمر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها . ألا ترى أن النفوس مدارها على الشهوة والغضب فى الحيوان والانسان ولكن هذا الأمر الغريب يزجرها عنها ويأمرها بالاعتدال فسمينا الأمر الوارد على النفس عقلا فههنا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة فى الموصوف فبهذا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا اننا نرى المادة فى السموات والأرض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا أنها من نفسها لاحراك لها فوجب أن يكون لها محرك يقرب منها وبينه وبينها مناسبة لأنا علمنا أن هذا الحكيم الذى دبر الكون ربط الأسباب والمسببات فجعل كل شىء يناط بما هو أقرب إليه فى الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لابد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت إشارة العقل الذى هو فوقها كما أن للانسان عقلا مسلطا على نفسه القاهرة لجسمه إذ النفس لاتستقل بنفسها فى تدبير الأجسام بل هى تستمد من العقل فى كل آن فقاس هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا أن هناك نفساً مدبرة تتحرك بها العوالم تتصرر الجزئيات وتتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسميه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكماء (وهم الملائكة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) الأوامر ويتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى ما يذكره هؤلاء. وقالوا أن أول ما خلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضاناً بلا زمان ولا مكان إذ كان الله ولم يكن

زمان ولا مكان لما تعلم أنه قبل خلق العقل لم يكن إلا الله فأين الزمان وأين المكان فان المكان يستلزم المادة وهى لم تخلق والزمان لابد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لامطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لاتدرك بالحواس كالاجسام الروحانية ثم أعطاها الصورة بأن مدها طولا وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية ألطف من كل ما يرى ثم أفاض الله عليها النفس من العقل فدارت المادة دورات سريعة على مقتضى النواميس التى وضعها مدبرها وألقاها فى اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس الكلية (الملك) المسلط على المادة فصارت كرات كثيرة دائرات وكل كرة خلقت فيها نفوس لايعلمها إلا الله وأودعت فيها نفوس كلية تارة وجزئية أخرى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَر) ومن هذه النفوس الجزئية الأنفس الحيوانية والنباتية والانسانية التى فاض عليها من اللوح المحفوظ نور ألهمها تقواها ومن نفوسها فيض ألهمها فجورها . هذا زبدة ما قاله هؤلاء الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة

وأنت تعلم أيها الأخ المطلع على كتابى هذا أننى لاأقول هذا من باب أنه هو الطريقة التى خلق عليها العالم قطعاً لا وإنما هى التى أخذها الناس بفراساتهم من ظواهر السكون مع تأملهم فى الشرائع السماوية فيجعل كأنه فرض تحل به المسألة حلا وقتياً وإلا فمبدأ خلق العالم أمر مجهول بالكلية وإنما هذا القول أقرب الأقوال إلى الحقيقة بحسب ما بلغه علمنا إذ من الناس من يقول العالم مركب من أجزاء لاتتجزأ والآخر يزيد فى الطين بلة ويقول مركب من أجزاء تتجزأ ولا تخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون أفرطوا فقالوا هذه العناصر كلها أصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالا فقالوا بقدم الافلاك وزاد آخرون جهلا فقالوا بقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لادليل عليه بل أدحضه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التى قوضت تلك الترهات ومن هذا نفهم الحكمة المشهورة

أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى

وجلالى ما خلقت خلقاً هو أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب

وما نتيجة المادة إلا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطاً بها . فتأمل كيف ترقت المادة بظهور أثر النفس فيها من نبات إلى حيوان إلى انسان وإن إلى ربك المنتهى فاذا تكمل الانسان بالعقل يرجع إلى الملأ الأعلى فالمبدأ هناك وهو العقل فأصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية ابداع النوع الانسانى استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى إلى مالا يتناهى ومن هذا نفهم كيف احتاج الكون إلى ملائكة فانك علمت أن المادة لاحراك لها . فلا بد من ملائكة فيها كلها وإلا فما الذى حرك هذه الكواكب ولابد من ملائكة أيضاً فوقهم ليعطوهم الأوامر بالنظام وإلا فما هذا الحساب البديع لايتغير على مدى الزمان ولعلك تقول أن الله هو الذى أدارها فنقول لاينكر جاهل فضلا عن عالم ذلك ، أليست الملائكة من أفعال الله واذا كانت نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه الأجسام أفلا يعد الله محركا لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج إلى ما احتاج إليه الجزء الصغير من نفس وعقل ويكون الله المحرك بالضرورة وهذا القول مطابق لما ورد فى الشرائع الالهية من ذكر الملائكة وإنهم منوط بهم أمر العالم كله لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان .

واعلم أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فان سألت عنهم فاعرف عقلك ونفسك أولا وتأمل أنك إبداع غريب يغمض عينيه فيرى ملكا عظيما وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فان فهمت هذا فارجع إلى الملائكة ويا ليت شعرى إذا عجزنا عن معرفة نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم الملائكة وكيف نعرف مدبر الكون كله أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رب العالمين .

(لطيفه)

كل مصنوع للانسان محتاج الى مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا فى زمان ومكان فالمادة الحبر والورق اوالصورة هى الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفات فهذه ستة أشياء ثم المصنوعات الالهية كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لأربعة المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة ولا آلة كالجنين فى الرحم فانك لا ترى فيه آلة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولاترى آلة رسم ولا حركة تظهر (إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لِقوم يتفكرون)

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومى المكون من افلاك دائرة سائرة تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا آلة إذ الزمان لا بد فيه من حركة فلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا الجسم وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمرى لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا منه انه لا أول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه إذ الزمان بحركة الافلاك فاذا لم يكن فلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة أصلا

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا آلة ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما الاّ يحتاج لموجد أصلا وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وهم الملائكة أوسع مادة وصورة وهو الجسم أو معهما ومع الزمان والمكان فهى أنواع المولدات أو مع هذه الأربعة والحركة والآلة وهى الصناعات الانسانية

آراء الناس فى النفس

آراء العقلاء ونتائج ابحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر فى عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف فى كل مسئلة وأعظمها اختلاف وأكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليها وقد بلغت الأقوال فيها قريباً من المائه فمن قائل انهـا الهواء إذ بانقطاعه تنقطع الحياة ومن قائل انها الدم إذ بوقوف حركته تقف الحياة وهكذا من الأقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة وأهم الأقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد إذ كل ما عندنا من القوى النفسية ناتجة من هذا الجسم وعنه تفرعت ألا ترى انه اذا تغير المزاج أو مرض الجسم أو انقطعت عنه مادة الغذاء أو جرح أو انكسر عضو من اعضائه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ان الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلا صغيراً

وقال قوم صد الأولين ان النفس هى قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك فى الرعية ألا ترى ان الجسم ان هو الا جماد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال الغضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويتبلبل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف أثرت المعارف والأخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت أصبح ولا حراك له بل يكون جيفة لا قيمة لهـا ويخرجها أعز أصحابه وخلانه ولو كانت هى النفس لأبقوها فى أماكنهم فقد علموا ان النفس هى التى خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فأخرجوها ونظر آخرون فى قول سابقيهم فقالوا اننا نرى ان كلا من الروح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بمـا لها من السلطان على الجسم تؤثر فيه

صلاحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكذا الجسم والذى نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب فى النبات والثمر فى الشجر والفرخ فى البيضة والجنين فى الرحم، فلا تزال تنمو فيه الى أجل مسمى

وكما أن المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هى تلك الروح وكما أن البيضة تضعف إذا كبر الفرخ وقوى. والنبات يصغر وينحنى إذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ فى الضعف إذا قويت الروح وأرادت الخروج وكما أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكما أن الفرخ والنبات والجنين فى بطن الأم تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الأم فكذلك الروح بعد الموت تكسب الصفات التى تناسب ما كانت تكابده مدة الحياة وكما أن الحب بعد خلاصه من التبن قد يكون غذاء للنوع الأرقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الأدنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون أنواعا كثيرة فهكذا الأرواح تكون درجات متفاوتة على حسب أنواع التربية التى ترباها الانسان فى هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فمنهم جلساء الملائكة ومنهم من هو أدنى من ذلك إلى أن يبلغ درجة سجين وكما أن الحب إذا خلص من التبن والثمر من الشجر وهو لم يبلغ أشده يكون ضعيف الفائدة أو عديمها فكذلك النفس إذا خرجت من الدنيا وهى لم يكمل تهذيبها تكون فى عالم الآخرة أبعد عن اللذات ناقصة عرضة للآلام والذم والسخط ألا ترى أن لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومتان ولكن ما غايته مع أنه أجمع الحكماء على أنه ليس فى الكون شىء بلا ثمرة فلم يبقى الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الأخير هو الموافق لسنن الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى إنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرٌ فى الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجَبَ الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصفَرّاً ثم يكون حُطاماً وفى الآخرةِ

عذابٌ شديدٌ ومَغفرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور سابقوا الى مغفرةٍ من ربكم وجنة عرضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ أُعدَّت للذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاء واللهُ ذو الفضل العظيم)

فتأمل كيف أشار القرآن الى تنوع الانسان كتنوع النبات فالحق والحق أقول إن القرآن رمز فى غضون أمثاله الى علوم الحكمة ووكلها إلى العقول فها أنت ذا علمت أن القول الأخير من كلام الحكماء هو الأوفق لنواميس الكون وألصق بالبراهين العقلية و إن أحسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره فى القرآن مثالا أبرزته تلك التشبيهات التى رأيتها وغيرها وقال فى آية أخرى (اللهُ الذى خلقكم من ضَعْفٍ ثم جعل من بعدِ ضعفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال فى آية أخرى (إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه مِنَ السماء فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى اذا أخذتِ الأرضُ زُخرُفَها وازينَتْ وظنّ أهلُها أنهم قادِرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الأرضية وماقبله تصريح بحال الشخص الواحد وما قبله ضرب مثل لحاليه فضرب المثل فى حال الشخص الواحد والأمم الانسانية بالنبات لما علمت من الحكم المندرجة ضمنه ولم يقتصر جل جلاله على ضرب هذا المثل وعظا بل جعله فى موضع آخر برهاناً مستدلا بعالم النبات وغيره على البعث رمزاً للبرهان الأخير الذى هو نتيجة إبحاث الحكماء فقال . (نحن خلقناكم فلولا تُصدقون أفرأيتم ما تُمنون أأنتم تخلقونه الآيات وقوله أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فاستدل أولا بالنطفة فى الرحم و بالنبات وخروج الثمر منه و بالماء أن لها غاية وهكذا النار وما يستفاد منها فكأنه يقول هل خلق الجنين فى البطن إلا للترقى الى عالم أرقى وهى الحياة ويكون ترقيه على حسب المزاج الذى كان عليه فى بطن أمه أليس النبات جعل لغاية وهو الثمر ألم يكن نزول الماء لغاية أليست النار جعلت لمنافع الناس والاعتبار مع

أنها فى الأحجار والأشجار وكل شىء اتكون هذه كلها وهى الأجنة فى البطون والماء فى السحاب والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم أنتم بلا ثمرة إلا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع أنكم أنتم أفضل الجميع بل هذه ما خلقت إلا لكم وإذا كان الأنقص المخلوق له غاية أفلا تكونون أنتم أولى بأن تكون لكم (ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) على أن الحكمة العامة والناموس الذى وصفناه فى الكون يقتضى الترقى أفيصل العالم إلى النقطة العليا وهو الانسان ويقف الترقى (فلاَ أقسمُ بمواقعِ النُّجُومَ وانَّهُ لَقسَمٌ لوْ تعلَمُونَ عظيم انَّهُ لقُرآنٌ كريمٌ فى كتابٍ مكنُون لا يَمسهُ إلا المطهرُونَ تنْزيلٌ منْ رَب العالمين)

أقسم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها فى مدارتها على عظم أمر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر إلى أنها أيضا لها فوائد وهى تلك المذكورات من لمولدات إذ كل ماذكر قبلها ناتج عن دورانها فى مواقعها وهذا كله فى ضمن عجائب القرآن التى لا تعرف إلا بدقة النظر والبحث فى علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع

ثم ذكر بعدها أن الروح خفية لا تظهر عند خروجها وأفاد أنه أقرب الى الميت من الحاضرين والناس لا يبصرون، ثم ذكر انها ذات درجات عليا وسفلى ووسطى على حسب ما يكون الجنين فى الرحم ويخرج إلى الدنيا والحب والثمر فتأمل كيف كانت أدلة القرآن هى نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك التمثيلات على أنها مواعظ وتارة أخرى على أنها براهين قاطعة (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ومما قاله فى الوعظ (واضرب لهم مثلَ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرضِ فأصبح هشيما تذرُوه الرياحُ وكانَ اللهُ على كل شىء مقتدرا) ومما قاله فى الاستدلال فى سورة يس (قل يحييها الذى أنشأها أوّلَ مرّةٍ «الى قوله» فاذا أنتم منه توقدون) فتأمل كيف مثل بالثمر والنار إشارة إلى أن الروح تبقى بعد الموت كبقاء النار بعد الشجر وانها خلاصته والقصد الاشارة الى البقاء بعد الموت ثم يلبسها جلابيب الأبدان عند القيامه ويبعثها

عموم الوحدة فى الموجودات

إذا تأملت جميع نظامات هذا الكون رأيت الوحدة سارية فيها على غاية من الأحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكباً فى نظام الكواكب إلا وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط السوى (إنّ ربى على صِراطٍ مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة فى الاتجاه والضوء وأن مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كله فى وحدة تجمعه وهى النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفوس أنواع النبات والشجر وإن اختلفت فوجهتها واحدة وهى النمو والتوالد والسعى فى المصالح على حسب مبلغ ما أعطيت من القوى حتى إنك ترى العنب يلف خيوطه على عرشه الذى ينصبه الناس له كأنه يعلم أن ذلك هو الذى يقيه من التشتت وترى أوراق كل نبات تحذو نهجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس إنما وضعت فى هذه الأجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زمانا ما ثم تنهدم فظهر من هذا أن كل شىء اعتنى به أشد اعتناء فان له نفساً تجمعه وتدبره لتضم شعثه ويبقى إلى أجل مسمى واذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس فبالأولى يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تدبرها كما تدبر أجسام الحيوانات وهى المسماة ملائكة فان قال الطبيعى هى الجاذبية فنقول له صدقت ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب

فياليت شعرى هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت ما يترتب عليه من الملوك والدول وأنواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة مالايتناهى من النجوم عدا فلا تتلاقى يوماً ما

واعمرى أن مثل علماء الفلك فى هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما أن الطبيب

لابحث له إلا عن الروح الحيوانية التى منشؤها الدم ولا خبرة له فى الروح العليا التى تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الأمم فهكذا عالم الفلك لا يعرف إلا ظواهر سير الأجرام الفلكية فيقول إن هنا جذباً بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدر أن الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم ويالعجب لهذه الحركة الغريبة التى دبرت أمر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط ببعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء إن هذه الحركات فى الافلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة بالملائكة واذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة كذلك لما نشاهده أنه كله يتعاون كتعاون الجسد وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق أن الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كأنها أعضاء جسد واحد فها هو ذا القمر يستمد من الشمس ويضىء الهواء ويمتزج نوره بأنواع المولدات وكل كوكب فله فى الأرض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها إذن فلابد أن يكون لهذا العالم كله مدبر واحد ترتبط به جميع هذه المدبرات وتستمد منه وهو مدبر هذا الكون وحده

واعلم أننا ذكرنا فوائد فى ميزان الجوهر تناسب هذا المقام ونقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامرون الفرنساوى فى الجاذبية وقوله أنه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فيالله الوحدة وفعلها فأشرف شىء فى هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكلما كان الشىء اتم وحدة وأجمل صنعاً كان أتم تركيباً وأعلى شأناً وإلى هنا نشرع فى ذكر نظام الأمم ولا سيما أمة الاسلام مطابقين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب أن تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعى فنقول .

الباب الثامن

وفيه أربعة عشر موضوعا

(١) الوحدة فى الأمم ترجع الى قوتى العلم والعمل

لا يشك من طالع أساليب حكم الخليقة وما أوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحتها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كأنهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد أو عرقان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتهما وضعفهما يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة رسول الله عزوجل فى ترتيبها فى مراتبها ثم نلحقها بقوة العمل وندعهما يتلاقيان فى طرفهما عند نتيجتهما وهى الحياة ونطبقهما على أمة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان أردت البيان فهاك نواميس الوجود ترى ان أصغر الديدان أعطى قوة الحس لا غير فيمتص مما حوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحقيرة فيسعى بالانقباض والانبساط كتلك الديدان المولدة فى بطون الحيوانات الكبيرة والخل واللبن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن ذلك ديدان الزرع فقد أعطى مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب ومالا يناسب فيأخذ ويذر ثم ما هو أرقى من ذلك وهى حيوانات الظلمة فى قاع البحار أعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيها التى تتربى فيها ويترقى عن ذلك حيوان أعطى قوة السمع مما يتربى فى الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما أعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيوان فى البر والبحر فى أنواع الذكاء وإبداء الغريب الى أن يربى أولاده كالحيوانات التى تبيض وفوقها التى تلد وأعلى منها ما تفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منه ما تقلده والانسان أرقى من ذلك كله فيأخذ فى العلوم والتجارب ، ويصل بعضه بموهبة من مدبر الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من أدنى حيوان الى أشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب العلم ما يوازيها من العمل أوالاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى

اما الى هرب واما الى طلب على مقتضى ما يأمر به العلم اذ المعلوم اما مهروب عنه أو مرغوب فيه فلهذا كانت تلك الأعضاء والقوى صالحة للطلب تارة والهرب أخرى مختلفة باختلاف الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ما ينقبض وينبسط ومنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على أربع ومنهم من يمشى على أكثر من ذلك الى عشرة وعشرين وهكذا ومنها ما يعلو عن ذلك فيطير فى الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) وقد اجتمع فى الانسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الآخر فهاهى ذه الدول أمامنا اتخذت العلم رائداً للقوة معيناً لها والعمل كذلك قوة للعلم معينا له فهما قوتان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ونتيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فهاهى ذه قوة العلم أصبحت تدل على المكتشفات والمخترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها وأحوالها فتأخذ قوة العمل فى اعداد ما يلزم للمضارعة تارة والمقارعة والمصارعة أخرى واعداد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فمهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعى على البطن فانها ترجع الى القدرة لا غير ومهما اختلفت أنواع الحس من لمس وذوق وشم وسمع و بصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامتثال أمر وميل للتقليد وارتقاء فى العقليات فانه يرجع الى العلم

ولعمرك ما موقع الأمم المنحطة من الأمم الراقية إلا كموقع تلك الديدان فى أجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تمسى وتصبح ولاحراك لها إلاالانقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلا للانسان بهذه الحيوانات وسلسلتها فى الترقى علماً وقوة وكأنه يقول أنا رقيت هذه الحيوانات فى قوتها فما لهذه الأمم أصبحت منشقة العصا ولو أنهم سمعوا وأبصروا لوقفوا على أحوال الأمم الراقية التى ابتلعتهم فى بطونها فهم يقولون فى الحياة قبل الممات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير

وكل صنف أعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فأعطيتك عقلا يمكنك أن تصل الى ذروة المجد بل تطير فى عالم المدنية طيرانا أكثر من الباشق فى جو السماء . فهذه

الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فما لك تقلد الديدان وتبقى فى حضيض الجهل والهوان فسحقا لأصحاب السعير وما الآخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى (وَمَنْ كَانَ فِي هذهِ أَعْمَى فَهوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا) والأعمى فى الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الأمة بين الأمم والأمن على الأرواح والأنفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والهجوم بجميع آلاتها الحديثه وهكذا كل مابه التجارة والزراعة والصناعة هى قوة العمل وما به إحياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الأولى هى ما به قوة العلم و بينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

(٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا

وكيف تقارن بجسم الانسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالأجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الأنواع ولم تقتصر الوحدة على سريانها فى المحسوسات بل سرت فى المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الأعداد من حيث الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فأغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك إذ لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادىء جميع العلوم فتنتبه العقول الى مدبر الكون فألزمت الأمم القدماء والمحدثين بالنظر فى جميع العلوم إذ هو فوق النظر فى هذه الأجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموسا نقيس عليه وحدة الأمة فنقول قدمنا فى فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لأعلى لكل من الأعضاء مرتبة لا يتعداها ولا ريب عند الحكماء ان الأمة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة فى الجسم

والكون فكذلك الأمة لكل فرد من أفرادها درجة فى بناء هيكلها قال تعالى (ما خَلقكم ولا بعثكمْ إلا كنفسٍ واحدَة) ولنبين معنى هذه الآية فنقول انها تشتمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الأولى فاعلم اننا لا نفهمها إلا اذا تأملنا تشريح الجسم فيما ذكرنا و بنينا عليه نظام الأمة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الأمة يعين بعضهم بعضاً (وتعاونُوا عَلَى البرِّ والتَّقوَى) وكما ان الأعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها ولا يصلح إلا لها فكذلك أفراد الأمة لكل واحد منهم استعداد لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه إلا بقدرة وعلم جديدين فالدماغ مسكن الإدراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم فى العروق وجريانه وطبخ الطعام كالمعدة وغير ذلك والقلب لا يليق ان يكون بدل الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملك وهو الدماغ ثم الكبد وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يقومان مقام القلب فيما اختص به ولا ينزلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى أقل من ذلك من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الأوردة والأمعاء والمعدة والحلقوم والأسنان والصفراء والكليتين والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها النزول الى درجة الأيدى والأنثيين وآلة التناسل فتعمل عملها وهكذا اليدان والرجلان وآلتا التناسل هى أسفل أعضاء الجسم منزلة وأدناها عملا فهى خادمة لا مخدومة و بالجملة فهذه الأعضاء ثلاثة أقسام منها رئيس ليس غير وهى الرأس ومنها مرءوس ليس له رآسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما هو رئيس ومرؤوس باعتبارين وهو ما يلى ذلك كالقلب والكبد والكلية والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤوسة لما قبلها

فهكذا يكون افراد الأمة فالحاكم الأكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح إلا للأمور العامة ولا يتنزل للجزئيات كالدماغ

والقلب بمنزلة الوزير يجب أن يكون فى العلوم والمعارف والاستعداد والجاه أقل من الملك وأكثر ممن هو تحته فان كان أعلى مما هو فيه أو أدنى فهناك الطامة والفساد

ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة الكبد والرئة والأوردة والشرايين التى تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز أن يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم أسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق وكالحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهؤلاء لا يليق أن يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولا كمن هم تحتهم من أمراء الجهات إدراكا وفكراً وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايخ البلدان الكبيرة والصغيرة فهم كالمعدة والأمعاء والقواطع والأسنان درجات بعضها فوق بعض لا يجوز أن يكون أحدهم مساويا لمن فوقه استعداداً ولا نازلا لدرجة من تحته فكراً و إدراكا ويسرى ذلك من الحاكم إلى الكاتب إلى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون فى مقابلة الرئيس الأكبر للأمة وهو الذى يخدم ولايخدم ومتى كانت الأمم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام فى السموات والأرض وفى جسم الانسان الذى خلق فى أحسن تقويم وإذن تكون الأمة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هى المدينة الفاضلة

(٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم

من تأمل فى الأمم وجدها تشترك فى أمور تعمها ولولاها ماتعاملوا ولا تجاوروا وأهمها الاحساس بان لهم قوة يخضعون لها مسيطرة عليهم وما فى قلوبهم من رحمة على ابناء جنسهم والعقل الغريزى المنبث فى جميعهم وإن تنوعت الديانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الاحساس والفكر الشامل الغريزى ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلوا المنافع والتجارات والصنائع والعلوم وكل يميل إلى صناعة أو حرفة أو بلد أو آو أمة أو دين فاختلفت الفطر ولأجلها تنوعت الصنائع والأعمال

واحتاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الأمم فى الاحساس الفكرى والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب أن تشترك كل أمة فى أمور تخصها لايشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وأرفع أمة هى التى يسرى فى جميع أفرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وأنه مقدس واحد لاشريك له ليس له أول ولا آخر قديم باق ليس كمثله شيء تنزهت ذاته عن الأجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لا يصدر شيء إلا عن إرادته يعلم ما فوق السموات وما فى طياتها وما فى الجو والثرى وما تحته . وبالجملة إن كمالاته لا نهاية لها وهو منزه عن جميع النقائص وأن له ملائكة عظاماً وأنبياء ورسلا قد اتبعوهم ودانوا إلى آخرهم الذى أرسل إليهم كمن اتبعوا إبراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وأن يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الأنبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم وإلا هلكوا وضلوا وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقودون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونمو أجسادهم وقوة أرواحهم فانهم يتلقون الوحى عن مبدع الكون لما أفاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة المخيلة والعاقلة وهم أذكياء أعفاء شجعان ذاكرون لما علموه نبهاء أمناء فطناء رحماء بالخلق قويوا البنية ليس فى أجسامهم ما ينفر طبعاً صادقون يبلغون ما أمروا به للخلق قائمون بسياستهم فى الدين والدنيا

(٤) ما به نظام الدنيا والدين

اعلم ان الدنيا والدين لا يصلحان الا بوجود أربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والأخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لا يصلح الجسد الا بالرأس فهكذا لا تنفع صنائع الأمة وزراعاتها وتجاراتها إلا إذا قامت سياستها على الوجه الأتم

بل السياسة فى الأمة كالروح فى الجسم فكما تكون الامة جسداً واحدا له أعضاء متعاونة فهكذا يجب أن يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهى القوة السياسة وهى إما ان تخص بواطن العامة والقائمون بها هم الوعاظ أو الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون واما أن تحكم على ظواهر الاجسام لا غير وهى سياسة الملوك والحكام واما أن تعم الجميع ظاهراً وباطنا خاصة وعامة وهى سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فاذا نقلوا إلى جوار ربهم جعل الله تلك السياسات موزعة فى طوائف من أممهم إذا أراد بقاءها فاذا ضعفوا عن حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك الأمة الضالة وأخذها فى الدمار والشقاء أما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من عقلائها وعلمائها بعمل فهؤلاء للوعظ وهؤلاء للحكم بالعدل وهؤلاء للتبحر فى العلوم ويتقاسم العامة أعمال الصناعات والزراعات ويتتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم مع ملاحظة ما هم عليه والوسط الذى هم فيه إذ علوم الأنبياء تأتى للناس عامة لاسيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج إلى نبى تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقول وأنزل الديانات وكما أن لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة عقلاء ولها نبى يجمع آراءهم

واعلم أن الناس مدنيون بالطبع وذلك ان كل فرد لايمكنه أن يقوم بجميع لوازمه فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والفطرة فيحتاج كل للآخر ولابد بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ما عند الخباز والخباز ما عند النجار فيتبادلان ثم لابد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاضياً حكماً حاكماً على القيم لاحظ لأحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلا على النقص والزيادة وقد اصطلحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لا بد مع ذلك من طمع أحد المتبدلين فى الآخر فلا بد أذن من حاكم ناطق إذا عجز الحاكم الصامت من النقدين ثم بعد ذلك لا بد له من ناموس يحكم به وإلا لأصبحت آراؤه وأوهامه وأغراضه لها

السلطان على الأمة وذلك القانون يقوم به العقلاء ولكن هؤلاء يختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه فى وقتين مختلفين وإذن لا بد من شرع أتى به النبى ليقوم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوى نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع إلا كالدواء فأى أمة اتبعت عقولها وتركت أنبياءها مرضت مدنيتها وان علطت وعظمت كما نرى من قوم يكثرون من الاغذية ولا يتعاطون الأدوية فأولئك تغلظ أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون وهذا حال أمم أوروبا قد ترقوا فى كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها إلا بين الأفراد بعضهم مع بعض فأصبحت معاملات الأفراد يغلب عليها الصدق والأمانة أما معاملات الأمم فانها تابعة للحظوظ ثم انهم أباحوا للآحاد بأشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدنيتهم زاهية زاهرة كالجسم العظيم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يعثون فى الأرض فساداً ويريدون أن يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالاشتراكيين والنيهلست وهناك كثير من الأقوام أصبحوا فى أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الأفراد إذ العقل الانسانى لا يمكنه الإحاطة بجميع المصالح والمضار أما الناموس الالهى فينهى عن الربا مثلا لعلمه أنه يجعل الناس فى الأمة قسمين عبيداً وسادة لا غير وهذا هو الخلل العظيم وها هو حاصل فى أوروبا الآن ونرى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل فى شؤونهم العمومية . وقلدوا فى أمورهم الخصوصية وراعوا بعض الدين فانسلخوا من المدنية وانحطت قواهم إذ لم يرعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم وهما قوة العقل والدين وماهم فى شؤونهم إلا كمثل من استعمل الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الأدوية ويترك الأغذية وهذا بلا ريب أحط من الأول مدنية وأقل منه شرفا فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتلخص ان أهل المدنية الفاضلة هم المتبعون لنبى المستنبطون المؤمنون بالله و بشريعته بعقولهم وان اختلفوا فيما بينهم فى الفروع كما تختلف أعضاء الجسد فى اشكالها من طول

وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وانهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أوالدين و تركوا العقل بالكلية خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين إلا مع تعقله ومتى عقل الدين كان أدل على حفظ نظام الدنيا والآخرة معا وقد علمت حال أمم الشرق والغرب هذا حال الأمم فى هذه الحياة الدنيا،

(٥) مآل اهل المدنية الفاضلة بعد الموت

إعلم أن هذه الدنيا عنوان الآخرة ولايجوز أن يعبر إلى الآخرة إلا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت أن الآخرة تأتى بلا دنيا فهى جاهلة لم تدر شيئاً . ألم تر كيف فرضت فرائض المواريث وأحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقة ودونت أحكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة ، أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا . ولعمرى إذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين المواريث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقة والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويعبر عليها بالعقول والأفكار إلى الآخرة بالأعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك لم يفقه فى الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق ثم إن أهل الكمال من الأمم كلها تراهم يميلون إلى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى (ولْتكنْ منكمْ أمةٌ يدْعُونَ إلى الْخيرِ ويأْمُرُونَ بالمعرُوفِ ويَنهوْنَ عنِ المُنكرِ وَأُولئكَ هُمُ المُفْلحونَ) ، (ومَا كانَ المؤْمنُون لِينفرُوا كافَّةً فلوْلا نَفر منْ كلِّ فرْقةٍ منهمْ طائِفةٌ ليتفقَّهُوا فى الدِّين وليُنذرُوا قومهُم إذا رَجعُوا إليهمْ لَعلَّهُمْ يحذَرُون)

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعى فى الرسالة وأصحاب الأصول عامة ان الصناعات واجبة وجوبا كفائيا ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص فليكن يجب عليه أن يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كما هو ناموس الكون.

ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست فى غيره وهذا هو الذى ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويجب على غيره من الأمة أن يشجعه عليه من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسنعقد لهذا بابا خاصاً عند التكلم على مدنية الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وأمرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدنية بالقسط فى هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الآخرة

وما الآخرة إلا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها (ربَّنا آتنا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرةِ حسنة وقِنا عذابَ النار) ولا يكون ذلك إلا بأن يكسب كل امرىء اعتقاده الصحيح الذى ذكرناه آنفا بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص ونظام أمته ثم يكسب أخلاقا حسنة ويلتذ بها فى حياته الدنيا . وكلما طال أمده فى الدنيا حسنت فى عينه صناعة من علم وعمل وإرشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله وكل من أفراد الأمة يفرح بنظيره من سابقيه ومعاصريه فترى العالم يفرح بمن على شاكلته من أى بلد كانوا وعلى أى مذهب من مذاهب الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون فى أوقات معينة والمحافظة على الاجتماعات فى الصلوات والجمع والأعياد والحج ومواساة الفقراء بالأموال وهكذا مما أوصت عليه الشرائع وهذا حقيقة لاتتم الدنيا إلا به فاذا ذهب الناس الى ربهم كانوا فرحين بنفوسهم ونفوس أشكالهم فى جنة عدن فوق فرحهم فى الدنيا بمراتب وإلى ذاك تشير شريعتنا المطهرة ولذلك ترى المصلى يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة فى خلقه لعموم الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة تارة والشدة التابعة للملك تارة أخرى ثم يقول ها نحن أولاء جميعاً نستعين بك إذ الأمة عبارة عن أشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الأعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لايقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لايقوم بها كلها كما أن العضو الواحد من الجسد لايعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لايمكننا أيضاً (ويومَ حُنَينٍ إذ أعجَبتكم كثرتُكم

فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكمُ الأرضُ بما رحُبَت) وانما الذى يعيننا على ذلك أنت وحدك فإياك نستعين فاهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم

هذا ملخص سورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالا فهى ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين فى زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا أنه يزيد على ذلك فيحيي الله تعالى ويثنى عليه كالنصف الأول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير أول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد أن يذكر الله تعالى يشرع فى ذكر نبيه ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومن هم فى زمانه ويأتى بعده فى أعلى السموات أو أسفل الأرضين ليربط قلبه بجميع المصلحين فى الأرض ويتذكرهم فيقتدى بأعمالهم فالمقصود من العبادات هذا التذكر والتفكر والرابطة بالجميع من كافة الطبقات ولهذا رمز الحكماء فى كتاب كليلة ودمنة بالحمام الذى تعاهد على التخلص من الشبكة التى وقعن فيها ثم بعد ذلك يوحد الله بالشهادتين ويصلى على النبي وابراهيم وآله لأنه هو الذى جاء بالتوحيد بعد دروسه فنظر فى ملكوت السموات والأرض وكشف له عن جميع ذلك ونزه الاله وملخص هذا ان الصلاة جعلت تذكرة لشيئين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من أصلح فى الأرض من الأنبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم ومن ظن انها مجرد عبارات تقال أو أن القرآن لمجرد التعبد فأولئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشريعة والعقل . وورد فى رسالة الامام الشافعى رضى الله عنه ما معناه ان سائلا قال لم اخترت فى التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال السائل أين أنت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضى الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعا إذ لم ينكر عليه أحد فاقرارهم عليه

يعد اجماعا ولكنى فضلت رواية ابن عباس لاسنادها للنبي مباشرة فجعلتها أولى و إن كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل إن هناك روايات أخرى فى التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضى الله عنه متى صحت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية و رواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلى الناس بصلوات مختلفة أليس ما نزل الله على النبي شيئا واحدا فقال الشافعى رضى الله عنه اعلم ان القصد فى التشهد انما هو ثناء وهو يؤدى بأى صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو اذا أدّى بأى صيغة أو كيفية واذا كان القرآن نزل على سبعة أحرف وأريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ما روي ان هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فأخذ بتلابيبه وأحضره عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه قرأ القرآن بغير ما أنزل فأمره النبي باطلاقه وقال اقرآ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا و بهذا أنزلت نزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر

فتأمل كيف كان علماؤنا رضى الله عنهم لا يراعون الا المعانى فهذه الصلاة لم يقصد منها الا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق فى مصالح الدنيا ونظام الدين بتهذيب الأخلاق والأعمال الصالحة وكمال النفوس الانسانية والعقول البشرية وأى أمة لم تفقه من الصلاة الا ألفاظها ومن العبادات الا قشورها فقد ضلت ضلالا بعيدا عن المدنية اذ تبقى معرفتها بربها نباتاً ضئيلا لم يسق وائتناسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكثر تحاسدهم وتصار بهم وتعديهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق و يضمحلون كما اضمحل الأولون

(٦) الأمه تضارع العالم كله فى نظامه

ولما كانت الأمة تضارع العالم كله فى نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة وأخرى يركع كما هى خلقة نوع الحيوان ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس وتوسط وهكذا الست الجهات فان المصلين حول الكعبة وفى أطراف المعموره يصلون اليها فيستقبلون الجهات الأربع و يرفعون رؤوسهم الى السماء و يسجدون واضعين رؤوسهم الى الأرض فكأنهم فى صلاتهم يشيرون الى نظام العالم كله وأن الأمة الواحدة يجب أن تكون كهذا النظام كله الذى هو كنفس واحدة فالأمة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام ووضع كل شىء فى رتبته ولم يكتف فى الإشارة بالاتحاد بتلك الأقوال والأفعال الاشارية بل جعلت الصلاه جماعة اشارة الى وجوب تضام القلوب فى المدينة وذلك خمس مرات فى اليوم والليلة لأهل المحلة الواحدة ثم فى خطبة يوم الجمعة لأهل البلدة

وتأمل كيف لاحظ الشافعى رضى الله عنه ألا تعدد الجمعة فى المصر الواحد لأنها فى الحقيقة سرها الاجتماع وقيام رئيس المدينة خطيبا يذكرهم بأحوالهم ونظامهم فى دنياهم وآخرتهم بمقتضى الأحوال الحاضرة لا مجرد أحوال محفوظة من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله فى العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف ثم اجتماع أهل الاسلام قاطبة فى مكة المكرمة من استطاع منهم سبيلا مرة فى العمر لتبادل الأمور العامة (جعلَ اللهُ الكَعْبةَ البيْتَ الحرَامَ قِياماً للنَّاسِ والشَّهْرَ الحرَامَ والْهَدْىَ والْقَلائِدَ ذَلِكَ لتعْلمُوا أنَّ اللهَ يَعلمُ مافى السَّمَوَاتِ وَمافى الأرْضِ وأنَّ اللهَ بكلِّ شَىْءٍ عَليم) فجعل الله الكعبة محلا يقوم به الناس و يتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة وأعمال ملوكهم هذا هو من أجل مقصود الشرع السماوى الذى جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

وتعاملوا وتحابوا (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا) فانظر كيف رتب الأيمان على الحب وذلك أن العقول لا يمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدنية الحقة إلا إذا تحاب أفرادها وتعاونوا فأذا لم يتعاونوا لم يطمئنوا فى حياتهم ينقص إيمانهم طبعاً ومتى نقص الأيمان لم يدخلوا الجنة إلا بعد جهد جهيد فالحب تبع لنظام الناس فى مادياتهم وصنائعهم والايمان مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذا ما قررناه سابقا فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والأحوال الطبيعية والأمور العقلية (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولذلك قال تعالى (أولئك معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم منَ النبيِّنَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً ذلك الفضلُ منَ الله) وقال (وَوَهبنا له إسحق ويعقوبَ كلاً هدَينا) الى قوله (فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) وقال (والذين آمنوا واتَّبعَتْهم ذُرِّيتهم بإيمانٍ ألحَقْنا بهم ذريتهم) فأنت ترى أن مدار أمر الآخرة على المرافقة والاتحاد فبهما تنال الدرجات ولايكون ذلك إلا بالعمل فى الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته (اللهم الرفيق الأعلى) وكان كثيراً ما يقول ألحق بإخوانى الصالحين . وقال تعالى حكاية عن يوسف (توفَّنى مسلِماً وألْحِقنى بالصالحين) وقال سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وأدْخِلْنى بِرَحْمَتِكَ فى عِبادِكَ الصالحين) وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدل على ما قلنا فيما تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فبها تنال الدرجات ولعلك تقول لكل نبى أمة وماتت ولصالحى الأمم المتقدمة بل مالنا والذين مضوا من قبلنا فى أمتنا إذ لا تعاون بيننا وبينهم قلنا اعلم ان الاجتماع هناك مع الأولين والآخرين ويحصل الفرح بالأشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون اللذة بهم فالعادل فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد لذته بالعادل فى أمة عيسى وموسى وابراهيم ونوح وان حجب عنه فى الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة أشباهه وأمثاله من أهل الكمال وكلما تمادى

الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل. فقال (تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة) وكلما كانت أمة النبى أعظم كانت درجته عند الله أكبر ولذته تبع لدرجته

واذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التى انقرضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب وأظهروا الغرائب لم يمكننا أن نحكم الآن وانما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا وبذلك يقارن بين أعمال الاسلام فى عمارة الارض وأعمال المصريين الأقدمين ولكن ورد فى القرآن فى ادريس ورفعناه مكانا علياً وورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد فى السنة أن النبى صلى الله وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد أن تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة وبالجملة فأحوال الناس بعد الموت ويوم القيامة تبع لأحوالهم فى الدنيا (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرةِ حسنة وقنا عذابَ النار ، أولئكَ لهم نصيبٌ مما كسبوا والله سريعُ الحساب)

وأما ما ورد من ذم الدنيا وانها لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد فالمراد منه صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لاتركها بالكلية وإلا لحقها الدين قطعاً ومعلوم أن فى الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات فتحصيل الدنيا أمر جبلى فى النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالآخرة ليصرفوا الوجهة القلبية الى المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها وإلا كان تعطيلا للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام الرسالة فقد غزا غزوات وبعث سرايات تعد بالعشرات وكان يحتاط فى أمر الدين والدنيا جميعاً (ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكن اللهَ ذوفضلٍ على العالمين)

(٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا

من اللطائف أن شريعتنا الاسلامية مزجت أمور الدين بالدنيا مزجاً عجيباً ألا ترى أن صفوف الصلاة هى بعينها صفوف الحروب فترى فى كل أمة من الأمم نظاماً ودستوراً يقوم به كبار ضباط ويتبعهم فيه رجال العسكرية كالامام فى الصلاة فالمصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت عليهم المدافعة والمحاربة صفوفا منتظمين فتكون صفوف الصلاة كالتمهيد للاصطفاف فى الجهاد ولم يكن القصد من الأمم أن تقلد الامام فى حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وانما يقلد فى حركاته الخارجية فى الحروب وهذا كان فعل صاحب الوحى عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما أمكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا على ومعاوية وعمرو أن يصلوا لهم فى يوم واحد فقتل على فى المسجد ونجا عمرو لاتفاق مرضه فى ذلك اليوم وأنابة خارجه عنه وصادفت الضربة ظهر معاوية بالشام فى الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالمين بأن هؤلاء يصلون بالناس

وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه سيرة صاحب الوحى وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء علما منهم ان القصد من الصلاة والخطبة والحج وغيرها سياسة الدين والدنيا جميعا وان بينهما تلازما فى هذا الشرع وياعجبا اننا ما سمعنا ان شرعاً كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما فى خطة واحدة أعجزت كل ذكى عن إيجاد حد فاصل بينهما وهذا هو الحق . وكيف يميز بين الماء والطين فى جسم النبات أم كيف تستغنى الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فها هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ما المقصود من ذلك وتركت الخطب فى أيدى الجاهلين والصلوات عند الضعاف فأصبحت لا ترى إلا أشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومما تنشق له المرائر انك ترى المسلمين أثناء تأليف كتابى هذا بينهم الشقاق

والنفار فها هى واداى التى هى مملكة وراء الصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الأنفس فيهم مائتا ألف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرنسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار البائل وهكذا دولة مراكش نسمع إن فيها قلائل كثيرة ومثلها فى ذلك دولة افغانستان فانها مع ما حصل لها من التقدم فى زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان أهلها لا يزالون ذوى شقاق وهكذا مصر وأهلها وجميع أقطار الاسلام على شاكلة واحدة فى الخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله إلا لضعف التربية وترك ما أريدت به تلك العبادات والأعمال

(نتيجة) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والأمة بعضها ببعض كأنها العالم كله أو النفس الواحدة واننا مرتبطون ببعضنا دنيا وآخرة كالنفس الواحدة و بهذا اتضح معنى قوله تعالى (ما خلقكمْ ولا بعثكمْ إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ إنَّ اللهَ سميعٌ بَصير)

أما كون الخلق كنفس واحدة فى الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه فى أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد وأما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام فى هذا الموضوع

(٨) الترقى سنة العالم شرحها القرءان قبل داروين باثنى عشر قرنا

زيادة شرح و إيضاح

ولنرد الكلام على هذه الآية إيضاحا معقولا و بيانا صادراً عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الأمة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ما تقدم . فكما أن الانسان الواحد يدخر فى صغره لنفسه ما ينفعه فى كبره فكذلك الدولة تبنى أوائلها ما ينتفع به أواخرها

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا

وكما أن الشخص الواحد يترقى شيئاً فشيئاً ثم يستوى شابا ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشب وتهرم فتموت وكأن الدول كلها نفس واحدة تراهم يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتى الآخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فياليت شعرى ما لهذه الأمم فالأولون حريصون جداً على تعليم الآخرين والآخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الأولين تلك سنة الكون ونواميس الخليقة وها هنا سؤال يهش له المغرمون بالملح واللطائف وذلك أننا نرى أن الدولة تندرس آثارها وتمحى علومها من لوح الوجود فهلا أبقى مدير هذا الكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الأمة ما اختارته التى قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائما بلا رجوع وما لنا نرى الناس الآن يجوبون الأقطار شرقا وغربا للبحث عن آثار الأولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلا إلا قليلا من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة الا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيروغليفية وهى كتابة قدماء المصريين ففى النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة نقول .

اعلم أنه عزّ وجلّ ما أرسل الأنبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق إلا للترقى والكمال ولو أبقى علم دولة وأخذته من بعدها سهلا لطيفاً لوقفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقى فى عمل إلا بباعث وشوق وتنبيه وإرادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة فى الدنيا إلا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهد على ما غاب فيدفع النفس الى الغائب ما كان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل أو يده أو وجهه أحب ان ينظر ما وراء ذلك وهكذا إذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى فى المخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الأمة لا يحركها الى طلب المعالى والشرف إلا أن تكون فى ضعة وشاقها ما رأت من المعالى والكمال عند غيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التى هى عليها وما هذه الأعاجيب فى الدول وتوارثها إلا كمثل الاستعارة فى علم البيان

والكناية فانه لا يجمل الكلام بالتصريح بالمعانى دفعة واحدة والاتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد فى النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكأنه أفهم المقصود برمز خفى وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق

وهذا هو السر فى المجازات والكنايات والاستعارات المصرحة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة أمة مضت اتبعتها علومها و بقيت لها آثار تدل على بعض ماتعلم وتسلك الأمم المتأخرة سبيلا غير الذى سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها فى أمور جديدة وربما زادت عليها فى أمر ونقصت عنها فى آخر وكم من علوم فى قديم الزمان لم يبق منها الآن على سطح الكرة الأرضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) فأما إذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الآخرون على الأولين فى نظامهم وأعمالهم

وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد انما هى شؤون تابعة لشوق فى النفوس شاقها باعث خارجى إلى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها (ان ربكم لرءوف رحيم) ولقد علمت ان بين الأمم والكلام مناسبة عجيبة وان أحوال الأمم أشبه شىء بعلم البلاغة فها هنا بلاغة عملية وفى القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر والحروف والقصد تشويق النفوس إلى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الأمم كلها كنفس واحدة اتصل أولها بآخرها وبحث متأخرها عن أحوال متقدميها وانها كلها تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد فى الحديث

ولعمرى ان النظر لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا إلى التطلع إلى محاسن الكائنات

التى أمامنا فما أجمل العلم وما ألذ الحكمة فأينما تولوا فثم حكم بديعة ان نظرنا لارتباط الأمم وفنائها أدهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هالنا حكمه وعجائبه ثم ننظر فنرى الأمة تأخذ فى الترقى من أطراف المعمورة الى من هم فى المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل أوروبا وكثير من الشرقيين فكأنها أخذت فى الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط

والأمم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها بأجلى بيان اعتقاداً وعملا ولنذكر لك الآن الأمم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقاداً فنقول .

(٩) أقسام اهل المدنية الجاهلية واعمالهم

اعلم أن ترتيب درجات الأمم كترتيب درجات الحيوان سواء بسواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان فى كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الآن إجمالا لتبتهج بمعرفة اتساقهما فى سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم مايرى فى خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الأمم واحدة بعد الأخرى الى أن نصل إلى المدينة الفاضلة فنقول .

أنت تعلم أن أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذى آخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وأدناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق فى الخل وأنواع السوائل والنباتات والنلج و بطون الخيرات الكبيرة فكل هذه حيوانات لو اخبرت بوجود حواس أخرى لأنكرت وجودها فلو قيل للصدف فى البحار أنت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة الذوق كالديدان التى تسبح على الأعشاب والأشجار لأنكرت وجودها وقالت كيف يمكن أن أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التى عندها حاسة الذوق إذا قيل لها ان هناك ماهو أرقى منك كحيوانات فى المحال المظلمة تشم ما بعد منها و بعضها

قد وجد لها عدو فى محالها فأعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة البصر لعدم لزومها لأنكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال ولو قيل لجميع ما تقدم ان هناك حيوانا له حاسة تسمى البصر يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لأنكرت لك الحيوان ووجوده إذ لا تعلم طبقة من الطبقات إلا ماعلمها الله وتنكر ماوراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس إلى أن بعضه قد يحمى أولاده كالغربان ويزيد عليه غيره فينفع الانسان بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهائم وأذكاها الخيل ثم يترقى عن ذلك الى أن يقلد الانسان بدرجات بعضها فوق بعض حتى يصل الى درجة القرد والببغاء والفيل فكل هذه تقلد الانسان فى أعماله أو تقبل عنه قبولا سريعا ويلى هذه الانسان . وكما أن كل درجة من درجات الحيوان السابقة اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك مابعدها فالحيوان الذى له السمع قد أعطى الحواس التى قبله وهكذا ماله البصر قد أعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد أعطى كل مواهب الحيوان قبله فهكذا الانسان أعطى مواهب الحيوان وكل درجة من درجاته فى المدينة أعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه ، وكما أن الخمسة فيها جميع ماقبلها من الواحد والاثنين وهكذا والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها

فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ماتحته وزاد عليها والانسان أخذ درجات ماقبله من الحيوان وكل درجة من درجات المدن فى كل شكل أرقى فانها أعطيت حظ ماقبلها وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ

فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر فى المجالس لم يحفل بذلك وهكذا الشاب إذا أعطى بدل الشهوات الذهب والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الأمة كل درجة أخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكأنها تنطق بلسان حالها (لا عِلْمَ لَنا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنا)

وإذا فهمت هذا فاعلم أن أول درجات المدن الجاهلة قوم رأوا أن المدار فى الحياة الدنيا على [illegible] الأشخاص وهؤلاء تسمى مدينتهم (الضرورية) لأنهم اقتصروا

على الضرورى من الحياة الدنيا فتراهم من الغداة إلى العشى يجدون ليأكلوا فاذاسئلوا لم تتعبون فيقولون لنأكل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار إليهم بقوله تعالى (إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنا الدنيا نموت ونحيي وما يُهْلِكنا إلا الدهر) وترى فى كل أمة أقواماً يشبهون هؤلاء فى الفكر

وقوم آخرون رأوا أن المدار على ما يلذ الأنفس من اللذائذ الحسية والشهوانية ومدينتهم تسمى (الحسيةأوالخسة) وإليه الاشارة (ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فسوْفَ يَعْلَمون)

وآخرون قالوا أن المدار على اليسار والغنى فأما اللذات فانها تكلفنا ما لاطاقة لنابه وتسمى (اليسار) وإليه الاشارة بقوله تعالى (وتَفاخُرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد) .

وآخرون ارتقوا عمن تقدموا فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم وتسمى (مدينة الكرامة) وإليه الاشارة بقوله تعالى (تِلْكَ الدّارُ الآخِرةُ نجعلها للذين لايريدون عُلُوّا فى الأرض ولا فساداً)

وجاء آخرون فقالوا إن المدار فى الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) يقولون ننال اللذات والغنى والكرامة ونعيش متمتعين إلى أن نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الاله ولا الرسل شيئاً

وما أشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات فى ترتيب الحواس فمنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا إلى الخمس التى جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

(١٠) اراء اهل المدن الجاهلة

قد علمت أقسام أهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف وأقساماً مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وأنهن فى درجاتهن أشبه بدرجات الحيوان فالضرورية كالديدان التى خلقت فى المائعات وأجواف الحيوانات الكبيرة فهى فرق شتى ومدينة الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التى أعطيت قوة الذوق واللذة وهى تتشعب شعباً كثيرة وهكذا مدينة اليسار كذوات الشم ومدنية الكرامة كذات السمع إذ به تعرف أخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحواس الخمس من النمل والحشرات فهى لم تترق بعد إلى درجة الحيوانات العليا التى يعلمها الانسان أو تقلده . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتئمة ثم أن هذه اللذائذ والكرامات والمعايش طلبوها فى الحياة بحسب ما غلب على عقولهم فقال قوم

أننا نرى أن هذا الوجود لانظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضاً ويغالب بعضها بعضا . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل ترى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة فى الجوهر وإن لم يكن له حظ فى قتله فهذا دليل لنا على أن طبيعة كل موجود حب الانفراد بالوجود والبقاء وأن يمحو ما عداه وإذن قالوا وجب أن نتبع هذه الخطة فنقاتل أعداءنا من نوع الانسان ونغالبهم ونسديهم لحظ نفوسنا لا لصلاحهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار فى الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على الغلبة والحروب والقهر مقلدين فى ذلك صيغة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا إنا كلما قهرنا أمة وأخذنا قبيلة استعنا بها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا فى الحياه الدنيا إذ لانرى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم أنهم يستعملون مع الغلبة رابطة الجنسية فيستعينون بأبناء جنسهم وأولاد أبيهم لا كبر على متشابه من سواهم وتارة يعتبرون الوطن الذى يسكنونه واشتراكهم فى

الهواء والغذاء والجو والطقس (وتسمى الوطنية) وتارة يرجعون فى الجامعة إلى رابطة اللغة المعبرة عن ضمائرهم الموجبة للائتناس والمستلزمة قرب الاتحاد فى الأخلاق والشيم والعوائد وهى وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون فى هذه الأزمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى (وحدة المصاهرة) وتارة بالمعاهدة والمحالفة مع غيرهم وهى (وحدة التناصر) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فتلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التى تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهى الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمحالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك أمور خاصة بطوائف وأناس ليست عامة الأمم وذلك كالاشتراك فى الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك فى لذة أو جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع فى محلات التلاقى فى سفر وكالوحود فى أمكنة لا أمان فيها . فأسباب الائتلاف بين أهل المدن الجاهلة أثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة خاصة . فها أنت ذا علمت أقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

(١١) فى أنماء الثروة

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال أخذوا ينمونه بطرق شتى فمنهم من ينميه بطريق المغالبة لاغير ومنهم من ينميه بطريق المبايعة وأنواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات وأقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لغيرنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونبادل الأقوياء وهكذا لجميع الصور الممكنة وجدت فيهم فى غابر الأزمان

(١٢) فى الخشوع

وقالوا إن الخشوع شيء لامعنى له فانا نرى أن أناساً جاءوا مدعين أن عندهم قوة إلهية مع أنه لافرق بيننا و بينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة وأخذ اللذات بالقوة رجعوا إلى الحيلة وكما أن اصطياد الحيوان إما أن يكون بالعلبة والقهر أو الحيلة بالآلات فهكذا هؤلاء الخاشعون يطهرون أن عندهم قوة قدسية وأمراً عجيباً فيظن الناس فيهم الخير و يعطونهم الأموال لجهلهم وتعطية أولئك على عقولهم وهم مغرورون فى ذلك مخدوعون جاهلون

ثم أن هؤلاء الخاشعين إن زهدوا فى هذه اللذات التى فى أيديهم فهم مغرو رون جاهلون و إلى متى يتركون اللذات وهم لا حظ لهم فى هـذه الحياة (مَا هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيي ومَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدهر) ثم تراهم يقولون أنهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وما علموا أن قوماً يمدحونهم للطمع فيما فى أيديهم فيزهدون فى الأموال و يعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهـداً و إعطاء وتباعدا عن اللذات والشهوات وأن آخرين يمدحونهم خوفاً منهم وآخرين يغرونهم استهزاء وسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغرورهم طانين أن هناك لذائذ أحسن من هذه فتركوا الأدنى للأعلى

و بناء عليه فلا معنى للخشوع إلا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق . وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة و يحتالون اما بالعلبة بالقوة أو العلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هى بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعدهذه يكون فيها النعيم

(١٣) اعتقادهم فى العدل

وأما العدل فانه أمر فرضي لامعنى له إذ الحيوان كله والانسان لايسعى أحد إلا لحياته وحفظ نفسه وأما ما عداه فانه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه و بقائه فى الحياة الدنيا . ألا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الأرض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظ أنفسها وشهواتها فأين العدل.

وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بنى جنسه أهلكه وأذله وأخذ مافى يده وربما قتله وأعدمه لمجرد مشاركته له فى الحياة حسداً واستئثاراً بالحياة والبقاء . وأما العدل فانما هو أمر اضطرارى جاء لضرورة التوازن فى الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فكل قبيلتين تساوت قوتهما اضطرتا الى المجاملة فى المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعاهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت إحداهما نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرهم و إذلالهم وأخذ مافى يدهم جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول أوروبا الآن مع الشرقيين كدولتى تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهى خلاف ذلك فاذا دامت أمتان على تلك الحال مدة[1] جاء من بعدهم فظنوا هذا أمراً طبيعيا فتعاملوا كما كان الدين من قبلهم وهذا لا جرم جهل بالسبب الأصلى فى ذلك وطبيعة العمران . فربما قويت أمة فالواجب عليها أن تأخذهم بالغلبة إذ الانسان لا يلزمه ان يعامل أهله ولا أهل بلده بالحسنى إلا لاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الأفراد بالبقاء . فما بالك بمن هم أبعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتناصراً وتعاهداً فهم الأولى بالغلبة والأخذ بالقهر والقوة والخداع والختل ثم القتل والاهلاك أو الابادة من الوجود فملخص آرائهم فى العدل انه قهر أو لا غرور آخراً

---

(١) كان ذلك مند ٢٥ سنة حين طبع هذا الكتاب أول مرة أما الآن سنة ١٩٣١ عند الطبعة الثانية فان الصين والترك قد أصبحتا دولتين قويتين جدا

(١٤) المدن ذات الروح او الجسد والروح

ثم الضالة والفاسقة

هذه هى أخس آراء فلاسفة المدن الجاهلة الذين هم أشبه بالهوام فى الأرض والحشرات الصغيرة التى لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التى تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان وأوامره لها فضلا عن الحيوانات التى تقلده كالقرد

وبالجملة فالحيوان ثلاثة أقسام قسم له الحواس الخمس أو بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط. وهذه هى الهوام والحشرات ونظيرها فى الانسان المدن التى ذكرنا أقسامها وآراءها وأعمالها

القسم الثانى الحيوانات التى تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لاشاراته وهى ذوات البيض وكثير من الحيوانات التى تلد كالجواميس والحمير وغيرها

القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان فى أعماله ونظيرها فى الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق فى ملكه وفى صنعه فى جسم الانسان وهى المترشحة للترقى الى عالم أرقى من عالمنا هذا .

واذ تم الكلام على القسمين الأول والأخير فلنذكر القسم الثانى فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم أصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا فى الكون وقالوا .

ان العدل بين الناس والمسالمة هما الأمر الطبيعى فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة ألا ترى أن الأمة اذا اعتدت على الأخرى التزمت الأخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب فى نوع الانسان أمر غير طبيعى والمسالمة هى الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هى المسالمة أما الحيوانات الأخرى فتؤخذ قسرا عنها لانتفاع الانسان وهكذا كل نوع من أنواع الحيوان لا يأكل ابناء جنسه ويقاتل ما عداه والحيوان يأكل النبات الذى هو نوع

آخر وهذه هى طبيعة الكون هذا سيرهم فى الحياة الدنيا فسالمتهم طبيعية ومقاتلتهم إنما هى لأمر خارجى ، أما اعتقادهم واليوم الآخر فهم فى فرق شتى وأمم مختلفة وآراء متفاوتة

وترجع أحوالهم إلى ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين

الفرقة الأولى قالوا ان الانسان خلق فى الدنيا وهى دار باطلة ووهم زائل وما الحياة الحقيقية إلا الحياة التى بعد هذه فانه يستحيل عقلا أن تكون نهاية هذا العالم ما نراه من هذه الدار التى كثرت شرورها وامتلأت بالمفاسد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدبر هذا الكون أن تكون هذه الدار هى الحقيقية بل هى دار يجب الخروج منها بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بأنفسهم ومنهم كثير باوروبا ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما عاق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها إلا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق وأحاطت بها الأمواج من كل جانب وأتت لها كواسر البحر من الأسماك الكبار والتماسيح فأصبحت تتهددها عاديات الأسماك وأمواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ما قصد بها ولم ينل منها الوطر

فهكذا الانسان إنتابته حوادث الدهر وقواطع الشهوات وأهوال الحياة ومفزعات الخطر المحدق والغموم والهموم حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الانسان هو الروح وبها حياته وما الجسم إلا عارض عاقها عن الأعمال لما شاهدوا أن المتجردين بالرياضيات يصلون فى نعيم لا يحس به سواهم كما هو مذكور عن مدينتين ببلاد الهند غزاهما الاسكندر كما ذكر الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل وهو أمر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح إلى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الانسان فى هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح

معا ولا يصح اهلاكه إذ لا تكمل إلا بالجسم وانما العائق له عن الكمال الشهوات المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقة عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب إذاً قطع الشهوة والغضب أما الموت الحقيقى فمخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال النفس وترقيتها إلى العالم الأعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوتا الفرج والبطن فإذن يجب قطع دابرها بالصبر عنهما والاستعاضة عنهما باللذات الروحانية كما هو شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلماء الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون أنها طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون أن الحياة حق وان الانسان مركب من أمرين متضادين وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين فى البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون ان فى العالم الهين اله الخير واله الشر فللأول الروح وللثانى الجسم فوجب مغالبة الثانى لئلا يغلب الأول وذلك يكون بأضعاف شهواته أما بالأماتة كما فى القول الأول أو باذهاب النواتج عنها كما فى القول الثانى وأصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة «مت بالأرادة تحي بالطبيعة» يعنون امت الشهوة والغضب يحي عقلك ومعارفك واسندوا هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه آنفا وبعضهم أرجعه إلى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته لا الفاعلين وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما ترتب عليه وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة أنه لاحقيقة فى الكون البتة وكل ما شاهدناه يجوز غيره فانسان اليوم قد يمكن أن يظهر بشكل آخر فلا يمكن تحديد الأنواع والأجناس وهناك ينتفى كل ما يسمونه محالا فلا يمكن انكار شيء إذ يجوز أن هذا المنكر سيكون فى وقت ما. فهذه ستة أقوال أصول كلها مقدمات لنظام الأمة الذى قدمناه فى آراء أهل المدينة الفاضلة وأنه يجب أن يكونوا كنفس واحدة ذات أعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون دار السلام كما قدمنا

ويلحق بالمدن المنحرفة باقسامها الستة امتان المدينة الفاسقة والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم (ولا تكونُوا كالَّذِينَ أوتوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قلوبهمُ وكثير منهم فاسقون) وهؤلاء هم الذين طال عليهم أمد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فأول علماؤهم وحرف وعاظهم واحلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكما عرفوا شيئا ظنوا أنه أصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن أمر ربهم

وأما الضالة فهى التى أرسل لها رجل أوهم أنه يوحى اليه كالمهدى السودانى فقد غير وبدل وأحل وحرم بادعاء أن الخضر يعلمه فهـذه هى الضالة وهى وما قبلها ملحقتان بالمنحرفة فتلخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهى خمسة أقسام ولهم أراء وأوهام تناسب معلوماتهم وهم فى مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام و بعض الحشرات اللاتى ليس لهن معرفة الا بالمعايش فاما تدبير البيض واطعام الأفراخ والحمل و إرضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم

وطبقة منحرفة وهى وملحقاتها ٨ أقسام نظير الحيوانات التى تبيض وتحضن أفراخها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلقى اليها من الأوامر بالأصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من أمر الخالق والاخرة والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديداً

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم أهل المدينة الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التى تقلد الانسان فى أعماله فمنها ماحسن صوته ومنها ماحسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق مقلدا له كالببغاء ومنها ما يفهم عنه بذكائه كالفيل ومنها ما له أدب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ماتنجى صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه

من الأخطار ولا تهز ذنبها اذا أصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه اذا مات فتموت كما وقع كثيرا أو تمرض لمرضه كل هـذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده فى حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد اعطيت حظ جميع ما تحتها وارتقت عليها بتقليد ما هو أعلى وهو الانسان فهكذا أهل المدينة الفاضلة نالوا الحظوظ التى نالتها الامم التى انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها الى تقليد نظام مدبر الكون فى أعمالهم وأقوالهم فقلدوه فى نظام مدنيتهم وجعلوها على هيئة الجسم الانسانى أوهيئة العالم الالهى كما قلدت تلك الحيوانات الراقية الانسان فى حركاته وسكناته وصوته وجماله وان كانت نسبة تلك الحيوانات الى الانسان أقرب من نسبة الانسان المرتقى الى مدبر الكون

اذا فهمت هذه المراتب الثلاث فهمت اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

الباب التاسع

فى امة الاسلام ونظامها وما يجب على اهلها ان يتخذوه فى هذه الايام وفيه ٢٩ فصلا

ولقد ذكرنا نظام الأمم الضالة والفاسقة والجاهلة والمدن الفاضلة بوجه عام مع آرائهم وأخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها وبين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن فى الكلام على الأمة الاسلامية بوجه خاص فى هذه الأزمان الأخيرة إذ هى التى تهمنا فقد وجب على من أوتى علما أن ينشره بين هذه الأمة التى أصبحت ولا نصير لها من العالم أجمع فان لم يقم عقلاؤها وينشروا أفكارهم بين الملأ فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالانسانية ولنطبق أحوالها على نواميس الشريعة الاسلامية ونظام الكون ، ونلخص الكلام تلخيصا فنقول

الفصل الأول — فى ذكر أحوال المسلمين من القوة فى عصر النبوة والضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن .

الفصل الثانى — فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل

الفصل الثالث — فى توزيع الأعمال على الافراد وما حكم الشريعة فيها وذكر فروض الكفاية

الفصل الرابع — فى ذكر أنواع العلوم والصنائع التى يجب على الأمة تعلمها فى هذه الأزمان

الفصل الخامس — فى ذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء أن يسلكوه فيه فى هذه الازمان

الفصل الأول

فى ذكر احوال المسلمين من القوة فى عصر النبوة ومن الضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الان

وذلك فى ثلاث مباحث : المبحث الأول : فى أحوال أيام عصر النبوة
المبحث الثانى : فيما طرأ عليها بعد ذلك
المبحث الثالث : فيما يظهر عليها من الاستيقاظ الآن

المبحث الأول

فى قوة أمة الاسلام فى عصر النبوة وصدر الاسلام

فهاك بعض ما جاء فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن : فها أناذا أذكرك أيام الصديق أولا بما جاء فى (سورة الشورى) وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة فى عدله وأخلاقه الكريمة فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى وسمعت نصيحتى لأنك تشير اليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت إنما أشرت اليه لأننى فى هذا المقام كما تقدم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين نقتدى بهم . وها هو الذى ذكرته الآن . وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ونخالفهم وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك . وقبل ذلك التفصيل أقول فى السلف الصالح قولا مجملا غير ما تقدم لتتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبى . عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة . والغيرة

الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا . وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد . وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت

(بيت المال) توفى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قدمناها . ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات . وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة . وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهبا وفضة . فأدهشتهم كثرتها . وتنبهوا لها . يقال أن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم . فاستكثره عمر . وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر . وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير . فان شئتم كلنا لكم كيلا . وان شئتم عددنا لكم عداً وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين . باعتبار السابقة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال . فقال له قائل : يا أمير المؤمنين . لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر . وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك . وقانى الله شرها . وهى فتنة لمن بعدى . إنى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله . وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال . وحرم على المسلمين اقتناء الضياع . والزراعة . أو المزارعة . لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . حتى إلى عبيدهم ومواليهم . أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل . لا يمنعهم انتظار الزرع . ولا يقعدهم الترف

والقصف . فاذا اسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته . تفرق فيهم . وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه . ويفرضون له راتباً فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى اليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذى يحتاج اليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفا لمصالحهم مدى الدهور أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا يمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة بهم . وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولاتورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد . وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى . وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله . وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أوصناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة . لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه . بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة . ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله . لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين . وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب الزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى، والزهد والاستهلاك فى نصرة الحق مما يندر اجتماعه فى رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحس بدنو الأجل قال لابنه : إنى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدى ، فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب) . وزهده فى الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك فى الامام على ، فقد كان مغاليا فى الزهد والعدل ، ومن أقواله : (تزوجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالى خادم غيرها) . وجاءه فى أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبن على آجرة على آجرة ، ولبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكان يأتى بحبو به من المدينة فى حراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : (لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه) ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق . أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد فى الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أوسبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى فى ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبى هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة فى ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك فى مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه ، وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنه كتب اليه : (أقدم إلينا) فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه فى يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : ياعمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامى . فقال : ما صنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لأتيتك به ، فقال له : عد الى عملك .

ولأقتصر فى هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقفى بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

المبحث الثانى

فيما طرأ عليها بعد ذلك فى أيام بنى أمية وأيام بنى العباس وكيف أزالها التتار وفى الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا فاما ما طرأ عليهم فى أيام بنى أمية وأيام بنى العباس فهاك بعض ما جاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة الاحقاف عند آية أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

شيوع التبذير فى الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوّة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ ــ ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ، وكان مع ذلك أمويا ، فاعترّ الأمويون

به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت فى أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢،٥٠٠،٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا فى حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبى سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان فى مقدّمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتّخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقرّوا الأرضين فى أيدى أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قوّاد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفرّ البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقر معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم فى البذخ واتّخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وأنه لا مالك لها ، وليست هى من قرى أهل الذمة ، ولا للخراج ، وسأله أن يقطعه إياها . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتبا مقداره ألف دينار فى السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك التمادى فى اقتناء الأرضين و بيعها فى أيام خلافته ، والأذن للمسلمين فى ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٫٠٠٠) دينار و (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها (١٠٠٫٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين ممالم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفى حكاية أبى ذرّ الغفارى ما يغنى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا فى التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : (أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لكريم) . وكان يقوم فى الشام و يقول : (يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ، وما زال يقول ذلك ويكرّره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم ، لأن أبا ذر وبخه غير مرة لاحترانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذر : إن كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية فأراد أن

يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغره بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبى ذرّ فرّقها حالا مع أنها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ؛ وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه فى ساعته ، فلم يرَ معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : «انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذرّ» ، فكتب إليه : «احمله على قتب بغير وطاء» ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بنى أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف ، وظل هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة مانقموه عليه إلى مقتله اه

هذا ماجاء فى كتاب «تاريخ التمدن الاسلامى» وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمته ، فلنفصل الكلام فى أيام بنى أمية :

الاسراف أيام بنى أمية

وعصرهم سنة ٤١ — ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالى

اعلم أن بنى أمية وان فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا فى الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه «الوظيفة» . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج مايبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون فى

حاشية العامل أو الوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات ، فليسوا يحفظون مايوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو من أموال الرعيــة ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ، ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام.

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، و إبطال لعن علىّ على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيراً منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأتاه المظلومون . وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حنوا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة

ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتنموا الفرصة ، وشكو اليه ما يقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجرّاح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : أما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام؟ فقال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم قد

أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحر بمثلك أن يوفد ، وكتب إلى الجرّاح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس فى الإسلام ، وتسارعوا إليه ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجرّاح إلى عمر بذلك ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ، ولم يبعثه خاتنا .

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك : وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ؟ فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول اصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، وما فى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات . فقتلوه بالسم ، ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين . وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها ، ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بنى أمية ولكنه جاء فى غير اوانه . فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الأمور الى مجاريها ورافقها رد الفعل . فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله . و بالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين الى

الالجاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة . أو العامل تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا فى الترف . وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه : سلامة وحبابة . وحديثهما مشهور وخلفه أخوه هشام وكان بخيلا وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر . لأن الأحوال غير ملائمة وفى أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر وأصبحوا لاينظرون إلى مايؤيد سلطانهم ولا يبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن ، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، و بلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٠٠٠ر٠٠٠) درهم ، وهى الذلفاء ، وأصبح العمال لاهم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، أدخل على الناس الحرب [1] وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ،

(١) كسبب : هو سلب المال

فلم يرغب فى الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم فى اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسرى ، اذ وشى به كاتبه حيان النبطى أنه فرق ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار أو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الأخرى مما لانعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأمس الدابر ، وهذا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا المذكور فى هذه الآية .

دولة بنى العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبى يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية . والعصر الثانى وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهى بانقضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكى إلى إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » انهم انهمكوا فى البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا الفرش ، من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المتنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالمطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى ، وأطلقوا أيدى نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، فى الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى أن لايشرك النساء فى أمره ، ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادى وأيامه . وكان وزيره تحت أمرها . فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها فى العام (١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم . وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال . فقد ذكروا أن إيراد (روكفلر) الغنى الأمريكى الشهير نحو (١٠٫٥٠٠٫٠٠٠) جنيه فى السنة . وغلة الخيزران أكثر من (١٠٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم . والدينار نصف جنيه . فتكون غلة (روكفلر) نحو ثلثى غلة الخيزران . وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها . دست اليه من قتله ولما مات توسع الرشيد بأموالها . وأقطع الناس ضياعها

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى . فلا غرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية . انما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز

ونحوها نحو (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار نقداً . ومالاتقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال . من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار . وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٫٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق . فقد كانت غلتها (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار فى العام . تنفقها فى جواريها وهو نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر (٦٠٠٫٠٠٠) دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الأيدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الأموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر) أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى دراً فباعه بعشرين ألف دينار أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتى كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالانفاق مع الوزير أو من ينوب عنه فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ولم يكن لأولئك القهرمانات

سبيل للانفاق لولا ما فى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم [١]

الجوارى والغلمان

وفى مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى [٢] وابن أبى مريم المدنى [٣] وغيرهما ، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار [٤] إلى مائة ألف دينار غير مايقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهى شيء كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتما بمائة ألف دينار [٥] وقس على ذلك لعله مبالغة بالنسبة لنحو الرشيد.

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٫٠٠٠) خصى من الروم والسودان [٦] غير مايقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز داراً فى بغداد أنفق عليها ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٧] وبنى الأمين قصوراً فى الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٨] واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة

---

(١) إن هذا القول منقول من كتاب (تاريخ التمدن الاسلامى) وقد عزاه الى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : «١» المقريزى «٢» الجزء الاول من كتاب التمدن الاسلامى «٣» ابن الأثير «٤» الفخرى «٥» ابن عساكر نسخة كرايمر «٦» كتاب الخراج لأبى يوسف «٧» اليعقوبى «٨» المستطرف «٩» المسعودى «١٠» الماوردى «١١» ابن الفقيه «١٢» الطبرى «١٣» القرمانى (٢) إعلام الناس ٩٧ (٣) الطبرى ٧٤٣ ـ ٣ (٤) ترتيب الدول ١٢٦ (٥) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ (٦) الفخرى ٢٣٤ (٧) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ (٨) ابن الأثير ١١٢ ج ٦

الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمير مطايا لم تُسخَّر لصاحب المحراب
فاذا ماركابُه سِرْنَ براً سار فى الماء راكباً ليثَ غابِ
عجِبَ الناسُ إذ رأوك على صُو رة ليث تمرُّ مرَّ السحاب
سبّحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العُقاب
ذات زَور ومِنسر وجَناحيـ ـن تشُق العُباب بعد العُباب
تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء مايشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال فى أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند [١] ولكن الغالب أن تبذل الأموال فى سبيل الحصول عليها اما رأساً إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠٫٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ دينار [٢] أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف مابذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة انه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من

(١) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا فى بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغى ان أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير ، فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذى جاء فى الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقون إلى الوزير ، ففرقهم فى عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لايملّ من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدنى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه(١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠,٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لاأقبلها ، ولا أثقل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل إلى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢) .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعىّ فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق ، أو فى مصر ، أو فى الأندلس فقد خلف الماردانى وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ماقلما ملكه أحد قبله وريعها ٤٠٠,٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ،

---

(١) الفخرى ٢٤٠ (٢) الفخرى ٢١٦

وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠٫٠٠٠ دينار [١]. ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة، وخلف أملاكا وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا، وغير ذلك ماقيمته ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار غير ما أنفقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٫٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية [٢] وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي مالم يسمع بمثله وذلك ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار عينا [٣] و ٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر، و ٧٥٫٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٫٠٠٠ دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مالايحصيه عد [٤].

وقس على ذلك أحوال الوزراء في الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة، فقد أوردها ابن خلدون والمقري، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا في ثلاث صفحات كبيرة [٥]

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في إبان ثروتها، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة، ويحتالون في استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد، بشرط أن يستولي ورثتهم على معظم ريعها، ليخلصوا أنفسهم من خراجها أو عشورها!

«كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن في تلك الأيام

---

(١) المقريزي ١٥٥ ج٢ — (٢) المقريزي ٦ ج ٢

(٣) وهو في الأصل ستمائة ألف ألف دينار. ولابد من خطأ تطرق إلى نصه. إذ لايعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد. وهو يفوق مجموع خراج مصر لمائة سنة، فالارجح أن يكون المراد ستين الف ألف دينار كما قلنا. ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير، لأن أموال مصر قلما قدرت بالدراهم

(٤) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٥) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

وهى أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاة الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن ،وخصوصا العواصم، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والجوهرات والأقمشة ، وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، و بيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يبذلون المئات والألوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة ، وخصوصا باعةالجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ فقد رأيت فى بعض ماتقدم أن جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما فى حانوته فما قولك بسائر مافيه ، وهناك جوهرى آخر يقال لهابن الجصاص صادرهالخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] وكان فى بغداد شريف يسمى محمدبن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة [٣]

فلما سمع صاحبى ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أممنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ و الفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وَذاقوا حلو الزمان ومرّه ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، و يفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطل ، وهنالك يرجع

(١) الطبرى ٢٠٧ ج ٣ (٢) — ابن الاثير ٣٣ ج ٧ (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

للأمم الإسلامية مجدهم ، ويعلو شأنهم، ويذهب عنهم الخزى فى الحياة الدنيا .

هذا وانى أرجو أن أنشرح بقول جامع فى هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرّم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فاذا أفضت فى ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك خير معوان على تذكير أممنا الاسلامية بعدنا . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب فى الأرض» ما نصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام فى جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ؛ لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوّة ، ولكنه منعهم مماوراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا فى دار الفتح أن لايبنوه فى مكان يحول بينه و بين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزّق ، ورغبة منه فى استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار مافيها من غلة أومال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (المحراث) مادخلت دار قوم إلا دخله الذل » [1] ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التى بنوها فى صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال [2] ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يترك فى جزيرة العرب دينان [3] وأن لايأتى الحج أحد من المشركين [4] فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ (٢) الجزء الاول من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى
(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ١ (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣

عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ، ويباعون بالعشرات اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الأول ، وما تبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية فى افريقية ٠٠٠ ر٣٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٠٠٠ ر٦٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا (١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٠٠٠ ر٣٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم (٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة فى بلاد الترك وغيرها

و بلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة فى الهند ٠٠٠ ر١٠٠ نفس (٣) ، وفى وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ ﻫ بقيادة ابراهيم بن ينال سبى المسلمون ٠٠٠ ر١٠٠ رأس غير الدواب (٤) وفى جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة فى السرعة كما فعلوا فى واقعة عمورية سنة ٢٢٣ ﻫ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين فى واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ ﻫ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم (٥) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان (٦) و بلاد البربر وغيرهما

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ — (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ — (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ —
(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) المقريزى ٣١٣ ج ١

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال أن أول من استنبطها (سميراميس) ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفى التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد يوستنيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية فى ميسيا الشهير الذى قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وممن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان فى أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهن ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة

من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فأسبانيا إلى افريقية ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الأسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم فى فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرى وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعربها العرب صقلبي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة فى تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) فى الفرنساوية و (Sklave) فى الجرمانية و (Slave) فى الانكليزية .

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لاينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى فى المدينة معدن الغناء فى ذلك العصر [١] وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من فتان الناس بغنائهم [٢] وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سمع مغنيا فى عسكره ،

(١) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ (٢) الأغانى ١٣٠ ج ٢

فطلبه ، فجاءوه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول ، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى [١]

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين فى المدينة لمثل هذا السبب ، قيل إنه كان فى بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفى الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه فى الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال: هدر الجمل فضبعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل فى المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك . اخص من قبلك من المخنثين المغنين ، فخصاهم [٢]

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ، ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لذة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال [٣] » اهـ

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله فى أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها . لها ثمانية عشر غصن من الذهب والفضة ، لكل

(١) الكامل للمبرد ٣٣٧ (٢) الأغانى ٦١ ج ٤ (٣) الاغانى ١٣٤ ج ٦

غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير ، وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (١) .

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق فى بنائه ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار (٢) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولايزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، فمنها فى قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبدالرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكامل والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرستق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة (٣) اه

(١) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ (٣) نفح الطيب ٢١٠ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لايزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال انها سميت (الحمراء) نسبة إلى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخما فى بجاية أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا أنها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها	وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأنّ سكونها متحرّك	فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	اقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعا فقدّر سردها تقديرا[١]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسى ، فانه أنفق فى بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها

(١) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١

قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لايفتر والمأمون قاعد فيها[1]

البذخ فى الألبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درة يستوفى الحد بها[2] وكان عمالهم فى مثل حالهم ، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه[3] ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً فى الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب فى أثناء ذلك ، فلما رآه فى أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أكسروية يامعاوية ؟[4] ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط فى العيش ، والتنعم باللباس ، وأحب الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة فى لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قميص وشى و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل[5] ، وفى أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخا فى أيام بنى العباس ورغب أهل التجارة فى حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر

---

(١) سراج الملوك ٥٠ (٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦ (٣) العقد الفريد ٦ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج١ (٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد٢٦٦ ج ٢

والخرز وهو ذكر الأرانب[1] والأبريسم حرير خالص والديباج نسيج حريرى موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاودارى والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون فى اتقان هذه الصنائع ، ويغالون فى ترفيعها لما يلاقونه من البذل فى ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدى الناس ، ولا سيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لايبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الدبيقى خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من أقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة فى البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء ، مثاله ما خلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو:

عدد	
٤٫٠٠٠٫٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٫٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٫٠٠٠	من الملاءات
١٣٫٠٠٠	من العمائم المروية .
١٫٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٫٠٠٠	من البطائن التى تحمل من كرمان فى أنابيب القصب .
١٨٫٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية .

(١) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذو اليمينين وفى خزانته ١٫٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا فى تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير . اه

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالألوف من ذلك ١٠٠٫٠٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ومراتب خسروانى وقلمونى ثمن الواحدة ٣٫٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسروانى الأحمر المذهب ، و٣٫٠٠٠ قطعة خسروانى أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه و بسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج إليه

ومن أدلة الترف والاسراف فى هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر ؛ و بستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اه

أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى فى أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناعونهن ؛ و يغالون فى رفع أثمانهن ، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل فى هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون

درهم[1] (نحو ٧٠٠٠٠ر٧٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار[2] وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٠٠٠ر٣٦ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها « بذل » ، فأبى ، فأمر فأوقروا قار به ذهبا ، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠ر٢٠ درهم[3] أى أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صحّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم فى أثمان الجوارى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه مادون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال فى اقتنائهن اهـ

سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ، ويبكى وينتحب طويلا ، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف فبعث فى طلبه ، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندى أياد خضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر ابن المغيرة الدمشقى ، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى ، وأملقت إلى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياعا لا نفقة لهم ، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد فى صدرى ما أخاطبهم به ، فتحيد نفسى عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقمت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، فجلسوا

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ الاغانى ١٤٥ ج ١٥

وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيي على القاضى ، وقال زوّج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، و بنادق العنبر ، وتماثيل الندّ ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم فى يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدى كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه ، والصينية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقمت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحيي يلاحظنى من حيث لا أفطن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية ، فجئته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال علىّ بموسى ، فجاءه ، فقال : يا بنىّ هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذه إليك فأخلطه بنفسك ، فأخذنى وخلع علىّ ، وأمرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى ألذ عيش يومى وليلتى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوننى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيي ، فأقمت عنده يومى وليلتى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقمت والخادم يمشى بين يدى ، فأخرجنى من الدار ، فازداد مابى ، ثم أدخلنى إلى دار كأن الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وألزمنى من خراجهما مالا يفى به دخلهما ، فكلما لحقنى

نائبة قصدت دورهم فبكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجه على ما كان فى أيام البرامكة ، فبكى الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جميلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الأيمان [١] اهـ

التهتك

وطبيعىّ فيما قدّمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التهتك والفحشاء ، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا فى المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم كان فى جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا [٢] ، ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهتك أوفر فى المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوافر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الغناء والمسكر كما كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط فى إبان ذلك التمدن ، فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولا سيما فى العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة [٣] ، وتفننوا فى ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات [٤] ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم فى منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما فى امكانهم [٥] ، ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات [٦] .

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتايدى ١٣٢
(٢) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٢١٦ ج ١ (٦) المقريزى ٨٩ ج ١

وأقبح ما ظهر من التهتك فى أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم ، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم ، وفشا حب الغلمان فى أهل الدولة بمصر وتغزّل بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن الى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢)

وكثرة الجوارى فى بعض القصور جرهن إلى التفنن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٣) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، أو لأسباب أخر كان يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج (٤)

ذكروا أن ابنة الأخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمى ذلك ، وكان لا يزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيد استبشر . وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر فى آية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدى جنودهم فأرجو أن تبين لى ثلاثة أمور : ماالذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى لملوك الاسلام فى الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت :

أولا — إن الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق إنما هو زوال الملك وضياع

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقريزى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدم فى « سورة الكهف » فى آية : (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) فقد جاء التتار من الشرق وعلى رأسهم جنكيز خان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميراً لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لايحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله فى زكيبة مكظوم النفس فان أردت ياصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك[1] تحت عنوان « يأجوج ومأجوج »

يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا فى القرآن الشريف فى سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وقال فى سورة الأنبياء (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب الوعد الحق الآية) فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحاً عن وجوه التفسير التى ليس لها مساس به ولنحصره فى خمسة مباحث .

المبحث الأول فى معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثانى فى افسادهم فى الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث فى معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع فى ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الأول — أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من أجيج النار وهو ضوءها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم وذكر بعض المدققين فى البحث عن تأصيلهم ان أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس الذى سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا ان المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج

(١) هذا الموضوع فى سورة الكهف منقول من هذا الكتاب فى طبعته الأولى

ومأجوج وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من التيبت والصين إلى المحيط المنجمد الشمالى وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان كما فى فاكهة الخلفاء وابن مسكوية فى تهذيب الأخلاق وفى رسائل اخوان الصفا فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثانى — الكلام على افسادهم فى الأرض . وقد ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الأمم كانت تغير قديما فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا ان منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا فى قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم فى القرآن كما تقدم وفى بعض الأحاديث أيضاً ثم انهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لايتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة إذ ظهر منهم رجل يسمى تموجين لقب نفسه جنكيز خان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحا لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى فى أوائل القرن السابع من الهجرة فانه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولا ثم ذهب إلى بلاد الاسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين ابن ارسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع مالم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة

ولا صبي ولا صبية فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعا ولقد حسبوا القتلى فى مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع جنكيز خان التى لاتحصى عدا أربعة وعشرون قتيلا وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فصلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرها وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات كالقطط والكلاب وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة مرو فكانوا مليونا وثلاثماية وثلاثين ألفاً هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء وقس على ماذكرناه جميع البلاد التى سنذكرها فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قفوله من غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاى أغار ابن أخيه المدعو باتو على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا و بلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات اقطاى فقام مقامه جالوك فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقام ابن أخيه منجو فكلف أخويه كيلاى وهولاكو أن يستمروا فى طريق الفتح فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثانى إلى الممالك الاسلامية وقد فعل كل منهما ماأمر به فأخضع كيلاى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الاسلامية ومقر الخلافة العباسية وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات فلم يفلح وأخذت بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهراً وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم وهذا الخليفة بعد ماأحضر لتسليم مالديه من الكنوز التى لاتحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته فى ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد و به انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة كبلاى بالصين والمغول وملك جاغاتاى أخو اقطاى لتركستان وملكت ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا وصارت الروسيا تدفع الجزية اليها زمنا

طويلا وانضمت بلاد الفرس إلى هولاكو الذى دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام

المبحث الثالث — قوله تعالى « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » أى فتحت جهتهم على أحد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة فى أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا فى التاريخ وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فان أول من يسلب أمتى ملكهم بنو قنطوراء) أى الترك مع ملاحظة ما ذكرناه فى التاريخ أنه لم يسلب الأمة الاسلامية ملكها الا هؤلاء وقد ورد أيضا فى حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون فى الشام وساقتهم بخراسان فهذه إشارة الى سيرهم واتجاههم وطريق ومنتهى ملكهم إذ لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا افريقيا وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلها معجزة ظاهرة ثم أن جنكيزخان هو المراد بحديث (يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المقدم ذكره فى التاريخ قتل رسل جنكيزخان والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما معناه .

كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الاتقياء أو تعادوا من لا عاد كم فى كدره صفو عيش من صادقكم وصافاكم أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون

الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم أوما أخبركم مخبروكم و بلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ما تركوكم) وكيف تؤذون الجار. وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أوصابه ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه (الا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج . وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله فى بريته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان — وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان وهذا مصداق مارواه البخارى بسنده عن ام حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب ابنة جحش . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون فقال نعم إذا كثر الخبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم .(انظر هذا المقام فى تفسير سورة الكهف فان هذا السد أصبح مما كشف حديثاً)

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد فى المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التى لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ماجاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات

ثم إنه كان بين بلاد جنكيزخان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كأنها حد فاصل بين الدولتين أوسد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقى واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر . وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان إذ ذاك

فى نيسابور عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الارض بدموعهما فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وأنتم تعدون هذا الثلم فتحاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً و إنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ونص فى فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما فى حينه كما قدمناه وظهر التتر وأفنوا المسلمين وماج الناس بعضهم فى بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوربا

المبحث الرابع — قوله تعالى (من كلّ حَدَبٍ ينسلُون) الحدب ما ارتفع من الأرض و ينسلون أى يسرعون فى النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والافرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا

المبحث الخامس — قوله تعالى واقترب الوعد الحق أى القيامة و يؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى . (ونُفخَ فى الصُورِ فجمعناهُم جمعاً) فى مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه و بين الساعة ألا ترى قوله تعالى (اقتربَتِ السّاعَةُ وانشقَّ القَمر) وقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت انا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثلثمائة وألف سنة فهكذا قال فى آية يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فكلاهما اقتراب . ورب قائل يقول أين الاقتراب فى الموضعين قلنا معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الاحصاء وما بقى من عمر الأرض الطبيعى قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعداً و يعده الله الباقى الدائم قريباً قال تعالى : (إنَّهُمْ يَرونهُ بعيداً ونَرَاه قَرِيباً) فآلاف السنين لا تنافى القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله إذ من البديهى أن الآلاف لا تذكر فى جانب الملايين ولذلك ورد فى حديث أبى سعيد الخدرى

رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا و يعبدون الله عز وجل وأما صفاتهم المشهورة فى القصص و بعض الآثار فكثير منها لاأصل له أو ضعيف الرواية وليؤول الصحيح منها أن خالف حقيقة هذه الأمم على قاعدة وجوب تأويل الدليل النقلى ليوافق العقلى الذى قطع ببرهانه فاذا صح أن الأرض اكتشفت بتمامها وأن الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجود أمة مجهولة وجب المصير الى ماقلناه فى فى هذا المبحث أو نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا مما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد فى مجلة الهلال فى آخر القرن التاسع عشر

ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام « ويل للعرب من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ » فيما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه الشديد و بين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما كتبت ورأيت ان هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج وجاء مصداقا للقرآن والحديث فالحق أقول أن هذا النبى والكتاب المنزل عليه لمما يدهش العقول وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ولكنه اجمال لايشفى غليلا ولا يؤخذ حجة لاجماله ولقد فصل فى رسائل قديمة الفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا وكانوا كفاتحين للعالم كله فكانوا أشبه بأهل أوربا الآن فكأنهم أخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر أن بينهم نسباً ورحماً فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء العظيم منهم وها هى منشوريا تتجاذبها الروسيا والصين و بلادهم

تبلغ فى العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الاقاليم التى اعتبرها الاقدمون هى الحدود المعروفة لاقسام الأرض وهى مبنية على مقادير العرض الذى لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الأقدمون والحكماء الغابرون والأنبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض وغابت عنهم أمريكا والاقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحيلولة الجبال والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومى اليونانى وتبع الحميرى وأفريدون النبطى وأزدشير بن بايكان الفارسى وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الاسرائيلى وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية أما فى حال الهرم وهى وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما أطفال ولدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره .

فيا عجبا كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضا وطولا ونحن لا نعلم منها شيئا ، وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل فى الوجود ونجهله نحن ولعمرى أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الأقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه فى الكون مثل قوله تعالى (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْء) بل لو لم يكن للنبى معجزة سوى هذه التى ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لأعجب من ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب الخ ثم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقى خليفة رسمى فى مصر وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وأما أولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا فكما ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط

الساعة وسماها العلماء الأشراط الصغرى إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى بإبادة أمة أو أمم فاذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود

ولقد أوضح الرسول الصادق أموراً كثيرة لايسع المقام ذكرها الآن ولنقصر عنان القلم ففيما ذكرناه عبرة وتذكرة انتهى الكلام على المقام الأول

ثانيا — ان الذى جرى لأمراء الأندلس هو الذى جرى لملوك العباسيين فى الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثاً فى عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (برّاقا) قابل الأذفونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضاً معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لايصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخمر ، ولايفل الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً فى أقل من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب، فهم يخدعون بسهولة بالطواهر المموّهة ، فاجعلوا بينكم و بينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقا بها ينشون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون الحمية الدينية التى تحببهم فى الحرب، فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلميهم، و يبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهى التى تضعضع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهى الآن محرمة ، فتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وغشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ ، والاسراف فى الشهوات . و إهمال سير

الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس . وشكر برّاقا على إخلاصه . وفى الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا و بارونات أوربا ببرّاق وتحادثوا مليّاً و كتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالاندلس فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك ابن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة و بلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى ابن أبى عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب إبريز ، فنزلوا جميعا برصافة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصراً فخماً تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر بهج الجوانب لو مشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب و بقى الأمراء فى ضيافة مالك ابن عباد شهراً :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن بنى عامر صاحب بلنسية فانه بقى مع الأمير يقضيان الزمن فى اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فانحطت الدولة بذلك ، وزاد فى افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان فى أنحاء الأندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون فى أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت متنزها جميلا يؤمّه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : لقد جددوا فى عام هـذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن

شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشريعة) فأقبل العرب على تلك المدارس، واختلطوا بالقسيسين والرهبان وتعلموا لغاتهم وجاروهم فى عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر فى بلنسية فان المبشرين والمعلمين تدخلوا فى كل شىء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة » .

ولقد لعب برّاق بن عمار دوراً مهماً هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل ابن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط المدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسر خفى فى نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا وعده فيه بأنه يؤمله أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته فى أى وقت شاء . ثم أن برّاقا وفى بعهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة فى قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى « شيل » يرافقه فى أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يا برّاق ؟ فقال اختبره إن شئت فقال مالك لتتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا و إن غلبك جعلته من قوادجيشنا ، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائداً وقرّبه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة فى البلاد ، ولا سيما الخمر

قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوربا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمراً ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ،

وهم المتعلمون من أبناء المسلمين فى مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

(١) فشربوا الخمر نهاراً جهاراً .
(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
(٣) وحقروا عوائد آبائهم .
(٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
(٥) وأهملت تعاليم البلاد .
(٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة فى حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين فى عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لايليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سبباً فى الحرب بينهما فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا و باروناته نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفناً تحمل جنداً تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخربوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن حمود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لايبدون حراكا حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المرية ، وهذه أول نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين)

وفى اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن

عبد العزيز يراسل الفرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكلمه فى ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الأنكار لايفيده أخبره بالحقيقة محتجاً بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون لايبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لابقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلماً ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن ؟

فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء فى الخيانة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (أذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، فجزاؤك كجزاء سابور ذى الأكتاف للنضرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون فى ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة فى نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها والسيدة الجميلة بحضرة زوجها ، فيترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه

وقد قال ابن زياد : إن الذين قتلوا فى (بلنسية) ظلماً بسبب الدفاع عن العرض ١٣ ألفا ، والذين قبلوا لابائهم الدخول فى دين الغير ٣٠ ألفاً ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدياً خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقة) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند فى قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم أن ابن أذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بأحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون أنه إنما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوه .

مصير براق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زماناً معظماً فى قرطبة عند مالك ابن عباد حتى

سقطت بلنسية ، وحضر قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ؛ فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الأذفونش إلى جندل ابن حمود ووعده بالنصر على بقية ملوك الطوائف ؛ وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفى شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ؛ ففرح جندل بهذا الخطاب ثم توجه براق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ؛ فسلم كتابا معه من ابن الاذفونش إلى القنبطور أى القائد ؛ وفيه : « إننا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جندو يحضر ابن مردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضى كادية معاهدنا فيكون تحت رأيك ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ؛ ففتح أشبيلية فى شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيراً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة فى الوقت الذى تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، و بينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت امره القائد (كولى) تبيح أشبيلية ، حلا لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل بن حمود الذى ظن أنه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم فقتلوهم تقتيلا فنادوا الأمان

أما مالك بن عباد فانه بقى فى سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الأذفونش فانه جلس فى قصر الامارة ، واستحضر خمسين بكراً من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما براق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اهـ

وجاء فى كتاب تاريخ العرب فى الأندلس للاستاذ حسن مراد ما يلى :

مما شيد عظمة الدولة لأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التى جعلت للاسلام عالما مترامى الأطراف نشر فيه مدنية وعلما ودينا جديدا وتقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس و إذا ماراجعنا ماتقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس و يرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق و إقدام موسى بن نصير ثم لانلبث أن نرى عودة هذين القائدين ومصير الأندلس الى الولاة وكان خروج موسى عام ٩٦هـ واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفى تلك المـدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ومما يلفت الأنظار :

تعـدد الولاة وظهور العصبيات وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدى حتما الى تفرق الكلمة وضعف القوة ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا فى فتح الأندلس وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية

كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الحال الى الفوضى والثورات الداخلية وليس أدل على ذلك مما كان من أمر صميل وأبى الخطار وثورة جند الشام ومصير الأمارة الى يوسف بن عبدالرحمن الفهرى ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين وانقسام الناس على بعضهم مما جعل المؤرخين يقولون أن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس أو عديم الوجود وما كان للأمويين فى آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف

و بينما كان الأندلس تسير فى حالتها هذه دبر الأمويون بها نقل الامارة إلى

أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام واستعان بجند اليمن و بعض البربر ودخل عبد الرحمن الأندلس وانتصر على يوسف وصارت له الامارة

فشيد ملكا للأمويين دام ثلاثمائة من السنين ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف فنرى الداخل يخضع الثروات بقوة السيف و يغزو الشمال حيث كان المسيحيون وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادى المكانة الأولى فيه للسيف وتبعه على سياسته من خلفه ولما كان هذا النوع الحكومى لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا وإذا ما أغمد ثاروا وعملوا على استرجاع حرياتهم

تعددت الثورات فى عصر الداخل نفسه وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده فى عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الاندلس وانتشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى ابن يحيى وعيسى بن دينار وغيرهما طلبة العلم وحرضا الغوغاء على الثورة فقامت فتنة كادت تسقط أمارة الحكم ولكنه انتصر بقوته وعاقب الخارجين أشد العقاب

وبموت الحكم بن هشام وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثانى يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى :

(١) انشغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ونصر الخصى فتسربت الفوضى إلى البلاد فأدرك ما كان من خطئه وأسرع إلى إصلاح ما فسد

(٢) وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالى بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا وما لبث أن بسط موسى الثانى نفوذه على أرجونة والاقاليم الشمالية وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ولا شك فى أن تدخل المسيحيين فى أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ريا على مقاتلة الامارة الأسلامية ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا أو تعيد الى الامارة عظمتها الأولى ولما آل الملك الى عبدالله ابن محمد ساءت الحال جدا : قامت العصبيات و بلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة فعمت الفوضى وأصبح ملك الأمويين على قاب قوسين أو أدنى من السقوط وفى هذه الحال مات عبد الله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة اذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمر العصر الذهبى مدة الناصر والحكم الثانى المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبدالملك المظفر وعبدالرحمن المأمون وفى ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدا : تبدل ضعفها إلى قوة فأخضعت الثورات وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالى الأندلس وأذلتها ولم ينل منها الفاطميون مأربا وسارت البلاد فى طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة . وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء فى صميم فؤادها وذلك بما كان من أمره مع هشام الثانى حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر

فلما عجز ثانى الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموى بالأندلس إلى سقوطه الأخير ومميزات هذا العصر

(ا) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لادراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة

(ج) ظهور دولة بنى حمود بمالقه وانتقال الخلافة اليها وصارت لعلى بن حمود أولا ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن على بن حمود ثم للقاسم ثانية ثم ليحيى لثانى مرة ولكنهم لم يفلحوا فى الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففى عهد المستعين المروانى اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاثة مدن حولها ثم كانت خلافة المرتضى ثم المستظهر ثم المستكفى ثم هشام الثالث ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس الى التفكير فى اسقاط الأسرة الأموية نهائيا وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(٥) ولابد أن نضيف الى ماتقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائى نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ويقول لينبول أن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ اهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر

(٦) ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلى للخلق العربىّ مما أدى بهم إلى

نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس في الترف والنعيم وكيد بعضهم لبعض وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض

لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً : كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس وكان خلاص المسلمين على أيدى المرابطين لزمن محدود ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلا وفى آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بنى الأحمر بغرناطة فشيدت أثرا باقيا ومجدا دونه لها التاريخ فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد فرديناند وايزابلا فاسقطا المعقل الأخير من المعاقل الاسلامية وبادت دولة الأسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدنية والحضارة انتهى الكلام على الأمر الثانى

ثالثا — الكلام على خراب الاندلس كما خربت بغداد والمملكة العباسية

جاء فى تاريخ العرب لسديو مانصه :المبحث الرابع : فى إعدام النصارى سلطنة غرناطة من بحيث جزيرة أسبانيا

تنازع السلطنة يوسف الرابع الحمار ومحمد السابع فاستمد أحدهما دولة قسطيلة الاسلامية فأمدته بجنود نصروا على خصمه فى صحارى غرناطة سنة ١٤٣٢ فكان ذلك الاتقاد الثانى للحروب بين مسلمى أسبانيا ومراكش وأما ماكان من سادات أهل قسطيلة ومشايخ العرب الذين يودون إظهار البأس والشهامة الحربية من الغارات على بلاد الأعداء فكانت منازلات لم تستدع حربا عامة بين هاتين الأمتين

وتولى سلطنة غرناطه سنة ١٤٦٥ السلطان حسن المعروف بالشجاعة وحب الوطن لكن رماه أهل غرناطة بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقله مع اختياره ولدها أن يكون خليفته دون ولده أبى عبد الله بن السلطانة زوريا فكان بينهما عداوة ازداد بها ضعف هذه المملكة سنة ١٤٧٦ بخلاف مملكة قسطيلة فان عظماءها

وان أوصلوا هنرى الرابع إلى أقصى درجات الحطة والمذلة لـكنهم انقادوا بعد وفاته سنة ١٤٧٤ لابنته ايزابلا المتزوجة فرديننـد ملك مملـكة نوارة والوارث لملك مملـكة أراغون ثم كان لهذين الزوجين سنة ١٤٧٩ التصرف فى الممالك الثلاث كيف شاءا طلبا من السلطان حسن الجزية التى كان والده يؤديها فأبى قائلا للسفراء اذهبوا فقولوا لأسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب ولـكن حديد لأعدائها ثم دهم مدينة زهرة وأخذها سنة ١٤٨٠ فأخذ أهل قسطيلة مدينة الحما المعضدة لغرناطة التى سار عقب ذلك لأخذها فالتهبت نيران الحرب الداخلية

وعزل أصحاب الامير أبى عبد الله اباه حسنا عن السلطنة وولوا ابنه فاظهر للناس نصرته على نصارى قسطيلة فى واقعة لقصة المقتضية أنه أولى بالسلطنة من ولده ولم يجد ذلك نفعا فأقام بريف غرناطة ثم عاد إلى السلطنة يسيرا ووقع ابنه عبد الله الجبان فى أيدى نصارى قسطيلة وهم يحاربون مع فتور همتهم وأطلقوه سنة ١٤٨٤ لعلمهم ان عزله أباه يساعدهم على بلوغ مآربهم أكثر من النصر على أبيه الذى ألزم بخلع السلطنة على عمه المعروف بالزجال واحتقر أبناء الوطن أبا عبد الله فترجى فرديننـد أن ينصره فأجابه وأغار حالا على مملـكة غرناطة فأخذ مدائن الويجا وهزم الرجال أمام مدينة لورقة فتنازل عبد الله عن غرناطة سنة ١٤٨٦ لفرديننـد الذى رخص لابى عبدالله أن يدهم جميع مملـكة الزجال فحاصر أبو عبد الله ملاغة وأخذها ثم وجه عساكره إلى مدائن المرية وبازه وورا فبذل الزجال وسعه فى القتال حتى يئس فأمر الناس أن يسلموا نصارى اسبانيا وسلم هو مملـكته إلى فرديننـد الذى أعطاه بدل ذلك اقطاعات واسعة بسائر مملـكته سنة ١٤٩٠ وألحق أهل غرناطة برعاياه فى الاعتبار وحفظ الحرية والاموال والاعلان بشعائر الدين والخراج الذى كان يؤخذ منهم سابقا ورأوا من سلوكه دلائل الهدو الدائم فانقاد لحـكمه من حلفوا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى تنفد وسائلهم الحربية لـكن بعض المسلمين حرض على الغدر بالنصارى وشهروا السلاح وحصنوا غرناطة مصرين أن يموتوا تحت أطلالها فهرب الملك الزجال إلى افريقيا فتمثل فرديننـد

فى تاسع مايو سنة ١٤٩١ بثمانين ألفا أمام أسوارها ووكل عبد الله رؤساء رجاله فى المدافعة عن تلك المدينة التى قاسى الأهوال فى حصارها نساؤها وأطفالها وشيوخها وتنافس جميع أهلها فى صد العدو وبنت الملكة ايزابلة هناك مدينة سنتافية إعلانا بانها لا ترحل قبل فتح غرناطة وقطع فردينند اختلاط أهل غرناطة بغيرهم حتى ضاق بهم الامر فخرجوا على النصارى مخاطرين بأنفسهم فهزمهم النصارى بجوار أسوار المدينة وطلب فردينند من أبى عبدالله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليها مدد فى بر أو بحر ووضع امضاءه على شروط بذلك فاستنجد أهلها سلاطين افريقية والقسطنطينية فبعث ملوك القسطنطينية دون غيرهم سنة ١٤٨٦ سفنا اقتصرت على تخريب سواحل بحيث جزيرة اسبانيا فخاف أبو عبد الله من قيام أهلها عليه وسلمها قبل الميعاد إلى فردينند الذى رتب له اقطاعات كافية فى أرض البوقساره ثم أقام أبو عبد الله فى صحارى افريقية لما ركبه من العار والذلة ونصب النصارى على ذروة قلعتى الحمراء والبايسين أعلام سلطنة قسطيلة وأعلام سنجاق (مارى يعقوب) وزينوا مسجدها الاعظم بحلية العبادة النصرانية القاثوليقية وأمر القائد (كزيمينيس Ximesen) باحراق الكتب العربية المحفوظة منذ قرون ووضع فردينند يده بلا ممانع على المحطات المهمة فى الجبال وعلى مملكة غرناطة فانقضى من اسبانيا حكم العرب الممتد من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية

وكأن زوال سلطنة غرناطة اعلام بموتهم فانهم لم يسألوا بعد أخذها عن شروط التسليم المشتملة على تمتعهم بالحرية والمال والسلاح والدين والمساجد والعوائد وبقاء ترتيب القائدين للجنود والقضاة المكلفين بالحكم فى الدعاوى على مقتضى الشريعة الاسلامية وعدم الجبر على تأدية شىء سوى الخراج والتكاليف التى كانوا يؤدونها لملوكهم المسلمين

المبحث الخامس فى السياسة التى سلكها ملوك اسبانيا مع المسلمين المطرودين عنها سنة ١٦٠٩ ميلادية

لم يقصد فردينند بشروط تسلمه غرناطة إلا الحصول عليها لا إجراء تلك الشروط

التى منها التمتع بالدين فانه رأى أن المسلمين بكثرتهم وغناهم وحبهم للاستقلال ربما كانوا مانعين نفوذ حكمه فصمم رأيه على أن يسلبهم العبادة الاسلامية والأخلاق العربية شيئاً فشيئاً ولم يبدل ذلك أول وهلة خشية ألا يتجح مقصده فاتخذ متجسسين على التدين بدؤا بمدح أهل قسطيلة وماهم عليه من الصلاح والاستقامة ليأمنهم المسلمون و ينسوا ما كانوا عليه من سوء المعاملة وأوهموهم أنه يجب عليهم العمل بشروط التسليم بغاية الدقة وأنهم لايؤذون إلا اليهود المالكين لحصة عظيمة من أموال البلاد أو الذين رحلوا من وطنهم (غرناطة) أو تركوا دين آبائهم ودخلوا فى دين النصرانية وأوقعوا سنة ١٤٩٢ بهؤلاء من العذاب أنواعاً أفزعت المسلمين والمتجسسون إذ ذاك يدعون إلى التصرانية المسلمين الخائفين أن يحل بهم ما حل باليهود من سوء العذاب ثم أعلنت النصارى بمنع التدين بالاسلام وأغدقوا بالذهب على من استنصر ثم حكم فردينند سنة ١٤٩٩ بطرد من لم يستنصر من جميع أسبانيا فانقاد ظاهراً للذهاب إلى الكنائس لعبادة المسيح المسلمون بسائر المدن إلا سكان جبال البوقسارة فلم يمتثلوا وشهروا السلاح فهزمهم هذا الملك وأتلف مزارعهم وأخذ أموالهم وطردهم من البلاد نعم تحمل النصارى أن يتدين بدين الاسلام أهل والنسة التى صنائعها أحد الينابيع الأصلية لرفاهية أسبانيا حتى ولى السلطنة شرلكان كرولوس الخامس سنة ١٥٢٤ فألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر فاشتكوا ذلك إلى شرلكان فلم يصغ لهم وأحالهم على محكمة تحقيق الدين وعقوبة المعترلة عن طريقة القاثوليقية فحكم أرباب المحكمة بإكراه المسلمين على التنصر وسعى رئيس أساقفة اشبلية لدى هذا الملك حتى حكم سنة ١٥٥٢ بمنع مسلمى غرناطة فى يوم واحد من عوائدهم القديمة ولباسهم والتكلم بلغتهم ورتب لتحقيق دعاوى المخالفين لذلك الأمر محكمة مخصوصة ودفع المسلمون سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيلبس الثانى ثمانمائة ألف دوقية (دينار) ليخفف عنهم ذلك فكفت عنهم أرباب الحكومة إلا أن الرعية مازالوا يتمادون فى عدم التحمل للتدين بالاسلام شاهرين السيف باليمين والصليب باليسار مقتفين أثر المسلمين فى كل جهة حتى الجبال

وبالجملة أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمراً من الملك فيلبس الثانى بمنع اغتسال المسلمين من الحدثين والرقص المغربى واستعمال اللسان العربى وخروج النساء متبرقعات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودة مع مغاربة افريقية فتبعهم المركيز (منديار Mondejar) القائد النصرانى فالتجئوا إلى جبال تابعين قائدهم محمد بن أمية المدعى أنه من نسل بنى أمية خلفاء قرطبة الأول واستمرت الحرب بينهما سنين حتى بدأ الشقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية فخلفه عبد الله فأخذ منه (دون حنا وتريش Don juan'd Autriehe) سنة ١٥٧٠ معظم عساكره الذين انقاد بعضهم للنصارى وبعض ذهب إلى افريقية ووزع النصارى الساكنين بجبال البوقسارة على استورية وغاليسة وقسطيلة تحت الملاحظة الشديدة وأمر الملك فيلبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمى والنسة ومرسية فنقلتهم سفن إلى سواحل افريقية واجتاز منهم كثيرون جبال برينيه فقبل نزولهم فى فرنسا ملكها هنرى الرابع وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر فى البحر إلى مينا غينة ومينا لنجدوق

ووجد بعض المؤرخين المسلمين المطرودين من أسبانيا منذ فتح النصارى غرناطة إلى سنة ١٦٠٩ ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة فدرست معالم عز أسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة ننتس سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب القاثوليقية ذوى الصنائع العظيمة

للسيد يحيى القرطبي

وقد أصبح فى حال تعد المنايا أمانيا ويرى الموت لضعف الدين طبيبا شافيا

وقد أسر بالأندلس وذلك فى عهد السلطان سليمان :

لكل شىء إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وعالم الكون لاتبقى محاسنه ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهرُ منا كلَّ سابغة إذا نبت مَشرفيات وخُرْصان

ويتنضى كلَّ سيف للفناء ولو كان ابنَ ذى يزن والغِمد غمدانُ
أين الملوكُ ذوو التيجان من يمن ؟ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ماشاده شداد من إرَمٍ ؟ وأين ماساسه فى الفرس سَاسان ؟
وأين ماحازه قارون من ذهب ؟ وأين عاد وشداد وقحطان ؟
أتى على الكل أمرٌ لامردّ له ! حتى قضَوْا فكأن الكلّ ما كانوا !
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك كما حكى عن خيال الطيف وسنان !
دارَ الزمان على دارًا وقاتِلِه وأمَّ كسرى فما آواه إيوان !
كأنما الصعبُ لم يسهل له سببٌ يوما ولم يملُك الدنيا سليمان !
فجائع الدهر أنواعٌ منوعة وللزمان مسراتٌ وأحزان !
وللمصائب سلوانٌ يهوّنها وما لما حل بالإسلام سلوان ! !

* * *

دَهَى الجزيرة خطبٌ لاعزاء له هوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثهلان
أصابها العينُ فى الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
فسَل بَلَنْسية ماشأنُ مُرسيةٍ وأين قرطبةٌ أمْ أينَ جيَّان
وأين حِمص وما تحويه من نُزه ونهرُها العذبُ فياضٌ وملآن
وأين غرناطةٌ دارُ الجهاد فكم أُسْدٌ بها وهُمُ فى الحرب عُقبان
وأين حمراءها العليا وزخرفُها كأنها من جِنان الخلد عدنان
قواعدٌ كُن أركانَ البلاد فما عسى البكاء إذَا لم تَبْق أركان

* * *

تبكى الحنيفيةُ السمحاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هَيْمان
حتى المحاريبُ تبكى وهى جامدةٌ حتى المنابرُ تبكى وهى عِيدان
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد أمست كنائس ما بهن إلا نواقيس وصلبان

يا غافلا وله فى الدهر موعظةٌ ... إن كنتَ فى سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنُه ... أبعدَ حِمص تُغرُّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ماتقدمها ... وما لها مع طول الدهرِ نِسيان

* * *

يارا كبين عِتاقَ الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوفَ الهند مرهفةً ... كأنها فى ظلام الليل نيران
وراتعين وراء النهر من دَعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أمر أندلس ... لقد سرى بحديث القوم ركبان

* * *

كم يستغيث صناديد الرجال وهم ... أسرى وقتلى فلا يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكمو ... وأنتمو ياعباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أبيّات لها همم ... أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يامن لنُصرة قومٍ قسموا فرقا ... سطا عليهم بها كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليوم هم فى قيود الكفر عُبْدان
فلو تراهم حيارَى لادليلَ لهم ... عليهمُ من ثِياب الذل ألوان
فلو رأيت بكاهم عند بيعهمو ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

* * *

يارب طِفل وأمٍّ حيل بينهما ... كما تفرق أروح وأبدان
وغادة مثل حسن الشمس إذ برزت ... كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج عند السبى صاغرة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

الأمم الاسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد على باشا حذت حذو الدول الاسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والغناء والخمر والغزل ، فهى مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التى ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد على باشا ، وقد أخذت انكاترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، فقد كان فى اصلاحاته كما يقول البارون دى ملورسى « كالبانى الذى أراد أن يبنى بيتاً يكلفه مالا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الأوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه » (١)

ولا ريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضح كاتب انكليزى (سيموركى) فى سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيق (أى المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ فى المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون أنهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (رُوتشلد وأو بنهايم) وغيرهما من أصحاب رءوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة فى انجلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان فى عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعليا منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون فى الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انجلترا تحول دون حل المسألة حلا ماليا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضمانة للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد

(١) هذا منقول من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن منقول من كتاب كشف الستار عن سر الاسرار تألف عرابى باشا

كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائيين سياسيين فى زى ماليين لاصلاح الأمور من جديد وايقاف الحاكم المستبد عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التى كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم قلق المصريون على مستقبلهم اه . وجاء فى صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتى :

سر مكنون

وفى ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (ثغر من ثغور إيطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الابيارى إمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : (ياليته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها) . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودعا والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ،فضمه والده ثم قال له : (لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر الآل براً . واعلم أنى مسافر ، و بودى لو ستطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك فتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالا من أبيك » وكان من أشد المناظر تأثيرا فى النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب و يرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزنا وغما ، ثم سار

القطار الخصوصى حتى وصل إلى الاسكندرية . إنتهى ما أردته من الكتاب المذكور

هذا ولقد سمعت أن عالما ألمانيا ألف كتابا وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه هذه نسخة من حياة أمم الاسلام قديما وحديثا . فقال صاحبى : وماذا تريد من أمم الاسلام المستقبلة ؟ فقلت : أمم الاسلام المستقبلة ستكون غيرالامم الاسلامية الماضية ، هذه الأمم التى بعدنا سيدرس رؤساؤهم ما كتبناه فى كتبنا وفى هذا التفسير ، وما كتبه الكاتبون فى زماننا هذا وهو زمن النهضة الحقيقية الاسلامية وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الاسباب لاستكناه علم التاريخ تختص به جماعة فى كل دولة اسلامية ، ويتباحثون و يستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون فى السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة فى التاريخ وتكون هناك جماعات جماعات فى سائر العلوم والصناعات ، هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الامراء من بينهم لمدة معينة كخمس سنين أو عشر سنين أونحو ذلك ولا يراعى فى ذلك إلا قوله تعالى « وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشا وهو وأمته أغزر علما من الامراء الآخرين فهو حتما الذى يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون فى المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون فى الاسلام .

المبحث الثالث

فى حال المسلمين فى عصرنا الحاضر

لقد مر بك أيها الذكى فى المبحثين السابقين ما كان من شأن المسلمين ارتفاعاً وانحطاطاً سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا إذ يقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

ساق الله هذه الآية من قلب الصحراء لتكون نبراساً للناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور فتم ذلك ولكن بعد قليل من الزمن أخذوا يقلدون القياصرة والأكاسرة وتناسوا عهدهم الأول من عزهم ومجدهم و بأسهم وأخذوا يقتتلون على الخلافة وجهلوا

أن الله عز وجل لن يسلم قيادة الأمم إلا لأقوام يحلون من عباده محل الشمس والنجوم من عباده بحيث يسوسونهم ويحافظون على كيانهم ولا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وإنما يكونوا خلفاء الله عليهم كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده فكانت الدنيا فى قبضتهم وهم فيها زاهدون فأما الأمويون والعباسيون وأهل الأندلس وغيرهم فأنهم أخذوا يتدلون انحطاطاً كما تقدم إيضاحه وإياك أن تعجب أيها الذكى مما أقول الآن وهو أن الله لا يملك عباده إلا للمخلصين فى خدمتهم الخ ما تقدم فان لى عليه دليلين دليلا دينياً ودليلا علمياً

أما الدليل الدينى فذلك أن الله يقول (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وهؤلاء الصالحون هم الذين يسلم المسلم عليهم كل يوم فى صلاته فيحيي ربه ويسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أما تحيته لله فانه هو المنعم وأما تسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم فلأنه هو الذى فتح باب الخلافة الصادقه ورقى الانسانية مع زهده فى مالها

وأما السلام على عباد الله الصالحين المذكورين فذلك أنهم أمثال أبى بكر وعمر يريدون السلام فى الأرض ولا مطمع لهم من القيام بخدمة عباده

لاسلام فى الأرض إلا حيث تكون الشورى والشورى قام بها صاحب الرسالة وخلفاؤه الراشدون فهؤلاء هم الصالحون الذين يورثهم الله الأرض وقد ورثوها فعلا كما تقدم فأما ملوك الاسلام الذين سموا أنفسهم خلفاء فانهم لم يريدوا غالبا إلا الملك

ومن لم يرغب من الملك إلا المال فستحيل صفه العيش له ولا بد من ذهاب دولته عاجلا أو آجلا فلذلك ذهب الملك من أيديهم بعد أن جهلوا ما جاء فى قصة فرعون إذ استشار الملأ حوله فى أمر موسى فقال لهم إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون

وقصة ملكة سبأ إذ قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون

جهلوا ان للقرآن عجائب فى قصصه يذكر القصة و يدخل فيها كل ما يفطن له العقلاء كما فطن جميع المسلمين لمسألة وأد البنات فى غضون آيات كلها تذكر بيوم القيامة من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار الخ وهكذا حتى ذكر الموؤدة ففهموها وعمل بها جميع المسلمين

أما الشورى التى وردت فى بلاد مصر واليمن فانهم يعرضون عنها لحلاوة الملك وغلبة الشهوات

كأن الله يقول أيها المسلمون ألا تخجلون إذا أخبرتكم أن مصر فى افريقيا واليمن فى آسيا (وهاتان القارتان أهم ممالككم! !) كانت حكوماتهم قوية وهممهم علية وكان لسبأ ولمصر حكومات عظيمة أفلا تكونون أنتم أولى بالشورى منهم وإذا كنت أهلكت الاثنين لانحراف فى أعمالهم فأنتم أحق بالهلاك منهم وزوال مجدكم وتسليط الأمم عليكم وقد تم ذلك

جهل المسلمون المتأخرون هذا كله واستبدوا بالناس فأزال الله دولهم ثم أخذت الفرنجة تجوس خلال الديار وأحاطت بنا من كل جانب حتى صار جيلنا هذا فى القرن العشرين ولقد امتحن الله الفرنجة كما امتحن أمم الاسلام وقد مكن الله للفرنجة فى أرضه فاحتلوا ديارنا أجل احتلوها ولكنى أقول وأنا واثق مما أقول أن الفرنجة قد ولى شبابهم وأدبرت أيامهم وهذا أوان طردهم من بلاد الشرق

ذلك أنهم احتلوا بلاد الاسلام لمصلحتهم هم أنفسهم وقد قررنا أن الملك لا يدوم على هذه الحال كما لم يدم لأسلافنا لما كان هذا رأيهم

الله أكبر إن الله يقول (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) وها نحن أولا مستضعفون فى الأرض فلا بد من ارتفاع شأننا عاجلا هذا هو الدليل الدينى أما الدليل العلمى فها هو ذا العلامة لوتروب ستودارد (Lothrop Stoddard) يقول فى الجزء الثانى صفحة ٧١ وما بعدها ما نصه بالحرف الواحد :

فى حجة اللغة رميبيوس فامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق

سائر أديان العالم شورى وديمقراطية — الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فإن كان العالم قد شهد حقا ، منذ أول عهد العمران البشرى إلى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » وقال محقق انكليزي كبير[١] خبير فى شؤون الشرق الأدنى :

« إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديمقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم[٢] يذودون عن

---

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم بالألقاب الضخمة . ولا بالنعوت التى يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم إلا بمجرد أسمائهم . وإنما كانوا فى أيام الخلفاء بدءوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لا غير . فكل ما دخل فى العربية والعرب من القاب التعظيم والتفخيم انما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال البادية — الى يومنا هذا — ينادون شيوخهم وأمراءهم بمجرد اسمائهم ، فاذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكناية قائلين يا أبا فلان . هكذا يخاطبون السلطان ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فيهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل ابن الحسين مؤخرا وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازى . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هى الديمقراطية الصحيحة . وكانوا فى العصر القديم يقولون لعمر ابن الخطاب وهو يخطب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . وكان الأحنف يقول لمعاوية : « والله يا معاوية ان السيوف التى قاتلناك بها لهى فى اغمادها » . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين : فقال أيها الناس اتقوا الله . فقام اليه رجل من عرض الناس فقال له : أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه الخليفة : سمعا سمعا لمن ذكر بالله

نعم ان كان فى الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجمع على طاعتها . وان العرب لا يزالون فرقاً وحزقا ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم أجابه النعمان : ان الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوسا وأحمى أنوفا من

سياجها بشفار سيوفهم ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار[1] فى شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ :

« قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة إنما ذلك وهم شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة إلى إنشاء الحكومة النيابية وعلى جانب عظيم من الاستعداد لذلك . أجل ثم جل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركية انما هى أفضل أس يشيد عليه

أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الأصلية فى تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض مما آل الى فقدها الملك العظيم الذى كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التى كانت آفة على سلطان العرب فى كل مكان ، والسبب فى وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربى أوربا

ان العرب لم تجتمع كلماتها الا بدعوة دينية هى دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديموقراطية بما فى الاسلام من سنن المساواة والأخاء والحرية . قال عمر ابن الخطاب : لسنا فى كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفر قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا ؛ بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالى اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملا الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لا بل فرض أوجبه الله فى كتابه قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم . والخلفاء الراشدون يعملون كل شىء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى إحدى خطبه : « ولكن الابرام بعد التشاور . والصفقة بعد النظر لذلك جميع الحكومات الاسلامية هى شورية ديموقراطية فطرة وخلقة والاستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

شكيب أرسلان

(١) A. H. Lybyer من مقال له سنة ١٩١٠

؟الحكم النيابى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه و بين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون و يسترئى بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديمقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . و باعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذاً أن تمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعدها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر ان السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، و إمداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشىء فى العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخر بمجلس الوزراء[1] زد على هذا انه أنشى مجلس نواب مرتين الأولى فى سنة ١٨٧٧ والأخرى فى سنة ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحميدى فقد كان على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى . وختم العلامة المذكور كلامه بقوله: «فلذلك يجب ألا يعتبر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثا مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية . بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف . كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طولمه بغجه ويلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراؤه كل يوم للنظر فى أمور الرعية . وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحدهم . فدخل مرة زعيم قادم من الأناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكارمز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لا تزال الى الآن . شكيب ارسلان

به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب »

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شسطر الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية فى بلادها فلم يطل مقامه فى فارس إلى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الأدارى الكبير مبينا استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسى لإنشاء النظام الدستورى وهو متفائل فى ذلك كل التفاؤل

« إنى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحو بين دفتيه ذكراً طيبا لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التى انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة إلى دور الحكم الدستورى النيابى ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاما يدل على أن أمة ذات مقام عال فى الحكمة السياسية وفى معرفة أصول الاشتراع إلى حد يكاد لا يصدق[1] أما أعضاء المجلس النيابى الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشىء المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً فى تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله فى حرز حريز من طوارىء الاستبداد . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع ما يسنونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء

« وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى أعرف أعضاءه معرفة شخصية صحيحة فما كان على كل حال ليعد فى رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الأميركى . ولكننا متى ما أقبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المران من قبل ، فى بلاد استطالت رقدتها أجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدبير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى انقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقا . لا ينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج إلى كثير من المعارف الاكتناهية فى كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة . بيد أن الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف

(١) ومن فى الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسيه واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدنة ... التى أوتيت فى العلم والصناعة مواهب قلما وهبها الله أمة

معتبراً هو أن هذا المجلس النيابى الفارسى يمثل حقاً رأى الأمة الفارسية ، و به نوطة جميع أمانيها ومبتغياتها التى تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ماهم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من دوى العقل الثاقب والخلق الكريم ، والرأى السديد والشجاعة الحقة . يحنون أضلاعهم على قلوب تنضرم اخلاصا ووطنية يبحثون بجد وعزم فى كل مقترح وطنى وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص فى الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية ، و إذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخلص يمحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقتهم ومحقق آمالهم ، ويفوضون إليهم أمور التنظيم ، هذا إذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقا مقاومة المكايد السياسية والرشوة ومبادلة الأمة الفارسية الود والاخلاص . والصدق فى الأقوال والأعمال

وليس من العدل ولا الانصاف فى شىء أن يقال أن المجلس النيابى الفارسى قاصر عن المجاراة الحقة فى ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الأزر وأمته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، محاس عارف لحد سلطته فلا يتخطى جواز نطاقها بغير حق ، وأعضاؤه أبداً على استعدادللقيام بكل تضحية كبيرة فى سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها و إعلاء شأنها .

أما الأمة الفارسية فليست على مستوى تتناوله صفة عامة . فالسواد الأعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة فى الممالك الراقية فيعدون بالمئات . وقد ظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والأخذ عن الحضارة الأوروبية . وهم هم الذين قوضوا بذلك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديمقراطية خفقاً ، بعدأن ذللوا الصعب وركبوا الهول . وعلى أيدى الحكومة التى أنشأوها نشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفؤ من أهل البلاد . و برهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وعرائز على استعداد منقطع النظير

لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الأخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وأنشئت الصحف الحرة فانبرى حذاق الكتاب شارعين أقلامهم يهدون الأمة خير هداية ، ويكافحون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر فى الأمة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والأدبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الأمة بأسرها بتلك الروح الاسيوية التى ألهبت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة إلى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً فى انشاء الجمهورية الصينية »

ثم أنهى المستر شصطر كلامه قائلا : « قد صاح الكاتب الأشهر (رديارد كپنغ) ناصحاً مرارا أن الشرق لن يطيق بعد المناخس معملة فى جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوما مقاومة رجعية عظيمة ، ولكن باستطاعة رجال الغرب ، إذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوربية الصحيحة أن يستسرعوا الشرق فى سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون أن ذلك هو لخيرهم ومصلحتهم . على أن الحق الذى لايمارى فيه أن روح التضامن الأدبى والعزة القومية والعصبية الجنسية لجميع ذلك قد غدا شديداً فى الشرق شدته فى الغرب . فبات الشرقيون بسبب ذلك صعاب المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا ما دامت أوربة سائقة لهم فى سبيل واحد غايته ابتزازهم لملء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها[1]

حقا يعتقد كثير من الأحرار العربيين أن التسلط الأوربى ليس من شأنه أن يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتى والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيرا وكافيا مهما كان[2] بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار أن الطريقة الوحيدة

---

(١) Shuster كتابه : The Strangling of Persia

(٢) جميع المسيطرين الأوربيين فى الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وأن يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون شئون تثقيفنا . وان ما جاهدته مصر فى أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف

المثلى التي أهل الشرق أحرى بتعليمها والتدرب عليها ، هي أن تترك تلك الشعوب وشأنها تمارس الاستقلال بنفسها ، وتخرّج ذاتها بذاتها عليه ، وقد أجاد «ليونل كرتس [1]» الكاتب الانكليزي الذائع الصيت أيما إجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه ان التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها « لاعداد أهل الهند اعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطراً كبيراً و بلية ايجابية . مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً ان الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافي حيز النظر والتصور والخيال.

« قد يقول بعضهم انى لجوج في طلبي الذي يينت فيه انه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلا صحيحاً لاغش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية وان يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها . لاعطف الظئر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات . واذا ماأريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالاغلال من ناحية أخرى . فان لم يكن هذا ، فليس من سبيل إذاً غنه

وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام . ومع هذا فكان المحتلون يقيمون في وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها الى هذه الساعة . أما في الجزائر فابقاء الأهلين في الجهل وحرمان أطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الادارة هناك . شكيب ارسلان

(١) كتابه : « رسائل الى الهند في شأن الحكومة النيابية » (لندن ١٩١٨)
Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government".

الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بأنها مسؤوله لدى الشعب الذى هو من ورائها حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال أن يعلم و يوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه . نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكما ذاتياً لايتسنى له الوصول إلى عرضه السامى وعايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائماً أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال ور بما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح و يعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

إنى لأفخر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانية العظمى إلى الهند من الخير والنفع ، من أنشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هـذا لا أعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد ، دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص.

يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لايتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنتقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد

لا وصول إلى الغاية التى بينها حديثا وزير الهند[1] إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذي يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول إلى هـذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ،

---

(١) إشارة الى الغاية المبينة فى تقرير مونتاغو ـ شلمز فورد من منح الحكم الذاتى

والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئما كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد. وأما ما بقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقية . إن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديدا ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال فغدا مقبض أوربا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال . وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لامرد له ولا مدفع مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه . أما التساؤل أتسىء هذه الشعوب التى ستصبح حرة اغتنام الفرصة ، فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أو تفلح حقا عالية الجبين فى إنشاء الحكومات الدستورية المنطمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، ذلك أمر سيكشفه المستقبل . وإذ قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق التطور السياسى ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور دور التحول انتهى

ويقول فى الجزء الأول صفحة ٢٨ وما بعدها مانصه :

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان . فبعد أن ركبت أوروبة متن البحار ، صارت تستهزئ بجبابرة آسية وعتاتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء . ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجبن من ذلك وأوربة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاد لها .

غذاء طيباً لحيانها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما . فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم ، ازاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيما ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً ، ملتفاً بخلقان الحضارة العربية التى طال على خوائها الأمد ، ومتسكعا فى ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية وبلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا فى انحطاطهم ، فصاروا لايستطيعون مجاراة أوروبة اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن فنون القتال . وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالا عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد انه لما أغار الترك على أسوار « فينة » سنة ١٦٨٣ م . فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنته أوروبة حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها مااستطاع ؛ ولو لم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لايستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى ، وتخضع لها الأقطار ، فى شرقى أوروبة وجزائر الهند ، واما جل العالم الاسلامى ومعظمه ، من مراكش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً فى هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبة ، راضياً مسلماً ان شقاءه انما بمشيئة من

الله ، لايقيم لرقى أوروبة وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً [١] .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبة تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبة تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانية على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسة شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق للغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالا صحيحاً ، فتم اخضاع العالم الاسلامى — ولكن على القرطاس ! !

أجل ، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب فى ذلك انه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طيلة هذه المئات من السنين التى كرت عليه وهو حان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

---

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة
شكيب ارسلان

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامي ، قد غالى فى إيلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ! ! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٢٥٠ من اتباع النبي محمد [1] ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكنغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها . قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات فى العالم الاسلامى منصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هنالك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية . والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

---

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الأوربيين الذين لايزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاآت جرت منذ عشرات من السنين ، مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة تانسى الألمانى كان يحزر مسلمى أفريقية وحدهم بنحو ١٦ مليوناً . وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لايزالون يحصون مسلمى جاوى وسومطرة ٢٥ مليونا والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ إلى ٢٠ مليون ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليونا وكثيرا ما يحصونهم ٢٠ مليونا وهم جرا .

شكيب ارسلان

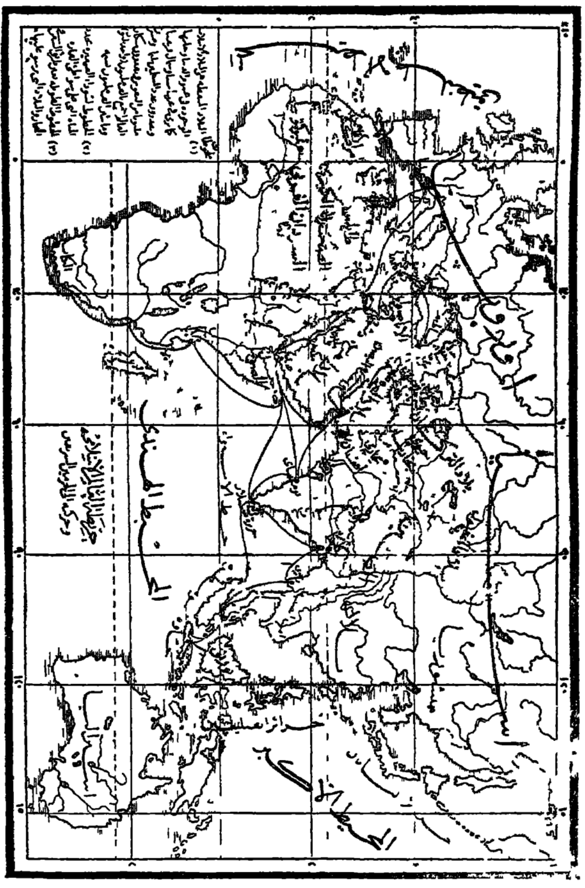
فثوران العالم الاسلامى هـذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولاحداً يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيـه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالماسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . . انتهى مانقلناه من كتاب حاضر العالم الاسلامى

﴿ تذكره ﴾ ماذكرناه هنا قليل ملخص من كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ومن وجد فى وقته سعة وفى صدره انشراحا لازدياد المعرفة فى هذا المقام فعليه بما كتبناه فى سور مختلفة كما فى سورة ابراهيم عند قوله تعالى (وذكرهم بأيام الله) وعند قصة ابراهيم فى آخر السورة وفى سورة النحل عند آية (إن الله يأمر بالعدل الخ) وفى أوائل سورة الاسراء فهناك مقال فى المسلمين بالأندلس قبيل آية (وقضى ربك الخ) وفى سورة الكهف عند آية (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وفى سورة طه عند آية (وقل ربى زدنى علما) وفى سورة الشعراء عند آية (السحر) وعند آية (والشعراء يتبعهم الغاوون) وفى سورة النمل عند آية (إن الملوك إذا دخلوا قرية الخ) مع آية (فتلك بيوتهم خاوية الخ) وفى سورة سبأ عند آية (محاجة الضعفاء والذين استكبروا) وفى سورة ص عند آية (ياداود إنا جعلناك خليفة الآية) وهناك مواضع أخرى هامة وفى سورة الشورى عند آية (وأمرهم شورى بينهم) وفى سورة الاحقاف عند آية (أذهبتم طيباتكم الخ) وهناك فى بعض سور الحواميم التى ذكر فيها أن القرآن عربى مقال مسهب يخص العرب فى زماننا ويحتم الوحدة ويحث فى تدريجهم

وهكذا فى سورة فاطر عند آية (ألم تر أن الله أنزل الخ) مقال عن الجراد وانه

يهجم كل سنة على البلاد ولا يصده عن الاتحاد صاد . وهذا درس للامم العربية أن يكونوا متحدين انتهى الفصل الاول



(حريطة العالم الاسلامى)

الفصل الثانى

فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل

للانسان ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسلها إلى العالم الخارجى الحواس الخمس وخزائنها قوى الدماغ الخمس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل الى ما يلائم ونفور عما لا يلائم فالميل الى الملائم والنفور عنه فى الغضب والشهوة نسميه اراده وفى العقل نسميه اختيارا وهو الذى عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسلط على الشهوتين الاخريين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ويكون بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل الى الكمال وأحرص على السعادة كانت هى سعيدة و بضدها تتميز الاشياء

والسعادة يدور أمرها على كمال النفوس الانسانية أشخاصا وأمما فسعادة الشخص تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الأموال[1] إذ الموجودات التى نشاهدها لا تخرج عن هذه إذ الكائنات أما أرواحنا أو أجسامنا أو خارجة عنا والخارج اما انسان و إما غيره ونعبر عنه بالأموال وترتيبها فى الشرف على حسب قربها و بعدها من العقل فالأموال أدناها وأرقى منها الجاه ويليه الصحة التى بها يقترن العقل والعقل وعلومه هو نهاية السعادة فكل ماعداه مقدمة له ولا يكمل إلا بمعرفة جميع أنواع العلوم العقلية والنقلية التى يجمعها ثلاثة أقسام وهى إما أن تحتاج إلى المادة فى الخارج والذهن وهى العلوم الطبيعية و إما أن تحتاج إليها فى الخارج دون الذهن وهى الرياضية و إما أن لا تحتاج لها فيهما وهى الالهيات وثلاثة عملية وهى علم الأخلاق وعلم سياسة المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وأرشدت إلى الثلاثة قبلها صريحا تارة ورمزاً أخرى فهذه هى طرق السعادة ولا تمكن إلا بالاختيار الناشىء عن الشوق

(١) هذا الرأى مأخوذ من كلام الامام الغزالى فى الأحياء وهو مبنى على كتاب ارسطاطاليس فى الاخلاق وقد نقلناه فى سورة فصلت عند آية إن الذين قالوا ربنا الله الخ وعليه اعتراض وجيه فتدبر

المسند إلى العقل وأى أمة كان اختيار أفرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة وايما أمة تقاعس أفرادها عن اكتساب السعادة انحطت إلى دركات الهون

واعلم أن روح السعادة إذا سرت فى الأمة اثرت فى أفرادها تأثيراً حسنا وإذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران أشواق أفرادهم ومعاشرة الأنسان لقوم هى أس سعادته وأس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بينا ولما كانت الروح ألطف من النار بل أكثر سريانا من الكهرباء كأن تأثير المعاشرة على الأخلاق أشد من تأثير النار فيما جاورها أو الكهرباء فى المعادن وهذا هو السر فى مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد وأسفارهم إلى الديار القاصية لعلمهم ان الآخرة ليست شيئا سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لايعرفون طريق السعادة قلدهم الانسان بالمعاشرة وكانت سعادته الأخروية على حسب الدينوية إذ أكثر الناس يفهمون أن المقدمة للسعادة سعادة فالمال والأهل والأصحب والزوجة والأولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هى نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لأنفسها فكأنهم يجعلونها سلما إلى رقى عقولهم الباقية بعد موتهم إذ هم يفهمون من قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ومن غيرها من آيات ذم الدنيا والأحاديث وكلام العلماء والزهاد أن هذه يقصد بها انها ليست مقصدا قط للعقلاء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو أضل وإنما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت أخروية بالقصد وإن كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الأزواج والمآكل والمشارب وغير ذلك

والحكمة تكون تلك الأموال منصرفة إلى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية بأكملها حتى تستعد الأمة بأغنيائها وعلمائها ويتعاونوا على البر والتقوى

الكلام على العمل والتوكل

علمت من هذا أن الشرع لم يأت قط بترك الأعمال وانما جاء بالحث عليها إذ هى رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل مايفهم قوم من العامة من أنها ترك الأشياء للمصادفة تجرى على غير نظام ولا سنن معهود وترك الأشياء ناقصة بلا ترو ولا اكمال عمل كلا ولنشرح التوكل بأوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول :

قضى الشرع وحكم العقل ان مدبر الكون لايكلف نفسا إلا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجرى على هذه القاعدة فكل من أوتى فهما وتمييزا وعقلا وأعضاء فبقدر ما أعطى يكلف العمل وهاك البيان

ترى الطفل فى بطن أمه لا إرادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف فى بقاء حياته ان يأكل بفمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيرا ولا يستنشق الهواء حتى يحيى فى بطن أمه وإنما أتاه عرق فيه دم يجرى متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع أيام الحمل فاذا خرج من بطن أمه فتأمل كيف كاف بالهام من مدبر الكون أن يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى أمه ويستنشق الهواء بأنفه وفمه وسهل لهارتضاع اللبن فى ثدى المرأة ولم يكلفه اكثر من ذلك بأن يسعى إذ لا طاقه له فاذا فطم أخذ يسعى على رجليه وكاف مضغ الطعام بالأسنان والقواطع التى تحدث له ويكلف بالالهام العمل بمقدار ما أعطى ويتناول الطعام بيده ولايزال تترايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفه بالأعمال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى أن يصير رجلا يلزم بتدبير منزل أو أمة بأسرها هذه هى سنة الكون ونواميسه « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه إما أمر مقطوع به وإما أمر مظنون وإما موهوم فالأمور المقطوع

بها والقوية منها كاستنشاق الهواء وإدخاله الرئتين لاصلاح الدم وتناول الطعام باليد وإدخاله الفم واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل هذه يقطع العقلاء بنتائجها عند الاستعمال وبضررها عند الترك والمظنون نفعها جميع الأعمال التي لها نتائج عند غالب الناس وقليلا لا تثمر وذلك جميع الأمور التي تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة والصناعة والأمارة وينتج عنها صيانتها بالسياسات وبناء القلاع وإصلاح الجيوش وعمل الأسلحة وكل ما به نظام الأمم والممالك وإصلاح الأشخاص وشؤونهم في داخل الممالك وخارجها بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهاذان القسمان وهما المقطوع به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدبر الكون في انتاج الثمرات وبقاء تلك الأدوات وأن تكون الأعضاء صحيحة إذ هو الذي يقدر على إبقاء تلك الأعضاء وإنتاج تلك الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الأعمال إلا هو ولا يحفظ الأعضاء إلا هو فيكون المقصود من التوكل إذن إنما هو القوة على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وأدواته العملية وإخلاصه ظاهرا وباطنا فتكون الأعمال جارية على النواميس المعهودة والعقول ملتجئة الى مدبر الكون هذا هو المقصود من التوكل وكم ورد في القرآن من مدحه لأنه أقوى نصير على العمل قال تعالى في قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهلة إنه ترك الأمور الى المصادفة

فكلف الإنسان بالعمل العقلي تدبيرا والجسماني مباشرة على مقدار ما أوتي كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت في مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود مما ورد مع الدخول للأمور من أبوابها — أما القسم الثالث فهو الطرق التي لا توصل الى المقصود في غالب الأوقات وإنما يكون توصيلها على حسب الأتفاق والمصادفة لأنها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاؤم وأخذ الأمور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وأمور الدجالين وكتابة التمائم

وجعل آخر الطب الكى والقصد ان كل أمر لم يكن سببا طبيعيا للأمور فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد النفع الدنيوى وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا دينا

وليس لهذا المعنى أجمع ولا أخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والكى من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الأمور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يثمر فى كثير من الأوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما الكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع فى أمراض قليلة وهى التى يوافقها انضاج محل الألم وفى الأكثر يضر كما هو الشأن فى كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والأكثر عدم الموافقة إذ وضع دواء واحد لجميع الأمراض جهل محض وكل شىء عنده بمقدار

المتكل على شىء من هذه الأشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شىء من هذه وكله الله إليه)

نرى العلماء يحرمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه أو قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الأرواح وكاتبوا التمائم إذ هؤلاء جعل الله أعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا أنفسهم فى ذل العبودية لتلك الأشياء

المتوكل من يأتى البيوت من أبوابها ومن هذا فهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل على الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه أن التوكل فى الاسلامية ضد مايفهمه الناس فيه فمعنى التوكل إذن هو اعتماد القلب على الله فى سلامة الحواس والآلات وتمام الأعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتددة المألوفة قال تعالى « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . انظر كيف قدم

المشاورة مع أصحابه ثم العزم على الأمر ثم التوكل

من هنا نفهم أن الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم المجهولى الأحوال أو الأحلام ليس من التوكل فى شىء وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس وأقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع أصحابه ثم العزم بعد ذلك

نعم إن الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض أصفيائه وهذا لاينكره العقلاء وهكذا الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتمل التأويل ومثلها كلام الصلحاء على أن الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهكذا الكشف الصادق يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس مختلط بالكاذب وأكثر الموسومين بذلك برءآء من الدين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقليل ماهم

المعول عليه فى جميع الأمور إنما هى الآراء الصادقة والعقول وترك الانخداع للزخارف والأوهام

كثير من أمراء الاسلام يخدعون بأقوال قوم جاءوا دسيسة من بلاد أخرى وافتروا إثما وكذبا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الأمة كما حصل فى الجزائر أيام الشيخ عبد القادر اذ أرسل الفرنساويون رجلا سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح واتبعه أكابرهم وانتهى الأمر إلى أنه أخبرهم أخيراً بأن الفرنسيين سيدخلون فى هذا العام هذه البلد وكان أمر الله قدرا مقدورا فانحلت عرى قواهم وهبطت هممهم فدخل الفرنسيس وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنساوى حقيقة المسلم طاهرا برنيطة ورجع الى بلاده وليست المسألة خاصة بهذا بل وقائعهم كثير جدا أدت الى زوال دول وقتل ملوك وما نشأ هذا كله إلا من فهم الشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا فلتحمل جميع آيات التوكل

من أكبر أسباب إهمال الأعمال ما كثر وشاع من قراءة القرآن لمجرد مجىء الرزق وتكرار السورة مرة أو مرارا على ما يفعله أهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعمرى أن هذا من أشد الضربات على أمتنا ، وذلك أن القرآن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الأحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الأربعة فى القرن الثانى من الهجرة واشتغل أغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين أخذتهم الحمية على القرآن ووضعوا أحاديث فى فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف فى المذاهب الى القرآن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطى فى كتاب الاتقان فى علوم القرآن وحكى أن رجلا وجد أحاديث كثيرة رواها أحد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فسأله قائلا أن أصحاب عكرمة لم ينقل أحد منهم شيئا عنه فى فضائل السور مما تذكره أنت . فقال وضعته لينصرف الناس عن فقه أبى حنيفة الى القرآن وهكذا حكى عن أحد الصوفية فى ذلك الزمان مثل ذلك فهؤلاء قصدوا خيراً فجاء شرا فان الناس انصرفوا الى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهم اذا كثر الأحاديث جاءت للترغيب فى ثواب عاجل أو آجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على أن أغلب تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة ولذلك أصبح القرآن يقصد للفظه دون معناه مما جعل الاسلام لفظا بدون معنى إلا عند الخاصة وقليل ماهم وأصبح كثير من القراء يتكلون على مجرد التلاوة وهذا مخالف للعقول ولما فى شريعتنا من وجوب السير على موجب النواميس الكونية فى الأعمال والجرى على مقتضى الطريق المستقيم فى كل شىء وعلى هذا فهذه كلها أعمال تخالف شرعنا وهـذا القرآن يجب أن يصرف الناس اليه بالتعقل والفهم ومعرفة مافيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد أفسدوا فى الدين ولم يصلحوا فهم وان كان وضعهم لقصد شريف ليسوا بادرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وضع النموس والعلوم فيحق أن يقال لهم (نعم السير على بئس العير) وأولئك هم وقود النار كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

الفصل الثالث

توزيع الأعمال على الأفراد
وما حكم الشرع فى فروض الكفايات

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان فى الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية فى الجسم وفيها أيضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها أولا الى وقت معلوم ثم ترسلها فى البدن تأخذ مجراها القانونى فهكذا للامة ملوك وأمراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا أن يوزعوا الاعمال على الامة لكل ما يليق له وذلك أن الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعداد الامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك ما نرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة أو علم على حدته أو غير ذلك مما هو مشاهد معروف

ثم اعلم أن فرض العلم قسمان عينى وكفائى فالعينى من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرآن والكفائى منه مالا ينص عليه فيه ولم يذكر الا فى الفروع أو بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين تقوم بهم الكفاية وهناك علوم وأعمال لايجب تعلمها الا على بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة وكالجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم ما يقوله كثير من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد اجتهاد الفتوى أو اجتهاد المذهب أو نحو ذلك مما تنزه عنه شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه أفكار العلماء وتركوا ماعداه مع أن فروض الكفايات كثيرة وهى كل ما تحتاج اليه الامة ومنه جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتالة وعلوم الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة شرقا وغربا والرد على مؤلفى الكتب من اعداء الدين وضروب الصناعات المتنوعة والآلات

البخارية وجميع مايلزم لهذه الحياة مضارعة لمن جاورنا من الامم فالاقتصار على فن واحد خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا فى الدنيا بالخزى وفى الآخرة بعذاب النار كما ذكره الشافعى رحمه الله فى الرسالة

باب العلم

(قال الشافعى) قال لى قائل ما العلم وما يجب على الناس فى العلم ؟ فقلت له: العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله . قال : ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس وأن الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان استطاعوا إليه سبيلا وزكاة فى أموالهم وانه حرم عليهم الربا والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وان يكفوا عما حرم عليهم منه

(قال الشافعى) وهذا الصنف من العلم كله موجود نصا فى كتاب الله جل ثناؤه وموجود عاما عند أهل الاسلام ينقله عوامهم عمن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون فى حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذى لايمكن فيه الغلط فى الخبر والتأويل ولايجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثانى) قال : فقلت له ماينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثره نص سنة وإن كانت فى شىء منه سنة فإنما هى من أخبار الخاصة لا من أخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا قال . فيعدون هذا أن يكون واجبا وجوب العلم الذى قبله أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك علمه غير آثم بتركه أو من وجه ثالث فوجداه خبرا أو قياسا

(قال الشافعى) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال فصفه لى واذكر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها

وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعى) وقال فأوجد لى فى هذا خبرا وسببا فى معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أكد النفير منه فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وَخذُوهم وَاحصرُوهمْ وَاقعدُوا لهُمْ كلّ مَرْصد وقال جل ثناؤه قَاتلو الّذِينَ لايؤمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخرِ الآية

(قال الشافعى) أخبرنا عبد العزيز ابن محمد الداروردي عن محمد بن عمر بن علقمة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وقال الله جل ثناؤه (مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمْ انفرُوا فى سبِيلِ اللهِ إثّاقَلْتُمْ إلَى الأرْض أرَضيتمْ بِالحيَاةِ الدُّنيَا منَ الآخِرَةِ الى قَدِير) وقال جلّ ثناؤه (انفرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهدُوا بِأمْوَالِكُمْ وَأنفسِكُم فى سبِيلِ اللهِ الآية)

قال الشافعى فاحتملت الآيات ان يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه على كل مطيق له لايسع أحدا منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يجز لاحد منهم وجب عليه فرض منها أن يؤدى غيره الفرض عن نفسه لان عمل احد فى هذا لايكتب لغيره واحتملت ان يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك أن يكون قصد بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية فى جهاد من جوهد من المشركين مدركا تأدية الفرض فله الفضل ومخرجا من تخلف من الاثم ولم يسو الله بينهما فقال تعالى لاَيَسْتَوِى القَاعِدونَ مِنَ المؤْمِنِينَ الآية

(قال الشافعى) فقال أما الظاهر فى الآيات فالفرض على العامة فأين الدلالة بأنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من الاثم (قال الشافعى) فقلت له فى هذه الآية قال وأين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه (وكلا وعد الله الحسنى) فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الايمان وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم كانت العقوبة بالاثم ان لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى قال فهل تجد فى هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى خلف على ابن أبى طالب رضى الله عنه فى غزوة تبوك فاخبره الله جل ثناؤه أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فاخبر أن النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه انما يكون على بعضهم دون بعض وكذلك ما عدا الفرض فى عظم الفرائض التى لا يسع جهلها والله اعلم

(قال الشافعى) وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فاذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولو ضيعوه معاً خفت أن لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم بل لا أشك إن شاء الله لقوله ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما قال فما معناه قلت الدلالة عليه أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ونفير بعضهم اذا كانت فى نفيره كفاية يخرج من تخلف من المأثم إن شاء الله لأنه اذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لا يحل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفايتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم القائم على القاعد وإذا سلم من القوم واحداً جزأ عنهم وانما أريد بهذا الرد رد القليل الجامع لاسم الرد والكفاية فيه لئلا يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ما وصفت

منذ بعث الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفقه ويشهد الجنائز بعضهم ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا قوم قائمون بكفايته اه كلام الشافعى رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله أى يقصد حصوله فى الجملة فلا ينظر لفاعله إلا بالتبع للفعل ضرورة أنه لايحصل بدون فاعل وهو يشمل الدينى والدنيوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدنية الحاضرة وها أنت ذا علمت أن الشافعى رضى الله تعالى عنه قال: ان الاثم على القادرين جميعا عند الترك وأنت تعلم أن القدرة مختلفة إذ ليس أحد العقلاء. الذين لاجاه لهم كعاقل عظم جاهه كالملوك والأمراء. فالأمة الآن كلها مطالبة بجميع الأعمال اللازمة للمدنية الحاضرة ومباراة الاروباويين والملوك أولى بالوجوب وأكثر المسئوليه عليهم هم والعلماء الذين لايعظون الناس بذلك ولا يفهمونهم واجباتهم ولايظهرون لهم أن هذه فروض كفايات فالحق والحق أقول أن العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة ما يثاب عليه فى الآخرة ولأصبح الشرق يضارع الغرب ويفوقه

وها أنا ذا أدعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه ملوك الاسلام وأمراءه وعلماءه الى الى تنبيه أغنياء الأمة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ما هو له أهل من تلك الصنائع حتى لا نحتاج الى ثوب ولا إبرة ولا فأس ولا قدوم ولا مدفع ولا غيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى أصغر شىء كالكبريت الذى يوقد به فنحن فى اثم وحرج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون فى الدنيا بالجهل والتأخر وفى الآخرة بالعذاب المهين

والذى أراه فى ذلك أن يشغل ملوك الاسلام وعلماؤه الطوائف كلا بحرفة تنفع الأمة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب

والجراحة ولأخرين الترغيب فى الصلاة ولأخرين الترغيب فى الزكاة ولأخرين الترغيب فى الحج وغيرهم للحث على صلة الأرحام ولغيرهم وجوب الاتحاد فى المسلمين وهكذا ويبثون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والآلات البخارية فهذا كله صار الآن من فروض الـكفايات الواجبة لمباراة الأمم المجاورة ومسابقتها ولا ينفع أمة الاسلام أكثر من بث النصائح والأرشاد من أهل العلم ولا يوقظ أهل العلم إلا الحكماء المرشدون والعلماء الـكبار لذلك يجب على كل حكيم أن ينصح العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات المسلمين ولا يتكلفون الفقه وحده وضياع الزمن فيه فانك قد رأيت من كلام الشافعى رحمه الله تعالى ان الواجب فيه قليل جدا وهى الأمور العامة ولا تخفى على أحد أما ما عدا ذلك ففرض كفاية وفروض الكفاية كثيرة جدا إذ هى دينية ودنيوية ومن الدينية الوعظ والإرشاد لفنون العبادات والذى أراه فى نصيحة الأمة بالقرآن أن يحفظ كل ما نيط به الوعظ فى باب مخصوص آيات يعظ بها فية كآيات الجهاد فيـه مع فهم معناها وكايات الصلاة والحج وبر الوالدين والأخلاق والحلم وهكذا من يرشد لتعليم العلوم النافعة كالطبيعيات يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم فى ذلك

ولما كان مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب وجب على ملوك الأسلام والأمراء أن يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض الصناعية فى بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع فى فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات ويعم التعليم فى أنحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاما والاسلامية الآن فى حجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم فى التأدية على قدر اجتهاده ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والأغنياء والأمراء (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)

الفصل الرابع

العلوم التي يجب تحصيلها والصنائع

ذكرنا آنفاً ما قاله الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه وعلماء الأصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس من باب فرض الكفاية فأي أمة قصر رجالها وسكت علماؤها على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بأنها تعذب مرتين مرة فى الدنيا بالتأخر ومرة فى الآخرة بالعذاب المهين ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفانى وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التى لها الدوام واعلم أن الأمم فى الدنيا لها وجهتان وجهة الأفراد ووجهة الأمم فوجهة الأفراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الأمم ترقى مجموعها ليحوز ابناؤهم والمنتسبون اليهم شرفا وراحة بين الأمم وهاتان الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما تنافس المتنافسون وتغلب الوجهة الأولى على المتدينين والثانية على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فجميع عقلاء الأمم انما يسعون في الحياة لأمور دائمة إما بدوام الأشخاص وذلك بالرقى لعالم أرقى وأما بدوام الأمم ببقاء الأجيال المتعاقبة حائزة الكمال فى المدنية والحضارة والأول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمرى أن كلا منهما يخدم الآخر وقد جمع الأمرين الحكمة المشهورة اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . وأقرب منه قوله تعالى فمنَ الناسِ من يقولُ ربَّنا آتِنا فى الدنيا وماله فى الآخرة مِن خَلاق وهؤلاء هم الطبقة السفلى من نوع الانسان التى عبرنا عنها بالأمم الجاهلة ومنهم من يقول ربَّنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل المدينة الفاضلة التى قدمنا شرحها وأما الذين يقولون ربنا آتنا فى الآخرة حسنة لا فى الدنيا فليس لهم ذكر فى الآية وهم الأمم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب الحيوان وذكرنا أنهم هم الذين يقولون

ـمت بالارادة تحى بالطبيعة فهؤلاء منحرفون لأنهم أرادوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا بالدين والدنيا معاً لأنهما ممتزجتان والمقصد لايستغنى عن الوسيلة وإلا هلك الأصل والفرع

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون فى الآية لأن القصد من التنزيل أن يكون ضد الطبع ليتعادلا فذم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لأنه الكمال (وكذلكَ جعلناكُم أمةً وَسَطا لتكونُوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكُم شَهيداً) وأما أولئك فلم يذكروا لأن القصدسوق الأفكار إلى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم أتبعا بحسنة الآخرة ليعرفنا ان الأولى سلم للآخرة ولنقتد بتلك الحكم الزاهرة ونقدم حسنة الدنيافنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل مايلزم لهامن مآكل ومشارب وتزاوج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هى بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالأولى تشمل الصنائع والزراعات والتجارات

• فكل صنعة لجلب القوت كالزراعة والخبز وما تحتاج إليه من صناعات البخار التى بها السقى والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل واجبة ولكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لاتمكن الحياة الدنيا فى هذه الأزمان إلا بها وهكذا الآلات والعدد التى بها الملابس كآلات الحلج والنسج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لابد من علوم الصناعات التى بها عمل الأسلحة النارية المستحدثة

هذه هى العلوم التى تعدلحسنة الدنيا كالغذاء ثم العلوم التى هى كالدواء فهى العلوم التى بها يكون عدم التنازع فى الأموال كالبيع والشراء وقسمة المواريث والهبات والصدقات والمناكحات وعدم التنازع فى النساء بذكر أحوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق

والرجعة والعدة والخلع وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار وأهل البغى والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات فكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة أصحاب الأموال فهذه كلها فى علم الفقه الذى هو فى الحقيقة كالدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأى أمة استعملت الدواء وتركت الغذاء مات إحساسها فكما يموت من يعيش على أكل الصبر أو يحيى حياة لايموت فيها ولا يحيى فهكذا الأمة التى تقتصر على علم الحدود والأحكام ولا تعرف سواها ولعمرى إذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فأين المعاملات والأحكام والحدود وإنما جاء الشرع بهذه العلوم لأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى تعمير الأرض فجاءت الشرائع لتهديهم إلى مابه تعاونهم وتعاضدهم فأما إذا وكلت إليهم وجاء دور جديد للأحوال المعاشية فإنه يأمرهم باقتحام الأخطار لاستدرار الرزق من هاطل الغيث ونابت الزرع

وكما ان علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح أمة تعيش ولها ما يكفيها فى الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الأشخاص وحدود الفقه وأحكامه لاصلاح جسم الأمة وتعلم العبادات خصوصية أخرى فى تشويق النفس إلى مدبر الكون فهل يعقل أن يحيى جسم ميت فاذا ماتت الأمة بعدم مايغذيها وضعفت معداتها فى الحياة من الأغذية التى بها حياتها والأسلحة التى بها تدافع فمن يصح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الأمة التى هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الغزالى (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء والشرعية بمنزلة الدواء).

هذا هو الذى به تعمر المدن فى الدنيا وتبقى الأجسام محفوظة إلى وقت معلوم ومحصلها أمران مابه حفظ الأجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتى لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنامافيه الكفاية فى ذلك كله.

أما مابه صلاح العقول فهى علوم الأخلاق والعبادات وجميع مابه كمال النفس

بها يكون الانسان كاملا فبالعفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهى لاتكون إلا لحكماء الأمة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الأمة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الإله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذا عرفنا مابه عمارة الأرض وبقاء الأجسام وما به تنوير العقول وترقيتها .

وكل من علوم القسمين لا تاتى وحدها بل لابد من وعاظ يهدون الناس إلى تلك العلوم ويشوقونهم إلى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون إلى فن القصص والروايات الأدبية التى أسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبابرة والصالحين والكافرين والأمم البائدة الهالكة التى تركت عمارة الأرض للمصادفة فأهلكهم الله بذنوبهم وسنعقد لهذا وأمثاله بابا خاصا فى هذا الكتاب انشاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص فى الأمة فكلما رأوا ثلمة أسرعوا إليها فنصحوا ورغبوا فيها ففى مثل هذه الايام يذكرون أن المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الأمم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الأحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم أن لهم على ذلك أجرين أجرا فى الدنيا وأجرا فى الآخرة وهكذا ولابد أيضا من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فأما علم الكلام الذى عند [illegible] فالصواب تحويره وتهذيب الذى فى الامة الآن [illegible] به حرام على المسلمين فان الدين جاءه أعداء كالسيل العرم [illegible] عليهم من بين أيدينا ومن خلفنا وما بين ذلك فأخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون فى العلوم الجديدة يظنونها مخالفة له فوجب أن يكون علماء الكلام هم الباحثون عن نفى الشبهة الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة لا زيادة ولا نقص إذا علم الكلام [illegible]

بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما أن السلاح ليس لنا به حاجة إذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة إذا لم يكن مبتدع وكما أن السلاح يجب أن يكون فى كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع أسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها أدوية لأمراض أجسام الامة فكما أن لكل مرض علاجا فهكذا تعالج الامة بالوعظ وتصنع الاسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارئة عليها وكما أن من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلا كالذى يكون مريضاً ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الامة الاسلامية كلها بوعظ واحد ويظن أنه ينطبق على جميع الأزمان والامكنة اويقاتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل أو يدرس علم الكلام القديم الذى جعل دفاعا لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتوون وقد عدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين فى غير المتوكلين اذ ليس القصد مسئلة الكى وحدها بل كل أمر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه أباءنا فهو خارج عن التوكل وبعبارة أوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلا وعرفا فهو خارج عن التوكل وما أشبه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعى أسلحتنا بشعرائنا فكما نرى أولئك يدرسون و يصنعون ويعظون كما كان الأولون فهكذا ترى الشعراء إلا قليلا منهم يرجعون للتشبيه البدوى القديم ولا يذكرون ما يرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال ما يشاهدون فى مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط فى أمة سرى فى كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وتذكره)

وإجمال القول أن العلوم إما أن تكون أغذية أو أدوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما نخية وتحلية فهى ثمانية أقسام .

(١) فالأغذية الجسمية هى علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعيات وهى كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزرة وغيرها وكل

فروع ربما تفرع إلى فروع بتقدم العلوم وتمدين الامم

(٢) وعلوم الأغذية الجسمية التى للتخلية هى علوم سبك المعادن والأسلحة الجديدة والعدد من المدافع والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو للمحافظة على الأجسام من الخارج وأما التى قبلها فهى للمحافظة عليها من الداخل ومرادنا بالداخل مالم يكن من اغتيال نوع الانسان فيدخل فيه المساكن والملابس واتقاء الحر والبرد وغير ذلك

(٣) وأما علوم الأغذية العقلية التى للتحلية فهى علوم الحكمة النظرية وهولعمرك ينى على أساس علوم الأغذية الجسمية فترى علماء الحكمة العالية والفلسفة الالهية يبنون براهينهم على ما رآه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس إلى المعقول ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الأقسام اما صريحاً واما إشارة واما علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهى مقدمات ليست إلا للتوصل بها فالمتعمق فيها جهول ولقد صرفنا شطراً كبيراً من حياتنا فيهما تقليدا ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا أن الأمم حولنا يعرف الواحد منهم لغة ولغتين وأربع لغات فى أزمان قليلةونحن نمضى حياتنا كلها فى اللغة العربية وهم أعلم منا بها فياحسرة على أمة لم تجدمن يرشدهاويقيمها من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابنا هذا إذا تأملته وجدت فيه زبدا من علوم الحكمة والفلسفة العالية التى هى المقصود من حياتنا

(٤) وعلوم الأغذية التى للتخلية العقلية هى علوم الأخلاق الدالة على الطهارة من الشجاعة والعفة والعادات

(٥) وعلوم الأدوية الجسمية التى للتخلية هى علم الطب ومن العجيب أن هذا الفن يحتاج إلى فنون أخرى من الطبيعة بل يحتاج إلى علوم الطبيعة كلها كما أن الفلك يحتاج إلى علوم الرياضة أجمعها وكأن الأمراض وتقدير الأزمان يحثاننا على قراءة جميع علوم الأرض والسماء لنعيش فى رفاهية وراحة وترى الطب يدعو إلى كل علم يحتاج إليه علماء الزراعة ولو إجمالا فكأنه يشير إلى أنكم تتداوون بهذه العقاقير وهى

تداوى أجسامكم ولا بقاء لها إلا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج إليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو إجمالا لأن مدبر الكون يحب ترقينا فى جميع العلوم لنعيش فى راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر فى نزول الأنبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم الموقظات إلى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم فى أجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمى إليه المدنية والحضارة وإن جهلها أغلب الناس فالأنبياء يحنون والأمم يتراكضون فى ميادين الحياة سعيا وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى فجعل نفسه موضوع الجدال والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التى للتخلية الجسمية علوم الحرب التى يدرسونها فى المدارس الحربية (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

(٦) والعلوم التى هى أدوية جسمية للتحليه علوم المواقيت والفلك والهيئة فهى زينة للأمة وكمال وجمال ما عدا الضرورى منها كالأوقات المعروفة فهى من الضروريات لا الكماليات

(٧) والعلوم العقلية التى هى أدوية للتخلية فهى علوم الكلام التى تكون فى كل زمان بحسبه

(٨) والعلوم العقلية الدوائية للتحلية فهى المواعظ التى يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وأمثاله

وهذه هى أقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية وأول وزر يكون على الملوك والأمراء والعلماء والذى أعلمه أن أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفوه الأمراء ومتى عرفه الأمراء تقدمت الأمة وما الأمراء إلا أفراد من الأمة لا تدب عليهم وحدهم وإنما هم منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم)

فأى أمة أراد الله تعالى إنقاذها من الضلال تنبه حكماؤها أولا ثم نبهوا علماءها وهم يرقون أفكار أمرائها وعامتها فلينظر حكماء الاسلام وعلماؤه الى ماقلناه وليتيقظوا من رقدتهم وليقوموا من نومهم ليكون لهم أجور النبيين وتحيي أمتهم التى يحيي ذكرهم بحياتها ولا يظن العلماء أن علوم العربية والتفسير والحديث والفقه التى يموتون فيها ويحيون تنفعهم إلا بالعمل وتحريض الأمة على جميع تلك العلوم التى أشرنا إليها و إلا ماتت الأمة وعلماؤها فان السنة والقرآن قد حرضا على جميع هذه العلوم كما أوضحناه فى غضون كتابنا هذا ألا فليحى العلم فلتحيى الأمة فليحيى الدين فليحى الوطن فيجب على العلماء والحكماء والأمراء أن يحثوا الناس على جميع العلوم و إلا ذهب ريحهم اوخسروا الدنيا والآخرة

فليت شعرى لم ترك الامراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لايعقلون ألم يأن لكم أيها الامراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم أن تقتدو بالخلفاء الامويين والعباسيين ألم يأن لكم أن تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهتز لهم المنابر فتكسى ورقا خضراً . ساء ما وصلنا اليه ألم تعلموا أيها الأمراء أن خطبة الجمعة والعيد لكم وحدكم لتقودوا أممكم الى مصالحهم فى الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام يقعد الناس ونحن نيام

ألا فلتحى الأمة فليحى الوطن العزيز فليحى الدين فليحى العلم فلتقم الأمة فلتتقدم الصناعة أنتم أيها الحكماء ويا أيها العلماء تقودون الناس فى الدنيا وستقودونهم فى الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالانحطاط مآلكم فى الآخرة وإن كنتم راقين فهو مآلكم فى الآخرة ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

تتمة هذا الباب

قد علمت ان العلوم قسمان أغذية وأدوية ولا بد منهما فى بقاء الأمة إذ الأغذية بغير أدوية يتبعها ضرر و إفراط وتفريط فلا تجد ما يوقفهما عند حد فيكون هناك الضرر

العظيم والأدوية بلا أغذية مهلكة وباجتماعهما الصلاح وبعدمهما الهلاك

ولكن الاقتصار على الأغذية أقرب الى الحياة وعلى الأدوية أقرب الى الموت وعلى ذلك ترى فرنسا وما شاكلها ممن أعرضوا عن الدين أحياء حياة فيها مرض والشرقيين التاركين لعلوم العقل أقرب الى الموت فبهذا عرفت منشأ عمارة الأمم وخرابها وارتفاعها وانخفاضها وهى أربعة أقسام لا غذاء ولا دواء وهؤلاء هلكى غذاء لا دواء وهؤلاء مرضى كبعض الأوروباويين دواء لا غذاء وهؤلاء أقرب الى الموت كبعض الشرقيين غذاء ودواء وهؤلاء أحياء وهى المدينة الفاضلة التى اليها يصل النوع الانسانى وقد بلغنا إن بلاد سويسره بلغت هذا الحد

الفصل الخامس

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه فى هذه الأيام

أمة الاسلام ما حط بها فى مهواة الدمار إلا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم أرشدهم المرشدون وأفادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال افريقيا) فى الازمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون إلا القرآن وعلم الرسم الخاص به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفا تاما عن العلم وإن انقطع عن اتمامه انقطع عن كل خير فى الدنيا والآخرة وزاد أهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم لم يكونوا لينالوا حظاً من ملكة الانشاء إذ القرآن بلغ حد الأعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التى تقرأ فى إفريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ومن رأى [illegible] داس ضعف العلم فى تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم

القرآن الشعر والأدب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الأفادة فى الإنشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم أهل الأندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى فى أى العلوم عنايتهم به أكثر وقال ان علماء الأندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع إذ ذاك سند تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصارى شرقى الأندلس فهاجر أهلها الى أفريقية وقال . وكان لأهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هى طرق التعليم فى الأزمان الغابرة . وأنت ترى إن طريقة التعليم فى كتاتيب بلادنا تشبه أحط درجات التعليم . وهى تعليم أهل المغرب فى عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم فى ذلك الحين القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته (كما قاله العلامة ابن خلدون) وأرشد الى طريقة غريبة فى وجه التعليم وعاد فى ذلك وبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يأخذ الصبى بكتاب الله أول مرة يقرؤه ولا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم عليه منه ثم قال ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله تعالى وقال العلامة ابن خلدون وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهى أملك بالأحوال هذا ملخص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن أبى بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه وأنا أقول إلا فاحضرا أيها العالمان اليوم وانظرا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا الحال أسوأ مما رأيتما وتجد الطريقة التى وهى طريقة أهل المغرب عندنا واندرست طريقة الأندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة

الافريقية والمشرقية إلا فاحضر يا ابن العربى وسر معى فى الكتاتيب واقرأ (كذلكَ قالَ الذينَ لا يعلمونَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِمْ تشابَهت قلُوبهم)

ولقد اتفق لى أثناء تأليف هذا الكتاب أننى رحلت كما رحلت فى بعض أرجاء القطر المصرى لمشاهدة الكتاتيب فى القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق إذ لم أكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكراً فيه ولكن أبى الله إلا أن يظهر العجائب ويتم ما أراد من الكلام على نظام هذه الأمة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت أكواخا[1] يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الا ألفاظ القرآن والعقل فى معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبة لا هم لهم إلا ألفاظ ظانين أن البركة فى مجردها وأما السمع فالأغلب عنه معزولون ألا فلتحضرا أيها العالمان وتريا ما أحدث الدهر بعد كما تريا تحقيق آية اليهود إذ قال فيهم وَمِنْهم أميُّونَ لا يعلمونَ الكتابَ إلاّ أمَانِيَّ وإنْ هُم إلاّ يظُنُّون) أى يقرؤون ولا يفهمون وقوله فيهم (مثلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمارِ يَحمِلُ أسفاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِ اللهِ واللهُ لايهدى القَوْمَ الظالمين) ولقد بلغنا أن تعليم المسلمين فى غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب الاندلس إذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وأما علومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها إلا بعد حفظ القرآن إذ يمضى شطر من حياتنا ويمضى زمن غرس بذر الأخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بتهديد المعلم وضربه، فاذا قيض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم إلا يسيراً مع التكلف فى زمان الفتوة والكهولة وقلما تصلح الأخلاق بعد زمان الصبا

ثم رأيت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وإنما زاد الأمر

---

(١) كان هذا قبل طبع هذا الكتاب ولقد ترقت كتاتيبنا رقياً حسناً فنحمد الله حمداً كثيراً بهمة حضراتنا فى نظارة المعارف

وكثرت الشراح والحواشى والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع فى النحو والصرف .

وصار علم البلاغة إسما لامسمى له إلا السعد وشرحه وحواشيه التى هى عبارة عن كلام معمى كله تفلسف فى الآلات بغير وصول للمقصود من فهم القصائد والرسائل وكلام العرب والقرآن والحديث بل إذا نظرتما لم تريا إلا قواعد مجردة كقواعد المنطق فلا تطبيق له على المعقولات ولا للمعانى والبلاغة على الكلام وإن حصل التطبيق فانما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ علم الفقه والكلام والأصول والتفسير والحديث والاعتناء بالثلاثة الأول أكثر وبالآخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة تطبيقا على العلوم العربية لاسيا النحو

ولقد صدق ظنكما وأن العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جداً صعبة لاتوصل إلى المقصود فاذا حضر أحد من الريف ألزم بحفظ إعراب البسملة ووجوهها التسعة مع أنه لايدرى ماهو الاعراب وما هى الصفة وماهو الموصوف، وبالجملة فالعناية على وجه العموم متصرفة للآلات وهى قواعد اللغة لا اللغة نفسها إذ هى ذهبت ريحها

ولقد وقع الاسلام كله الآن فى هاوية الجهل ولكن جاء الغربيون وهم أهل أوروبا بسيلهم الجارف على الشرق وبخيلهم ورجلهم وشاركوا الشرقيين فى الأموال والأملاك ووعدوهم وما يعدونهم إلا غروراً وبثوا طرق تعليمهم فى بلاد المسلمين فتنبه بعض علماء الأزهر لهذه الطريقة الحديثة وأشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان . وها هم العلماء الآخرون تارة يشتمون وتارة ينفرون وقد أخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت فى مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التى بها نظام الحكومة وأسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء وأظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئاً من القرآن مع معناه والخط والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعادات ومحاسن الأخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل .

وقد فاقت فى ذلك كله المدرسة التى أنشأها خديو مصر عباس باشا الثانى فى هذه الأيام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوما متعددة فى أوقات منتظمة ونجاحها ظاهر . فخلط العلوم لايضر بطريقة التعليم وهذه هى طريقة ظاهرة النجاح ولو أن المسلمين فى جميع الاقطار قاموا بأعمال مثل هذه فى التعليم لارتقى الاسلام فى أقل من نصف قرن ولـكن ما دام الحال على هذا المنوال بقى الانحطاط إذ المتعلمون ما تخرجوا فى صغرهم إلا على أيدى هؤلاء الجهال الذين يقرأون مالا يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوماً فى حالة الأمم الاسلامية ولا حرية له ولا ذنب عليه وإنما الذنب على طريقة التعليم فى الصغر التى ضربت عليه بالذلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو إلى نسخ هذه الطريقة وأن تؤلف كتب غير هـذه التى بأيدينا فى جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالى في الاحياء ويرشد الناس إلى الصناعات حتى نصل إلى المدنية الصحيحة

ولقد ينجع كلامنا الآن أكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء ما فرطنا فى الـكتاب وقيل ذوقوا ما كنتم تكسبون ، ولنترك ما وجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (وإذا قيلَ لهمُ اتبعُوا ما أنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لايعقِلونَ شيئاولايهتدون) ولقد صار قراء القرآن فى هذا الزمان تضرب بهم الأمثال فى سوء الأخلاق والفقر إذ هم مجردون عن كل دين ودنيا فى الغالب إلا من قيض الله له من يدخله الجامع الأزهر فقد يرقى إلى صفة العلماء ولـكن يبقى محكوما بعادة التدريس المضرة ولقد دار الحديث بينى وبين أحد مشايخى بالجامع الأزهر أثناء تأليف هذا الـكتاب فقال سمعنى أنكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية والفلـكية وغيرها ، فقلت له نعم فقال أليست الطبيعة كفراً ألا تتذكر أنهم نصوا على ذلك وأنت حضرت فى الأزهر عندنا هذا الكلام فقلت نعم ولـكن علمت أن هذا ليس له وجود إلا فى الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكابر علمائنا رحمهم الله تعالى كالغزالى وغيره أنها

أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن بأن معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرها هى الطريقة المثلى للوصول للخالق بل العالم هو الذى يعرف تلك العلوم مع الحذو بها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القبيل وقلت له لقد ألفت فى هذا الموضوع نفسه كتباً وأوردت له منها أشياء مما فى الذاكرة فرأيت بوارق السرور تلمع فى جبينه واستبشر فسرنى ذلك وعلمت ان الأمة تحتاج إلى من يرشدون العلماء إلى مابه صلاح الخلق ولقد وجدت نفسى مغرمة بهذا العمل مع علمى بقصور باعى ولكن أودى مافى عنقى من الأمانة لأدافع بها عن نفسى يوم لاينفع مال ولابنون إلامن أتى الله بقلب سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك قلت نعم فقال وكيف ذلك أليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة فى فهم اصطلاح بعض الأدميين وهم كثير من المؤلفين مع البعد عن المقصود الأصلى ولأذكرك ياسيدى بعبارة منك فى الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشى ما حواشى) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجيب أنا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون إلا على شيخ يأتى لهم بالغرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون إن العادة استحكمت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعى فى ازالتها فله أجر نبى إذ يكون مجددا لهذه الأمة التى تنكست أعلام مجدها ودك سور مدنيتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسناه فى الكلام على التآليف وكثرتها واختصارها ووجه الصواب فى تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل فى أن كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم ان مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة

التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي فى واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك وكان التعليم سهلا ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب فى ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد فى الغاية منه إلا فى القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة إلا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا فى المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره فى هذا كله فلا يهدينى له بتحصيل علم العربية مثلا الذى هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون فى المقصود الذى هو الثمرة ولكن الله يهدى من يشاء

﴿ تذكرة ﴾ فى أن كثره الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برنامجا مختصراً فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى

الألفاظ وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأصوله وأبن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وأمثالهم وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لابد فيه تخليط على المبتدىء بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتى ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتراحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعلم فى تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع فى تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة وإذا قصر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ تذكره ﴾ فى وجه الصواب فى تعلم العلوم وطريق افادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان بالتدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة وغايته أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجوهه الى أن ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك عويصا ولا مهما ولا متغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص

من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له و يتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته و يحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم و يطالبونه باحصار ذهنه فى حلها و يحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه و يكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه ويلقون له من غايات الفنون فى مباديها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا و يكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال و بالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات و هو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنه و حسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه وانما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغى للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكة ما فى علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس عن التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدى من يشاء وكذلك ينبغى لك أن لا تطول على المتعلم الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة لأن الملكات انما تحصل بتتابع العقل

وتكراره واذا تنوسى العقل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم مالم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا و يستصعبان و يعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اه

ولقد مشى على هذه الطريقة فى الاختصار والتعليم مدرسوا المدارس الأميرية فى بلادنا المصرية ، فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر ، واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالأول كتاب بسيط جداً والثانى عبارة عن الكتاب الأول مزيداً فيه عبارات أخرى وهكذا الثالث عن الثانى مع زيادة عبارات والرابع فى فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فها هى ذه مصر الآن فيها مدارس حسنة النظام وتعليمها علوم العربية وغيرها وتأليف كتبها أتى بالمقصود ، ألا فليعم التعليم بلاد الاسلام على هذا النمط وأحسن منه .

وأول الغيث قطر ثم ينسكب ولعمرك ليست علوم العربية مقصودة لذاتها ، فعلوم العربية والقراءات بل والتفسير والحديث إنما يراد بها الاطلاع على العلوم التى بها الحياة الحقيقية فى الدنيا والآخرة وهى العلوم التى هى غذاء والتى هى دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا

وقد جعل الغزالى رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشوراً وجعل التفسير أسفل القشرة مما يلى اللب بل جعل المفسر كالقارىء غاية الأمر أنه أرقى منه ، إذ هو أقرب إلى العلوم . أما حافظ الروايات وقارىء علوم البلاغة فإنما هو فى القشر البحت وكذلك علم اللغة ولم ير أنه هو على نفس العلوم

الفصل السادس والسابع

فى وجوب استعمال العقول وترك الفضول

وفى حكم النسخ فى آيات القرآن والأحاديث وما مناسبته لهذه الأحوال التى نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه فى تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم ولقد جعلنا الفصلين فصلا واحداً لأن العقل يشهد ان نظام العالم ملازم للترقى المصاحب للنسخ الذى يشهد به العقل كما جاء به الوحى

لقد علمت أيها المطلع على كتابنا هذا ما طبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فترى الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها فى تغير دائم ونسخ مستمر ومامن شمس إلا وسيأتى لها أجل مسمى تمحى فيه من الوجود وهكذا الأقمار والسيارات والثوابت وذوات الأذناب وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مسمّى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الأرضية كماغرب نجم أشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا أنواعها فكم من أنواع عثر عليها فى طبقات الأرض انقطع وجودها الآن بالمرة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً وهكذا سطح الأرض فكم من عامر أضحى غامراً وغامر أضحى عامراً وجبل صار بحراً وبحر صار جبلا على هذا تطابقت آراء العلماء فى كافة أنحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأى أرضاً قفراً وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحراً وبعد منها شاهدها مدينة زاهرة . وما ذكر الحكماء هذا إلا رمزاً لحال الأرض على حسب ما طبعت عليه [illegible] به مدعيها وهذا كله نسخ حقيقى فى الطبائع الكونية والكائنات [illegible] ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم فى صنعه (كل يوم هو فى شأن) فلا بد أن يكون حكيما فى قوله وما أنزل على رسله إذ

الحكيم فى قوله حكيم فى فعله ولذلك تراه يغير الشرائع بتغير الزمان إذ لاجرم أن تغير الزمان وتتابع الأجيال يحدث تغيرا فى الأخلاق وتباينا فى الطباع فيكون بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب مايقتضيه الزمان والمكان المتغيران فأنزل آدم وشيثا ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وجاء كل شرع يناسب أهل زمانه وكانت هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة الأخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحى من الله وإلهام وتعليم وارشاد فتكون الشريعة متصلة بما قبلها من وجه منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرقى مما قبله وأوفق منه لنوع الانسان وكأنها سلسلة ترقى شخص فيكون جنينا فطفلا فشابا فكهلا وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من الحيوانات المكركسو بية الصغيرة وتزيد شيئاً فشيئاً الى الحيوانات العالية كالانسان الذى يليه الملك فهكذا الديانات يظهر انها ابتدأت من الأبسط إلى البسيط الى المركب وهلم جرا فشريعة ابراهيم للتوحيد وموسى للتوحيد والأمور العملية وشريعة عيسى أفرطت فى العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا إفراط ولا تفريط فدين الاسلام فى الديانات كالانسان فى الحيوانات ولذلك كان النبى خاتما والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عمت الكرة الأرضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل أخذ بما يلائمه من كفر و إيمان ولابد أن يأتى يوم تظهر فيه الديانات محقها ومبطلها لعموم النشر و بسرعة المواصلات فلا نزوم إذن لأنبياء يبعثون ويرسلون إذ الكتاب موجود وهو محدد رسائل البريد غير ممتنعة موصلين فى جميع الأقطار وما أهل الكرة الأرضية إلا كأهل بيت واحد يتحدثون وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبى من الأنبياء قط نعم هذه هى المعجزة العجيبة

ثم لنرجع الى ما نحن فيه فنقول :

جاءت الشريعة الاسلامية ونزل الوحى بآيات وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحى وسميت سنة وحديثا ثم ترى الآية تنسخها آية وحديث ينسخه

حديث فعلمنا أن ناظم هذا الكون جعل نظامه واحداً فكأنه يقول هاأنا ذا أغير خلقى بيدى (كل يوم هو فى شأن) وإلا كان الوقوف على نظام واحد قصوراً فى الحكمة وجوراً فى الطبيعة وظلما فى الحكم فلابد من التغير وكل يوم لنا شأن فى أفعالنا وليست الاقوال تخالف الأفعال فى سيرها

فهذه الديانات كل دين منها يوافق ما قبله فى بعض ويخالفه فى بعض على مقتضى الحكمة ونواميسنا فهكذا أنزل القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية الآية ، والحديث الحديث لتقلدونا فى نظام مدينتكم مما لا يخالف آياتنا وسنتنا فنأتي بالحكم لما يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتى بآخر لتغير الأحوال (ما نَنسخْ مِن آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثلها) ولما كان هذا يوافق نواميس الكون كما ذكرنا أعقبه بقوله (ألم تعلم أن الله على كلِّ شىء قدير) وإذا كان كذلك فوقوفه عند شىء دون شىء هو الجور والظلم فى المادة ومثلها الأحكام التى نستبدلها بخير منها أو مثلها (ألم تعلم أن الله له ملكُ السموات والأرضِ وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير)

وقد آن أن نذكر جملا من الناسخ والمنسوخ لتعلم أن الله أراد أن ينبه أن أمة الاسلام التى انحط مجدها آن أن تغير نظام مدنيتها وتؤلف كتباً وتنشىء صنائع وتنسخ ما كانت تصنعه من قبل نسخاً بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الأمة والعلوم الحديثة نتنقى وحدتها بالأصل وتترقى مدنيتها وتساكن الأمم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت الشرائع السماوية فى التوحيد (ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) ، (وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)

فنظر كيف اتفقت الأمم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم الأخلاق واختلفوا فى أمور عملية

فهكذا [illegible] فيما سيأتى فنسخ الآية بآية أخرى قد اشتركتا فى العدل وموافقة [illegible] فى [illegible] والصحة وقد يكون النسخ تدريجيا كتحريم الخمر فهكذا كتب [illegible] مدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم أن يأخذوا فى تعبيرها

مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يولع بالحديث فتتوازن القوتان ويدوم الترقى وحفظ كيان الأمة كما حفظت أمم الأنبياء وترقت شعوبهم وكما نرى فى دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى وما جاء الشرع الاسلامى بالنسخ إلا ليرشدنا الى كثرة التروى والتفكر وأن ننظر فى القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن الى ذلك فقال (فبشّر عبادى الذين يستمعون القولَ فيتّبعونَ أحسنه أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ وأولئك هم أولو الألباب)

ولعمرى أن الأمة التى تقلد الشريعة الاسلامية فى ناسخها ومنسوخها وتجرى على منوالها هى التى استمعت القول فاتبعت أحسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب سواء كان فى نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غرٌّ إنى أريد تغيير النظام مع مخالفة الدين كلا وإنما الدين قواعد كلية تحتها فروع كثيرة فهى كمسألة حسابية كثيرة الحل أو كحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة

عجباً لجاهل يظن منافاة النسخ فى الشريعة لها وهو فى الحقيقة نظام لا يجوز أن يهمل بل لابد منه لكل عمل وعليه فلينظر علماء الاسلام والحكام فى علوم الأحكام وليأخذوا ملخصا من المذاهب المشهورة وغير المشهورة ويجمعوها فانونا تجرى عليه الأحكام ويغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام اذا رأى أهل ناحية من نواحى الاسلام أنها أليق بهم وإذا لم يعرفوا هذا فليبشروا بأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة(وانى أحمد الله إذ وجدت قضاة بلادنا فعلوا ذلك قريباً . أنظره فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة الكهف مطولا عند قصة الخضر وموسى عليه السلام)

وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحى بالآية ثم يأتى وحى آخر بآية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما من عند الله يوافق الأمة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم أن ينظروا ما يصلح للأمة زمانا ومكانا وأن يأخذوا من أقوال علماء الأمة التى لانهاية لها فى الكثرة ما يليق بهم زمنا ومكانا ليوافقوا مصالح بلادهم إذ الشريعة دواء وأحوال الأمم تعتريها الامراض فمن لم يوفق لمعرفة الداء

هلك المريض وهكذا هلكت الأمة باستعمال مالا ينطبق على حالها والدين الاسلامى فيه جميع العقاقير التى تنطبق على عامة أمراض الامم وحاجاتهم ولقد جعل من مبنى أصوله أن المشقة تجلب التيسير وأن المضطر يأكل الميتة وغير ذلك مما هو مذكور مسطر فى الكتب

ولعمرك لم يعطنا الله عقولنا إلا لنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط أن يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية والغضبية كالدين لعقول أفراد الأمة ومتى تركت عقولها ولم تطبق أحكام دينها على مصالحها واتكل أهل مصر على كلام البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الأمة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه إذ لم يفرقوا بين الأحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها فى كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها فمن الناسخ والمنسوخ

(١) انها فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة

(٢) وقد أخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفى الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى الصلوات الأربع بهيأتها كما كان يصليها فى أوقاتها فنسخ ذلك التأخير بقوله فان خفتم فرجالا أو ركبانا وصلاة الخوف مفصلة فى السنة

(٣) وكان حد الزانيات الحبس والأذى بقوله . (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد [illegible] وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين [illegible] عن [illegible] جلد له

(٤) [illegible] النبى صلى الله عليه وسلم قال انما جعل الامام ليؤتم به فاذا صلى قائما

فصلوا قياماً واذا ركع فاركعوا واذا رفع فارفعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد واذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعين فنسخ ذلك بما ورد انه صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه فأتى أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس فاستأخر أبو بكر فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كما أنت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبى بكر فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر قال الشافعى وبه نأخذ وورد التصريح فى رواية عائشة بأن أبا بكر والناس قيام والنبى عليه الصلاة والسلام جالس فى هذه الصلاة

(٥) وفرض الله على العشرين أن يقاوموا مائتين وعلى المائة أن يغلبوا الفا ولما علم ان فى القوم ضعفاً جعل الواحد منهم باثنين فقال (خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فيكم ضَعفًا الآية)

(٦) نزل يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا فعلم فرض قيام النصف أو الزيادة عليه أو النقص عنه ثم نسخ بقوله فى السورة بعينها (انَّ ربكَ يعلمُ أنّكَ تقومُ أدْنى مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ منَ الَّذينَ مَعكَ وَاللهُ يُقدِّرُ اللَّيلَ وَالنّهارَ عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ فتَابَ عَليكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسّرَ مِنَ القُرآن عَلِمَ أَنْ سيكونُ مِنكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يضربُونَ فِى الأرضِ يَبْتغونَ مِن فَضلِ اللهِ وآخَرُون يُقاتِلُون فى سَبيلِ اللهِ فاقْرَءُوا مَاتَيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصلاةَ وَآتُوا الزّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قرْضاً حسناً) فوجب بهذا النص ماتيسر من القرآن فى الصلاة فى الليل ثم نسخ هذا الوجوب أيضاً بقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أنْ يَبعثَكَ ربُّكَ مقاماً محموداً) ويدل له حديث طلحة بن عبيد الله قال جاء اعرابى من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال النبى صلى الله عليه وسلم خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال هل على غيرها قال لا الا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح ان صدق وروى عبادة

ابن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة

(٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآية (كُتِبَ عَليكم إذاحضر أحدكم الموت إِنْ تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ وَالأقربين بالمعروف حقًّا عَلَى المُتَّقين) وللزوجة بقوله (والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُم ويذَرُونَ أزواجاً وصيةً لأزواجهم الآية) فبهاتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والأقربين وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميراث الوالدين والأقربين والزوج من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية للوارث وبقيت سنة فى الأقربين الوارثين فالأباعد واختصت بالثلث فلقد أعتق اعرابى فى مرض موته ستة مماليك فأجاز صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لأنهما الثلث ولم يجز الباقى وجعل التصرف فى المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفه مسئلة تحريم الخمر ولا ريب ان فيها نفعاً من وجه وضراً من وجه آخر فهى من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الأول فى مقام الامتنان جريا على مايعلمون وأخذاً لهم بما يفعلون ومجاراة لافهامهم واستدراجاً لعقولهم فقال تعالى فى تعداد النعم (وَمِن ثمرات النخيلِ وَالأَعناب تتخِذُون منه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إنّ فى ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يعقلون) فجعله فى مقام الامتنان

ولما كان كل شيء فى العالم له نفع وضر وكان التحريم والتحليل يرجع إلى غلبة أحدهما على الآخر فمتى غلب الضر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهما إِثْمٌ كبيرٌ وَمَنافعُ لِلنَّاس وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) فأبان هنا الحجة الاجمالية ان الضر أكثر من النفع ومتى كان كذلك فالعقول السليمة تتركه [illegible] ان الصحابة تقسموا بعدها قسمين فشربها قوم لنفعها وغادرها آخرون [illegible] التحريم نصاً فجاء قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لاتقربوا [illegible] وَأَنتم سُكارَى حتى تعلموا ماتقولون) فحرمت عليهم فى وقت الصلاة

[illegible] وهو خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم

فجاء قوله تعالى (يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيسرُ وَالأَنْصَابُ وَالازْلاَمُ رِجْسٌ من عمل الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَكُم تُفْلِحُونَ إنما يريد الشيطانُ أَنْ يُوقِعَ بَينكُمُ العداوةَ والبغضاءَ فى الخمر والميسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذكر اللهِ وَعَنِ الصلاةِ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهونَ) .

فتأمل كيف جعل التحريم تدريجاً ولم يذكره مرة إلا مقرونا بذكر سببه معه ذكر فى التحريم المطلق سبب تحريمه من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خبائثه لظهورهما بين الناس وشيوعهما فى الشار بين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما يقال فى الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضى الله عنها وعلمت ان كل شىء ينزل لمناسبة الأحوال قالت لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأحدثه النساء بعده لمنعهن الخروج إلى المساجد فكأنها قارنت منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت فى زمان هذا القول وكانت أنقص فى زمان النبوة اذ هى علمت ان الوحى كان ينزل لمقتضيات الأحوال والحكم

فهذه ثمانية النبذ من الناسخ والمنسوخ عرفت بها صنع الله وشرعه متطابقين وانه مطابق لقوله — ألا ترى ان هذا الكون كله جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت ان أحوالها متغيرة فى أمور جزئية تتغير دائما مع حفظ النظام العمومى ولما كانت أفعال العباد جزءا من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خلقكم وما تعملون) وكان لهم نوع اختيار خلق لهم عقولا وأنزل لهم وحياً فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نصح يوافق الحالات الموافقة لأزمانهم وهكذا الوحى جاء بهذا التغيير بالتنبيه على أنكم ملزمون بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون الجزئيات من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان مع حفظ القواعد العمومية الشرعية كما تتغير النظامات الكونية الجزئية مع حفظ النظام العمومى والقواعد والنواميس العامة — ألا ترون ان البحر قد ينقلب براً والبر بحراً والنظامات ثابتة فهكذا يجب أن تفعلوا كذلك فى

لايخل بالشرع السماوى فياأيها المسلمون اخوانى هاهوذا فعل الله فى ملكه وكلامه فى تنزيله وفعل نبيه صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالية جار على تلك النواميس بعينها كأنهم درسوا (يقلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ) وكأنهم فهموا (يمحو الله مايشاء ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب) أتدرون ماالذى يفهمه الحكماء من هذه الحال يقرأون على صفحات الوجود خطابا من مديره يقول هذه العبارة (أيها المسلمون ان لم تغيروا نظام مدنيتكم التى شب الدهر وقدهدمت فلابدمن أن أسلط عليكم من يغيرها وأنتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا أخذناكم قهراً ولسنا نترك سنة التغيير وهى من أجل نواميس الكون لجهلكم (كلاَّ سوفَ تعلمونَ ثم كلاَّ سوف تعلمون) ألم تعلموا ان فعلنا كله ونظامنا جميعه لايبقى على حال واحد إلا فى العموم وتتغير الجزئيات فالى كم تنبهون فلاتزدجرون والى متى تقرءون ولا تفهمون ألم تقرأوا (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا) أعطيت صالحاً آية الناقة لقوم ثمود فكذبوا وظلموا ثم أعطيت موسى آية العصا إذ انقلبت حية فآمنوا به ثم آمنوا بالعجل حين رأوا له خوارا إذ من آمن بالعصا حين انقلبت ثعبانا فهو أحرى أن يؤمن بعجل يخور وهو مصنوع من ذهب إذ هو أجمل من الحية وأرقى جسما ونفعاً وهذه الآيات المجسمة لانرسل بها إلا تخويفا للأمم إذ لاتفيداليقين وهذه الأمم التى أرسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعدادافهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فأعطيناهم من الآيات ما يناسبهم وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لا نرسل بها إلا تخويفا والتخويف أدنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب فالاقناع فالحجة ولذلك جعلناكم أمة وسطا معجزتكم هو القرآن تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التى هى أرقى المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هى انما تحس بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك

بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قلنا لنبيكم (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) لأن هذا نبى وليس كأولئك الانبياء الذين أتوا بمعجزات محسوسة لا تثبت فلذلك كانت تلك الأمم تضل سريعا وأما نبيكم فانه آخر الأنبياء فوجب أن تكون معجزته عقلية ثابتة مدى الأزمان ولذلك قال فى آية اخرى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات إلا تخويفا) هذا هو الذى يقوله الحكماء فى الحادثات فى الوجود واشارات الوحى وتتابع الديانات ويعلمون أن الله أرانا التدريج فى المعجزات والترقى فيها من المحسوس إلى المعقول شيئا فشيئاً حسب ترقى عقول الأمم المتتابعة فكل أمة جاء لها نبى تكون معجزاته على مقدار استعدادهم ــ ولا جرم أن التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات الانبياء الاولين كانت للمرتبتين المتأخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما فى قوم وثمود والدين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم أما نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء بالثلاثة الأولى غالبا لأن شريعته دائمة إلى آخر الزمان ولن تدوم إلا بالحجة والبرهان الذى هو القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فهكذا فليكن نظام المدنية الاسلامية لتطابق فعل الخالق فى الكون واندياد ونفس دينه القويم

ولعلك تقول ماالذى تريد بهذا التغيير ــ أتريد أن تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول كلا فأنه كفر ومناف للشريعة التى نتمدح بها وإنما أقول إعلم إن هذا الدين أصبح محجوباً عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب إن هذا القرآن الذى هو أساس الدين أصبح الناس فى غطاء عن فهمه حتى نطبق عينه لأن معنى هذه الآية (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) وها هو الآن والحق يقال أننا لا نستطيع سمع القرآن ولا فهمه نوع تبدت وأمور حدثت فأحدثت تقلب القلوب والأبصار فترى العالم إذا قرأ التفسير يجعل جل عنايته فى تطبيقه على النحو والصرف ولو لفت ذهنه إلى المعنى لم يجد مساعداً من نفسه لتلاوة لما ركز فى نفسه من الصغر واعتمد عليه أن يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقول نعمه

وغوغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . ومما زاد الأمة بلاء وجهلا أنه ركز فى عقولهم تقليدا أن الاحكام الفقهية هى ثمرات القرآن مع أنها ثمرة نحو (١٥٠) آية لاغير وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آية ما بين عظة واعتبار وأمثال وقصص الأمم وسياساتها ومنذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا لم خلقوا وماهى نظام المدن ويعيشوا عيشة لأحرار فالاقتصار على جزء من ثلاثين من الدين وترك الباقى إماتة للعقول وإضعاف للهمم وزاد الطين بلة ماتلقفه الأصاغر عن الأكابر أن المدار على فهم تلك الشراح والحواشى المعماة نعم صدقوا فانها تشحذ الأذهان ولكن فى أمور عرضية لاجوهرية ويا حبذا لو كانت هذه القوى فى نفس القرآن والحديث والعلوم الكونية والصنائع البشرية والنظم والسياسات فتصبح معالم المدنية واضحة وأعلامها منشورة على أرجاء الإسلام ولقد زادهم بهذ عشقاً أحاديث جاءت فى فضائل السور موضوعة لجلب الرزق وصرف الضر مما جعل القوم يقرءون غاضين الطرف عن المعنى مع أنه انما جاء للذكر والايقاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فتأمل كيف جعل نتائج البركات هى تدبر العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد شغل كثير من القراء بأن يجعل القراءة وسيلة إلى قضاء الحوائج وأما المعنى فإنه مهجور حتى يحق لنا أن يقول الرسول نبينا عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) اذ الألفاظ وحدها ليست مقصودة فمتى هجر المعنى فسيان الألفاظ وعدمها عند التحقيق نعم نحن لا ننكر أن القراءة بلا معنى لها فوائد وثمرات وثواب ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) فمن ترك الأسمى وهو المعنى هنا واستبدلها بالأدنى وهو مجرد التبرك مع الغباوة فى الفهم فقد استبدل الأدنى بالأعلى بل الجواد الذى يوضع عليه الاكاف ويحمل حمل الحمار فيه نفع ولكن ساء مثلا القوم الجاهلون ويكفى هذا مقتاً وغضباً وتقريعاً وذما قول الله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل

القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الألفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لايقرؤها لأنه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بئس مثل القوم الذين كذابوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب فى مسألة بلعام بن باعورا الذى علم ولم يعمل إذ الكلب أقرب إلى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويجرى على شهواته ولا ينفعه معاشرته للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلا للجاهل والكلب مثلا للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما ألطفه

ولقد سألنى شاب من ذوى الفهم قائلا أهذه العتاقة التى يقرؤها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم أن أحاديث كثيرة وضعت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان فى علوم القرآن وما ذكره الشيخ السيوطى هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذى شغلهم الى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا فى خطأ بجهلهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن لمجرد لفظه لامعناه فيكررون سورة قل هو الله أحد مائة ألف مرة وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علما نعم فى هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثريا وأين الثرى . فقال لى قد ثبطت همتى عن إكمال عتاقة بالصمدية فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب أليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرأ جزء الأخير من القرآن أى من سورة النبأ إلى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مرارا مع استعمال المعنى حتى يرتسم فى ذهنك ثم هب ثواب ذلك فى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نورا لك وتقريبك فى الدارين فرأيته سر بهذا سروراً ظاهرا وانشرح قلبه وشرع فى العمل . ولقد جاء بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن وبركته فى مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تنكر البركة والله تعالى يقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك

وكان القائل أكبرهم مقاما وأعظمهم قدرا فصفق له الحاضرون وطربوا

فقلت له بعدها ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب مع ظنهم أن البركة إنما تكون بالتمائم والرقى وهذه العادة زادت رسوخا بكتب الروحانيات فقد أدخلت كثيرا من الآيات فى علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخل بها الصائبون علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مرة مع شروط وأحوال ليست هى المقصودة بالذات من إنزال القرآن

وكما اقتصر القرآء على ألفاظ القرآن تراه كثيرا ما يقرأ على الأموات وفى الطرقات كأنه قيل أن يقرأ على الاموات الذين لا يفهمون فنحن وهم سيان حتى أن العامة يحملون قوله عليه الصلاة والسلام ـ اقرأوا على موتاكم يس على القراءة على القبور مع أن مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب ويتفكر فى خلقه فيموت موحداً. وعلى هذا صار القرآن حرفة للارتزاق ولما انغلق معناه على الافهام أصبح لايسمع إلا بصوت حسن إذ هو المقصود لامعناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الالفاظ والظواهر فى كل شىء فترى قواعد العلوم العربية معتنى بها وإذا قرأ متعلم قصيدة وطالبته بفهمها أو حلها عجز وإنما يأخذ فى الاعراب ويضيع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالالفاظ هى التى لها السوق الرابح حتى انك ترى الحريرى جعل مقاماته كأنها كتاب غريب اللغة لا يفيد الأمة كيف تكون الافكار

ومما يقرب من هذا أن الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائد التى ترفع همم إلا قليلا وما الانشاء والشعر إلا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على سامعه كما كان مؤثرا على المتكلم كما ترى فى تأليف الجاحظ فى الأدب والسكاكى فى العلوم العربية والغزالى فى الاحياء أما هذه الحواشى والشراح والمتون فهى مغلقة صعبة يجب ان يستبدلها باخرى أسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق فى البحث لاسيما فى العلوم العالية فهذا الذى ذكرته فى الكتب وفهم القرآن من أجل مايجب أن

يغير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التي هي غذاء الامة فلم تترك هذه ولا ريب أن علوم الدين دواء فلم تقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فيها وتعاصت العبارات أصبحنا نرى أهل العلم يظنون أن الانسان متى قدر على فهم العبارات فقد أضحى عالما مع أن القدرة على فهم العبارات شيء والفهم والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل الانسان أن العرب الجاهلية يفهمون العلوم أقرب من غيرهم بسرعة فائقة مع أن اللغة شيء والعلوم شيء آخر وما اللغات إلا طرق لتوصيل المعاني الى الأذهان وياليت شعري كيف تصبح الكتب التي هي معبرة عن أحكام القرآن والحديث أصعب منهما بكثير مع أن الأصعب لا يفسر الأسهل بل الأمر بالعكس والأعجب من هذا أن المؤلفين يتنافسون في تصعيب العبارات حتى استغلقت العلوم ولم يظهر من معاني القرآن و إشاراته في الكتب إلا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا قرأت حديثا أو آية وجدتهما في غاية السهولة و إذا قرأت عبارات المؤلفين وجدتها على الضد من ذلك . ولما تمادى أهل العلوم على هذ الفكر وتوارثوه ظنوا أن صعوبة العبارة هي أعظم ما يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولته ولا تلتفت أذهانهم الى ما فيه من حسن الأسلوب وذوق المعنى اذ ليس مما طبعوا عليه من جمود العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين أكثر تدقيقا وأقدر وان كانوا يتحشون النطق بذات فبهذ تراكم [illegible] أهل العلم والقرآن والحديث وان حضروهم مرر ولم يبحثوا إلا على العبارات المستصعبة ونبذوا كل سهل وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

ولما تمادوا في هذا أحبوا أن يعمموا الحكم في جميع أحوال الدين فقالوا ان القرآن لا يفهم ولا يفسر إلا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع أنه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

وياليت شعري كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية في المدارس

الأميرية ويصعب القرآن ويتعاصى عن الفهم أم كيف تكون اللغة الفرنساوية والانجليزية أسهل من اللغة العربية التي جاء القرآن أسهل منهما حتى قال (ولقد يسرنا القرآن للذكر) بهذا وأمثاله ضاع الاسلام وتفرق أيدي سبا وذهبت الدولة ياقوم رعاكم الله أليس النصارى يقرءون إنجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتتهذب الاخلاق وتنمو العقول أليس القران أحق بذلك .

نعم ان في القرآن أشارات لعلوم كثيرة مثلا قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجمال حتى تحث القارىء على تعلم هذا العلم ومن العجيب أن كثيرا من أهل العلم إلى الآن يظنون أن مثل هذا العلم لالزوم له فان قيل له أن هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعثم في الجواب ولعمري أن القوم في أطوارهم جميعا متناقضون متشاكسون أفمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزنا ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرون لا مقرونين بالتواضع المفرط وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تتمكن صبغة الضعف في النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط في كل شيء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فاين نحن من هذه المعاني والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا أن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم دائما هو وأصحابه بصفة الحماسة وعلو النفس والمحافظة على [illegible] يقتدى به في أعمالهم وتشريفهم

[illegible] من هذا كله والأمر [illegible] دخل على عقولهم وثبت في أذهان كل متعلم أن [illegible] لأمة من [illegible] وأنه ليس على الانسان إلا تخصصه مع أن شرف الانسان في [illegible] والآخرة موقوف على نفعه [illegible] لقومه والذي أراه أن هذه الدسيسة [illegible] في الأمة [illegible] عصر [illegible] العباسية. [illegible] أن [illegible] بصحبتهم

يفسدون عليهم ملكهم فتحاشى العلماء عن النصائح وانزووا فى الزوايا والمساجد والتكايا وأضحوا لا ترى إلا أجسامهم وتركوا الامر فى يد الحكام يديرونه كيف شاءوا ومن آثار هذا أنك ترى الخطب المؤلفة فى تلك الأزمان التى لم تزل معمولا بها إلى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل ما به اعلاء الامة واتحاد كلمتها فياقوم إلى متى هذا الانحطاط ألم يأن لنا أن نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء ونستبدلهم بقوم عالمين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون ما به يشعرون

أصل الخطب انما تكون للأمراء والملوك يسوقون الناس إلى ما به صلاحهم فى الحياة الدنيا والدين فيسعدون فى الدارين ويقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الأمة على التدريج كما جاء النسخ فى الآيات والاحاديث والشرائع السماوية مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

الفصل الثامن

فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

اعلم أيها الذكى أنى أكتب هذا وأنا منشرح الصدر واسع الأمل واثق بالمستقبل القريب أكتب هذا اليوم بعد الظهر يوم السبت ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ أكتبه وأنا قرير العين بما تقرؤه فى الجرائد من تقرب أمراء العرب وأمراء الاسلام عموما فهو ذاك الأمير فيصل يزور الأستانة ورئيس الجمهورية التركية يقابله خير مقابلة وهو ذا الامام يحيى إمام اليمن يقابل الود العربى بمثله والوفود ذاهبة آتية بين هؤلاء الأمراء وهكذا ملك الأفغان كل هؤلاء وشاه العجم جميعا يتبادلون المودات والتحيات هذه هى الحال التى طرأت على الاسلام لم تكن كما نراه اليوم بل الأمر

فوق ذلك هذه اليابان وأمم الصين والهند وجميع ممالك الشرق ساعية للاتحاد اللهم ان الأمم كلها أشبه بجسم واحد ولكنهم إلى الآن لايعلمون ذلك بل الانسان اليوم أشبه بطفل بعد الفطام فهو حائر دائر لايدرى مصيره (وإلى الله عاقبة الأمور ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

الفصل التاسع

فى الكلام على سياسة أوروبا واستطلاع علومها

لم يبق أقل ريب فى ان الأمم اليوم كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا وقد جمعهم البرق والبريد وسفن البحر وقطرات البر فلا مناص من التداخل والتزاحم

لاحياة لأمة جاهلة ليقرأ المسلمون علوم أوروبا كلها ففريق لعلوم الطبيعة وفريق للرياضيات وفريق للسياسة وهذه فروع كثيرة توزع على الأفراد ولا يتركون أمة إلا نقلوا علومها على شريطة أن يجعلوها مقبولة فى أحوال الأمة وعوائدها لأن الجاهلة اليوم لاحياة لها .

الفصل العاشر

قصص القرءان وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية

وفيه خمس مقالات

المقالة الأولى

الانسان فى حيته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فإما أن يكون مكبا على وجهه أو يكون سويا على صراط مستقيم

كل انسان يتخذ طريق سنه الأبوان أو الأقربون أو الأخدان والأصحاب والعشيرة [illegible] مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير

أو الشر . وبمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان فى سيره فى نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الأصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولا جرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل فى سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق فى شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يغنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يستسمن ذو الورم وينفخ فى غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا فى آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر الحوادث برونق بهج ونوائجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساتينها مقتطفا من رياضها أزهارا وجانيا من أشجارها أثمارا ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لا سيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء لأنا نعلم أنه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو تعالى يقول (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينتقل قارىء التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفن الأفكار فى حج لا به ويتوب [illegible] فى خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ويقول سيدنا سليمن عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) ويقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعاداً عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل من

مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها

فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها أو المعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبتنى هود وأخواتها) وترى كثيراً من الأدباء اذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية و إقداما أو خيفة و إحجاما فزال المراء ورفع الغطاء ان الخبر فى مغزاه كالسهم فى مرماه فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الأمم فى قصص فرعون وموسى عليه السلام

المقالة الثانية

أشرنا فى المقال السابق الى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم الا أنهم كانوا فى ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبى الله ادريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيبا ومهندسا والهيا وورد أنه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن فى النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا فى ذلك التوحيد و بنوا الهيا كل العظيمة آثاراً لجلاله ونظروا فيها حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن و بقى التوحيد سراً مكتوما عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبى موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع فى الخاصة وهم القليل وآمن بنوا إسرائيل و بقى المصريون فى عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الآشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ماسدد سهمه عليهم فاصماهم وأقصد لقلب إلا تجرد من شعائر دينهم

عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين الجيشين فتحرج المصرى عن قتلها فاصابها وأصابه قمبيز فملك وقتل وسبا وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ما حرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وعالت الأمة غولهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستاراً من العدل وحرسه بجنود من الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوصمه بما وصم أمام الصحابة رضى الله عنهم فى قصية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا ولكن جئت فى الزمن الأخير

وأكثرهم أبيدَ بيدِ الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى عن إدريس النبى عليه السلام

يا مصر يا مصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحجارك

والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناهُ وجنوده فنبذناهم فى اليمِّ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النارِ ويومَ القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم منَ المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتابَ لعلهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لا بد لها من إصلاح فاما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين وإلا فلا مناص لها من السير

على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة وإن الأمة اذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والأشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم عدا عليهم جبار فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فما دمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا فى ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملا (ولقد كتبنا فى الزبورِ من بعدِ الذكر أنّ الأرضَ يرثها عبادى الصالحون) (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذُرية قوم آخرين) إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما أهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل فى الفلاحين وتضعف فى أهل الأمصار والمدن الكبار إلا فى أناس ارجعها لهم التعليم إن صح فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هذه أمة عربية طهرت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمراً زمراً زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وإن ما فى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل فيهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما عليه كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى فى أقرب الأزمنة متى تعلموا وسنذكر بعد ... كيف تولد الأمة وهى جنين وكيف تشب وهى طفلة لعوب

المقالة الثالثة

فى انشاء الأمم

(١) سبق القول انا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا محيص عنها للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالانسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الافلاك أو بالولادة فى العناصر. ان الزوجين من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه للجمهور شاؤا أم أبوا فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من تمزق الرومان بأيدى الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى أعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الأيام نداولها بين الناس) هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فللرقى أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذهما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا أنها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصاً ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة (هو الذى جعلكم

خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا أسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده من الهبات والمنح العشرة أولها أن تمنح الأمة رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فاخلصوا فى أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها الارياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام فى سقي الغنم اذا (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) وكان ما كان من زواجه باحدى الابنتين ورعيه الغنم ١٠ سنين وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكيه وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما فى الامكان واجتذابها اليها بما تحمل من العلم والمعرفة كما وقع للنبى موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب (اذهب انت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) الى أن قال (فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين فى القول والشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتى حكمة فى القول وجاها وعلما وقدرة أن يتذرع بها الى الامم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تغنيا أو إعرابا فحسب أو تاريخا ومن أعطاه الله حكمة أو جاها فانتبذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الأديان

(٣) القوة العامية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يسير إلى الاولى قوله تعالى فى موسى (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم

الارض مهدا وسلك لـكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والانفس الراقية وهى تشير إلى ما يعقله العقلاء ويتباهى به الحـكماء وثم تلقفت عصاه افك السحرة وأخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف العار بأزالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى (فوكزه موسى فقضى عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس حمام لما كان موسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا أم موسى وضعته فى التابوب لنجاته (فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر الم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال ربى إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلهم ولو وحدى

وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المبادىء الشريفة وانتهاج خطة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو ناقم

(٧) اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف

وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة (وانى فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم فى زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخذى كيف وهذه الأمة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منذ الامويون والعباسيون والفاطميون وما الطولونيون والاخشيدون إلا موالى أبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم فى القرى ايان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرا الضيف وضرب السيف وينشدون الاشعار الحماسية وما عهد اكتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد

ولعمرى لأن تمتلىء النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

(٨) تربية الناشئة على مبادىء جديدة تصلح للرقى والتريص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع ببنى اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبارة (قال إنها محرمه عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)

(٩) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ألم تر الى موسى عليه السلام كيف مر ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه الدتر تى طارت فى أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهى [illegible] فى مقال آت ان شاء الله تعالى

المقالة الرابعة

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لأمتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام فلا أمة تفعل مافعلت الفراعنة فى بنى اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها فلا ينبغى أن تصغى الأمة إلى من يصغرها فى عينها ولقد قال ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام فى البادية هم ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول أننا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال وهذه لا تقتضى أن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال فى مصر (وهى لمن غلب) فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وتربية النشء على المبادىء القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ هذا ملخص ماذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الالهام وذلك يكشف الغطاء عن العقول فتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى

المضار فان النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم واليه الاشارة بقوله تعالى (وأوحينا الى أم موسى) وهذا وان كان بلا كسب ففيه اشارة الى مانحن فيه (٢) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) (٣) شد الأزر وتقوية الأفئدة بالاخوان والأنصار قال (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) (٤و٥) النصر والنجاة من الضر (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) (٦) الهداية إلى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين) (٨) القربى من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) (٩) التمكن من الخلافة فى الأرض (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ألم تر الى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة ان قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك ان فى هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أو جاها أو حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أو جاهه أو قلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادى مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أسوهداها ورفع منارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملك [illegible] وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر فى التلاشى إذ ذاك

ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين و بطالسة ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾

المقالة الخامسة

فى عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها

لما نظر المؤلف البحر الابيض وهو فى بور سعيد

دع بنى اسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر والرياح عاصفة والأمواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على سطح الماء تستلم صم الحصا وتلتزم أركان الشاطىء ذهبية الأصيل وما أمامنا الا الماء والسماء والهواء يزجى السحاب فيمور مورا ويثير الأمواج فتبنى طودا وتحفر سربا وغور

قف بنا ننظر غروب الشمس فى هـذا البحر وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة بالنسبة لها . وأطلق لنفسك سراحها لتجول فى عالمها وعاطها كؤوس العلم فى رياض الفكر علها تروى صداها وتشم شذاها فتسير فى الأرض سيرة وتدور فى الفلك دورة

قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى مذهب تذهبين ! ! هـذا البحر المحيط أمامك والشمس تنظر إليه باسمة وقد آذنت بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم »

نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أتنظرين نظرة الشعراء علماء الخيال الناظرين للجمال يتخيلون تيجان ألماس مكللة جند الأمواج و يسمعون أنغام الموسيقى الناتجة من هبوب الرياح فيناجون الأرواح العالية فتنزل عليهم وحى المعانى الجميلة فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الأصيل صورا تنعكس فى خيالهم عن عالم المشاهـدة فتسمعها شعرا كالدر ونثرا كالجوهر . فان تصور صورة الصبا قال :

يأيهـا الرشأ المكحول ناظره بالسحر حسبك قد أحرقت أحشائى

ان انغماسك فى التيار حقق ان الشمس تغرب فى عين من الماء
وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى:ماذا تنظرين أيتها النفس؟ أتنظرين الى ما أحاط بالكرة الأرضية من الماء والملح ممتزجين فتجزئى ذراته وترجعيه الى أصله وتحليله الى عناصره فلا يرى هناك إلا مواد حارة هوائية طائرة وأخرى باردة تطاردها فى الهواء والأولى هى الاكسجين والثانية هى الادروجين . ومن عجب أن يكون هذا الماء من مادتين هوائيتين لطيفتين لايراهما الراؤون ولا يتخيلهما الحادسون تضادتا طباعا واتفقتا لطافة أولاهما محيية بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما قرأنا فى الحديث أن البحر نار فى نار فلا نذوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهر الأمر فى المكتشفات الحديثة أن الماء $\frac{8}{9}$ ثمانية اتساعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك فى الوزن فقط . وفى حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل الأرض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخنها جبال النار (البراكين) فأمدتها اعداد المعادن للآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الأمم وياليت شعرى كيف تكون من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهو الماء فأخرج به جنات وأعناب وفاكهة وحيوان وانسان وسمع و بصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ : أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى المنشآت فيه كالأعلام كأنها مدن بنيت أساسها العلم صنعا والماء وضعا طيرها البخار فى البحار وكلمها البرق فى أسلاكه والأثير فى خفائه وغيابته كأنها وقد جالت فى البحار (إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) عجبا هذه السفن الذاهبة الآتية للتجارة والربح والحرب والسلم . ارجعى أيتها النفس إلى القرون الماضية والأمم الغابرة والدول البائدة فكم لهم من غدوات وروحات هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم هذا البحر

والفرس وقبيزهم الظلوم ، حمله هذا الموج فخضد الشوكات النافذة وقلم الأظفار الخادشة وأنزل الملوك والفراعنة عن عروشها . وكأنك بالاسكندر المحبب فى رعاياه يجوب العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبنى المدن ويشيدها . وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وأمم الترك وما وراء ذلك من دول وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر) مروا سراعا وولوا تباعاً وقلبوا وجه اليابسة كما قلب هذا الهواء لطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يموج هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت أيامهم كأن لم يغنوا بالأمس

أين الملوك التى كانت محجبة من دونها تضرب الأستار والكلل

نظر الطبيعى . أم تتأملين الاضواء وتركيبها وجمالها وكيف كانت سبعة ألوان تمازجت واتحدت وصورت شكلا بهجا نضر اللون فى الأودية والجبال والبساتين والأشجار والماء وأظهرت محاسن الصور الانسانية . ولولا الضوء ما كان اللون وظل العالم سواداً فى سواد ثم نكر كرة عليه فنقول . أعرض هذا الضوء كالألوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كبياض الأبيض وجمال الجميل أم هو جوهر كالأجسام يأخذ مقداراً من الفراغ وإذا اخترنا العرضية ونبذنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب الينا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلها وكيف جاءنا ضوء الشمس فى نحو (٨) ثمان دقائق مع أنه كالبياض لاحركة له إلا بجسمه وإذا سميناه جوهراً وقدرناه جسما فما الذى أذهبه من العالم إذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا ! ! !

قفى أيتها النفس فى حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهراً فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا إلا به . لا . إنما الضوء حركات فى الأثير وموج كأمواج الصوت فى الهواء هذا آخر ما وصل اليه عقل الانسان

أم تنظرين نظرة الفلكى للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة فى نظر

العين ولكن العقل أكبرها فنظرها العرب واليونان فأوصلوها ببراهينهم الى ٥٠ أو ٦٠ ضعفاً قدر الأرض وأوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض .. ما أعجب الانسان وأبدعه أرى بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل علومها ومعارفها

نظر الحكيم : عجبا لك أيتها الشمس . كيف صغرت أيها الكوكب العظيم فى العيون وما الذى أنزلك من سماء عظمتك وأنت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشترى وزحل وأنت أنت الملك العظيم أنت الهيكل الكبير عبدك الأولون وسجد لك الفراعنة الأقدمون جلست على عرش عظمتك فى سماء جلالتك بما منحك منشئك ومبدعك من القوة والعظمة فياليت شعرى كيف حركتك العيون وأنت فى سكون وكيف صغرتك الظنون وأنت ذوى الشئون لا لا أنا لا أعجب منك أنت انما العجب من نفسى اذ النفوس الانسانية أعظم منك وأجمل وأبهى وابهر فانها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما أوحى اليها من سماء العرفان وما أودع فيها من الحكم والحواس استنزلتك من سماء عظمتك وأغرقتك فى البحر فتركتك كالدينار ملقى فى الماء فوسعك البحر وأنت عظيم وأدركتك العين وأنت كبير حتى وقف الاسكندر المقدونى على شاطىء بحر الظلمات وهو جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تغرب فيه وما البحر وماؤه فى جانب ما فى العالم من الأجرام والكواكب الكبيرة الا جزءاً حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ممزوجة بالطين أو حامية حارة . أأنت أيتها الشمس ذلك الذى يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والأيام أم أنت التى تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة ونصفها الآخر يوما واحدا ثم تتناقص الأيام والليالى الى شهور فشهرين فشهر فاسبوع فأيام معتادة على قرب المناطق و بعدها كما رسم فى أيام المسيح الدجال وكان ذلك من أعاجيب النبوة ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الجامدة ؛

ثمرة هذا النظر

أراك أيتها النفس تلمحين من خلال مسطور ألواح العالم نورا وتكتبين على الخيال منه سطورا وقفت موقف الشاعر وأوقدت النار للتحليل الكيماوى وأمررت الضوء فى البلور والمنشور مع الطبيعى وتأملت معه فى سبعة الألوان فى قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة إلى عابر الدهور مع التاريخى ونظرت الشمس وما رسمه الأقدمون انها لا حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة وانما الضوء والحرارة بالانعكاس على الأرض وما قال به العصريون انها حارة وتركبت من العناصر الأرضية

فيقول الأولون بأنها باقية أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذبهم الآخرون من العرب والافرنج وانها ستمحى من صحيفة الوجود كالانسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة فى العقول والأبصار واختلاف مقادير الأشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين فى قصص الاسكندر وانثنيت مع الفقهاء فى تقدير الأيام إذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا المجال البديع إلا ان نعالى بنفوسنا عن الدنايا ونخطو إلى جلائل الأعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شموس الأمم وبحار الحكم يصدر عنها سحاب الطلاب والسائلين ويرد اليها جداول المدح وأنهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين أشكالها وتمايز أوضاعها وتكثر فروعها إلا كمال للعقول تستعد بها الى العروج إلى سماء المدنية وترقى الأمة . عقل يحلل الماء ويطيره فى الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وانارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر

فى ذكر علو همة الأفراد وتشويقهم وفى ذكر كيفية التوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفى ذكر ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه

اعلم ان علو الهمة لن يكون لامرئ إلا بما يرد على سمعه من تمجيد الأعمال التى توافيه فلا تزال السير والقصص تترى على سمعه شهرا فشهراً وسنة فسنة حتى تتربى فى نفسه الملكة التى استعد لها

ان الله أنزل فى القرآن قصص الأنبياء ومن عجيب أمرها انها كلها ترمى لأمر واحد وهو جهاد فنصر

فجميع قصص الأنبياء تبدأ بالدعوة ثم يكون العناء والقتال والعداوة واحتمال المشاق ثم يتم نصرهم فى آخر الأمر وهل بعدهذا زيادة لمستزيد فليسر الناس على هذا النمط ويسمع المجاهدون آيات الجهاد أحاديث وقصص الأبطال الحقيقية والروائية ويسمع المعدون للعلوم الرياضية الآيات الدالة على الحساب والفلك والنظام وما أشبهها وسير العلماء الذين نبغوا فى ذلك

وليسمع علماء العلوم الطبيعية مايسمو بالنفوس اليها والقرآن مشحون بها وهكذا

الاقتصار على علم الفقه

واذا رأينا أمم الاسلام نبغت فى علم الفقه لما رأى علماءها من المشجعات عليه خمرا سواد فى ألف السنة التى انقضت فأحر بهم وقدحدثت لهم مشوقات ومرغبات فى جميع العلوم اليوم وفتح لهم أبواب العلم على مصراعيه اليوم وعلموا علما يقينيا ليس بالظن انهم مثابون على كل علم وعلى كل صناعة أكثر من ثواب الذين كانوا قائمين بعلم [illegible] الذين لم يسمعوا ما يشوقهم لغيره من العلوم وأنا أحمد الله إذ كتبه

هذا وأنا مطلع على أحوال المسلمين اليوم وانهم نفضوا غبار الكسل والنوم وهبوا من رقدتهم واستيقظوا فأنا أحمد الله حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده أنا اليوم أيقنت اننى نلت مرادى وهو ان أمم الاسلام حل عقالها وقامت من سباتها وهبت غفلتها وأقبل عزها فأنا أقابل الموت وأقابل الله بعد ذلك وأنا فرح لأن هذه كانت كل أمنيتى وقد نلتها كما نالها الكتاب الذين يكتبون فى زماننا لانقاذ أمم الاسلام

الفصل الرابع عشر

فى ذكر حكمة التكليف بالايمان بما غاب عنا مما ليس بجرم وفى توحيد العلوم وان الوحدة فيها نظام كل شىء

اعلم أيها الذكى ان الناس إذا عاشوا بحواسهم الخمس الظاهرة فانه لافرق بينهم و بين العجماوات ولقد وجدنا المتوحشين والمتمدينين كلهم يجدون فى نفوسهم اعتقادا بما هو غائب عنهم فتسمع المتوحش يخاف من العفريت وهو لم يره ويخاف من السحر وهو أمر معنوى وأكثر الأمم مجمعات على الاعتقاد بخالق للعالم قادر وهذه العقيدة عامة وشذ قليل من الناس عنها وعمومها أشبه بعموم الطعام والشراب واللباس فهى ملحقة بالفطرة والحكمة فيها انها نقلت الناس من المحسوسات الى المعقولات فأيقظت عقولهم وذهبت بها فى حياتهم كل مذهب .ان المعقولات نتائج المحسوسات لايعمل الانسان عملا إلا بعد فكره فيه فالفكر أصل والعمل تبع وأدق الفكر مابحث فى موجود ليس بجسم هو مبدأ كل موجود والله من ورائهم محيط ، واعلم ان العلوم كلها ترجع للوحدة ألا ترى ان علم ماوراء الطبيعة يبحث عن الوحدة وكل موجود يسمى واحداً فالعشرة والمائة والألف وما لانهاية له كله يسمى واحداً فكل موجود نسميه واحداً من جهة ونسميه كثيراً من جهة أخرى فالعالم واحد ولكن عند التفصيل نقسمه إلى أقسام كل قسم نسميه مقولة والمقولات عشر مثل الكيف والكم والمقولات العشر التى قسمت اليها الوحدة تدخل فيها جميع العلوم ولقد وضحتها فى كتابى النظام والاسلام فلا نطيل

بها هنا ، واذا كان الله واحداً والعلوم كلها ترجع الى الوحدة العامة فى العوالم

فكيف لاتكون للمسلمين وحدة تجمعهم .نعم فرقهم الجهل ولكن اليوم أرسل الله لهم العلم واليوم عرفوا ان كل العلوم يشتمل عليها ديننا فما الذى يفرقهم اذن ؟

العلوم جميعها يطلبها القرآن ومن شك فى ذلك فليقرأ كتبى لاسيما كتابى الجواهر فى تفسير القرآن فاذا قرأه وقرأ غيره أو قرأ هذا الكتاب فلا يسعه إلا أن يقر ويؤمن بأن العلوم جميعها فروع لدين الاسلام

وهذه هى الوحدة الاسلامية فما فرق المسلمين الا الجهل وهذا هو العلم والاتحاد فيه فكيف يتفرقون

الفصل الخامس عشر

فى ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

اعلم ان هذا الفصل كالمتمم لجميع الفصول السابقة

إن السفر على قسمين سفر جسمى وسفر عقلى والانسان اذا سافر بجسمه فرأى بعينه وشاهد بحواسه الخمس ما فى تلك الأقطار من العجائب فانه لا يتم له النفع إلا بالبحث والتنقيب عما رآى وما شاهد .وذلك لا يكون إلا بالعلوم فالسياحات الجسميه كالمتممة للسياحات العقلية

فالعالم الذى نبغ فى علم يزيد فهما بالسفر والاطلاع والمسافر الجاهل يزيد علماً اذا قرأ العلوم التى تبحث فيما شاهده

والله يقول فى السفرين معاً (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فقوله أفلم يسيروا للسفر الجسمى وقوله فتكون لهم قلوب الخ للسفر العلمى اشارة أى أن السفر الأول بغير [illegible] لا قيمة له والمسلمون اليوم عليهم أن يدرسوا أحوال الأمم شرقا وغربا

وهذامن فروض الكفاية بحيث يكون فى الأمة الواحدة جموع لكل مطلوب لها كافيات لما طلبوا والحمد لله رب العالمين

الفصل السادس عشر

المقالات الاصمعية[1]

المقالة الأولى

الترقى فى الازهر

الارتقاء سنة طبيعية فى الكائنات من أدناها إلى أعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجمادات والناميات والنواميس نفسها . نرى الأمم فى ارتقائها وتمدينها تكون آخرتها خيراً من أولاها وشبابها خيراً من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى إرتقت عنها فى ظواهر الأحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك إلا أدنى الحيوان إذ لاتصلح للسكنى فان ارتقيت إلى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام النمو فهاهنا ارتقاء فى المكان واذا نظرت إلى العناصر وجدت بعضها أرقى من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالأنسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وكلما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدات فى الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل ارتقت والا فلتنذرها بالزوال من الوجود

هاهى الأمم ارتقت حولنا فى جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهاهم أغلب المسلمين فى بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقى الا كسراب بقيعة فياليت شعرى ما الذى أصاب جسم هذه الأمة وأى مكروب من مكروبات الاجتماع

(١) هذه المقالات كانت أدرجت فى جريدة المؤيد قبل دخولها فى هذا الكتاب

فتك بجسمها وما الذى دهى الاسلام ؟ لعمرى أن الاسباب لكثيرة ومن اهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن فى حيرة لا يدرى عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الأعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقى فيها حتى انك ترى الجامع الازهر أكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الأمة وعقلائها ان أهله لو عرفوا غير العلوم الأحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون وإذا اتبعوا خطوات كثير من أولئك الزعماء فى ذلك فهل ينجيهم عند الله نقول أن هذا الداء عضال تمكن من جسم الأمة فلن يخرج إلا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أكابر علماء الاسلام أن يشرحه لعقلاء الامة ويظهر مافى بطون الدفاتر مما سطره الاقدمون ليطلع عليه عقلاؤنا وكبراؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل حادث فاضح ولينظروا فى أمتهم وشؤنهم وسنبين لعقلائنا ما نعلمه من آراء أكابر علماء الاسلام ولا نقصر فيما يجب علينا فان هذا الزمان هو الذى يجب فيه نشر العلم ولتكن ابحاثنا هكذا

كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الأزهر

نظام الأزهر

الغزالى والعلوم فى الأزهر

الكليات والترقى وهذا الفصل متمم لما قبله

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا حتى نكون قد أرضينا ضميرنا وديننا ولكى يحاسب كل إنسان نفسه وينظر بعقله بين أقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط جرم لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتبع خطوات الخبط فى طرق التعليم وليتبين [illegible] وهذا إن شاء الله تنشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبو الاصلاح

الفصل السابع عشر

فى المقالة الثانية الملقبة بالأصمعية

كليات الاسلام وطريقة التعليم فى الأزهر

يا قوم أرى الأمم تنظر فى شئون الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الأزهر الشريف فما أدرى أفى جسم الأمة شلل أصاب أعضاءها فلا تحس أم وقر فى آذانها فلا تسمع أم تخبط خبط عشواء فى ليل بهيم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصراً وحقبا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والأنذار بالويل والثبور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالأنوار وابتهجت والطرق فى كليتنا العظمى فى هرمها خالفت المعقول والمنقول والأوائل والأواخر وترى الناس سكارى وما هم بسكارى حيارى وماهم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم أيجمل فى دين المروءة أن يتربع الطالب فى الأزهر عشرين سنة مثلا فى كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت ميقرأ المتن والشرح والحاشية والتقرير ثم شرحها آخر وحاشيته وتقريرا وهلم جرا . وربما كان على الكتاب عشرون كتابا وعلى القاعدة عشرون قولا وهناك تكون الدهشة والحيرة فى حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففى النحو يحفظ قول « ابن جنى وابن عصفور والكسائى وسيبويه والفراء وغيرهم من الأئمة » والسجاعى والرضى ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا فى كل فن حتى اذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكتفيا بمـا رزىء به الفؤاد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق

بهم ما كانوا به يستهزئون » نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحكم والشلل عم الأعصاب فهيهات هيهات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التى ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق بأقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لا غير فى كافة الفنون مبتدىء ومتوسط ومنته مع مراعاة أحوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الغزالي رحمه الله قال كقوله (و بين الرجلين أر بع قرون وقد مضى الثانى وله نحو خمسة قرون)

يا قوم قد حق القول علينا قد مضى اسلافنا وذهلوا عما أنذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمراكز وصونا للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت العادة بعدهم وتأصلت فينا فأصبح رجالنا وعقلاؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم عن النداء يا قوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ما سطره ابن خلدون مما ذكرناه آنفا فان الرجل أسمى نظرا ممن تعظمون وأرقى عقلا وأحكم رأيا ممن تعتقدون ألم يقع ما أنذر به من خمسة قرون ألم تكلل المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا بأكاليل من نار ونحن صاغرون صامتون صابرون « إنا لله وإنا اليه راجعون » هل صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها إلا أثر من آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخرافات والتواكل والتخاذل إلا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة وأذاقتهم العذاب الهون بما كانوا يكسبون . يا قوم هداكم الله ان أبيتم إلا التقليد فاقرؤا ما كتبناه عن ابن خلدون وإن حكمتم العقل فما لكم لا تنظرون . وإياكم والرضا لقول أقوام عيونهم فى غطاء عن الذكرى فهم لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وإن رأيتم أن الأمر ضاع والداء استحكم وعز استئصاله فلم لا تنشؤن كلية تحيون بها مجدا هدم ودينا عفا ودنيا مضت أنحن أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة أيكون ديننا أشرف الأديان ونحن أكسل الأمم حتى ترقى اليابانى

والأوروبى والأمريكى وارتقى المثلث وعابد الشمس و بقى الموحد يرسف فى قيود الذل والنكال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ها هى صواعق نيران المدافع وكسف القلل النازلة من سماء المدنية الى أرض الجهالة (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين)

الفصل الثامن عشر

فى المقالة الثالثة الأصمعية

نظام الازهر

الأزهر أجل مدرسة اسلامية منها نبغ كثير من الفضلاء والعلماء على ممر الدهور والأجيال وقد سار على شا كلتها مدارس أخرى فى مساجد أمهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب أن تتعاقب النذر و يتوالى الإرشاد والناس صامتون لا يبدون حرا كا . هذا النظام قد ندد عليه ابن خلدون وأ كابر حكماء الاسلام بقى الى الآن . أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتمه وهو فى الغالب ابن ١٥ سنة انتظم فى سلك تلك المدرسة الجامعة وهو لا يعرف من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ناشدتكم الله يا قوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ فى المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ فيكون حفظ القرآن وحده بلامعنى كالابتدائية والتجهيز ية أليس من الصواب الرجوع الى ما قاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبه لخديوى مصر عباس

رأى الكاتب الأصمعى

الذى أراه أن تجعل[1] له مدرسة ابتدائية تحت نظر الأزهر وتدار بادارته وتلك

(١) بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فنحمد الله ونشكره

المدرسة يدخلها من عرفوا مبادىء القراءة والكتابة فى الكتاتيب ثم يقرؤون النحو والانشاء والحساب وعلوم الأشياء ممزوجة بمبادىء التوحيد وعلوم الأخلاق ، وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة التى هى حسنة كبرى من حسنات الخديوى عباس حتى إذا أتم الطالب سنين معدودة امتحن فاذا نال الشهادة انتظم فى سلك الطلبة الذين يخوضون فى غايات العلوم ولعلك يا أخى تقول أن الأزهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة

قلنا لم لايجعل قسم خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتى يكون القرآن معروفاً لفظا ومعنى ، فان قلت أن القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو الانحطاط بعينه وإذا كانت الأمة تشكو من القضاء الشرعى وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة والعامة .

ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة ، وكيف يبقى الطالب ١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر فى الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك .

أليست الملكات قد رسخت عنده وتعسر اقتلاعها ، أليس ابقاؤه تلك المدة بين يدى معلم جاهل كافياً لاذهاب الفطنة من رأسه وخروجه من الحياة صفر اليدين

أليست العلوم تبقى بعد ذلك سطحية إذ المؤثر على المرء مايسمعه فى أول حياته ويتلقاه فى مبدإ صباه وهل أتاك نبأ التدريس بعد ذلك وهو لعمرك بأعظم لايدخل العلم فى الأذهان إلا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لايحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا إعراب كلمتين وأول ما يبدأ إذ ذاك بالبسملة وإعرابها وإن لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمنِ [illegible] الرحمنُ وإن هذه الأوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة بضربها فى بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففى حال النصب يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره أمدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة فى [illegible] مستتر وجوباً تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة

ظاهرة فى آخره وهذا بعض اعراب وجه من الأوجه التسعة ويجرى الباقى على مقتضاه فيكون إعراب الأوجه التسعة شاغلا كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم أن وجهين منها ممنوعان وليكون ضابطا وقانونا

أن ينصب الرحمن أو يرتفعا ... فالجر فى الرحيم قطعا منعا

وأن يجر فاجز فى الثانى ... ثلاثة الأوجه خذ بيانى

فهذه تضمنت تسعا منع ... وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات أن علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من البيع والشراء والقرض وغيرها تعبداً ، ويبقى الطالب ما بين العشرة إلى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم يجلس على منصة الأحكام فيضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطر من عمره وهذا التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم بأطراف القوانين والأحكام ، ثم يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الرومانى كل ذلك فى أربع سنين وكيف يرى ذلك القاضى الأهلى نفسه أرفع مقاما من ذلك العالم الدينى أليس هـذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها

أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره إلا علماء الأمة وأكابرها والمأمول من أولياء الأمور أن ينظروا فى هذه المدرسة وينقذوا طلبتها وطلبة مدارس أخرى ربما بلغت ١٥ ألفاً من الضياع .

وإذا كان نظام التعليم يبقى على ما هو عليه الآن ، فلا غرابة إذا كان القاضى والمفتى المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على هذه الوصمة وقد أحاطت بنا الأفرنج من كل جانب وأحدقت بنا الأعين تزلقنا بأبصارها فمهما سهونا أو لهونا فدوسنا بالقدم وسوقنا إلى العدم أسرع من لمح البصر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة تبديلا

الفصل التاسع عشر

فى المقالة الرابعة الأصمعية

الغزالى والعلوم فى الأزهر

ذكرنا فيما سبق ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى وما يوجبه العقل والنقل فى طريقة التعليم وتغييرها واتباع أحسنها ، والآن نبحث فى العلوم الواجب على الأمة معرفتها والاستبصار بها فانى علمت أن كثيراً من عقلائنا يخدعهم قول القائلين

إن علوم الدين إذا صحبت غيرها أضر ذلك بها موهمين الناس أن علوم الدين الاسلامى قاصرة على ما يقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لى بأن يقرأ العقلاء ما سطره الغزالى فى الجزء الأول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذى يعتبره علماء الشريعة حجة فى الفتاوى و بين الأسباب الداعية للتوغل فى الفقه وأبان أن ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (أعلم أن الغرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسماع مثل اللغة .

فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود و إلى ما هو مذموم و إلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية و إلى ما هو فضيلة وليس بفريضة

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها .

وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد و إذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات فان أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وعرضوا أنفسهم إلى الهلاك فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما ما يعد فضيلة لافريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغيرذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج ، وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات . وأما المباح فالعلم بالأشعار التى لاسخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه) ثم قال بعد كلام طويل ما نصه (فان قلت لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا — فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهــذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للميعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود

فلو تناولها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ولعمرى انه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فان الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة

الأولى بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب فى الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة) ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهاراً فى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين واذا روجع فيه قال اشتغلت لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء الأمر فى فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين بل لقدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، وكم من بلدة ليس فيها طبيب من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لانرى أحداً يشتغل به ويتهافتون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة واهمال مالا قائم به هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر للوصول به إلى تولى الاوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله المستعان واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

الفصل العشرون

فى المقالة الخامسة الاصمعية

الكليات والترقى

قال رحمه الله (لاينبغى للطالب أن يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم أن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه فى الحال الانفكاك من عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) قال الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

والعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والثغور ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم نقول عجبا كيف يدعى قوم أنهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ماذرا الله فى الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله فى السموات والأرض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) من لى بأن يقف عقلاء الأمة على مابين أيدى القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وما سطره المتقدمون هذه اعظم كتاب بين ظهرانينا (جمع الجوامع) وكم يطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب » وكثيرا ما جعلت هذه العبارة امتحانا للطالب فى علم الأصول حتى يقرر عالما فياليت شعرى ما الذى يستفيده القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشى لم يرد فى علم الفقه ان شكر المنعم واجب ..

دعنا من هذا الخطب الجلل المدلهم العظيم وانظر الشكر فى الجزء الرابع من

الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف ذكر سعادة الانسان فى دنياه ودينه وكيف فصل السعادات تقسيما عجز عنه فطاحل علماء الغرب وهاهو العلامة جون لبك الانجليزى أحد أعاظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين أمته و جميع علماء أوربا قد ألف كتابا فى سعادة الحياة وترجم الى أكثر اللغات و إذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه وما حوى من حكم وأمثال وجمال لانجده قسم السعاده وفصلها ورتب أقسامها واستوفاها كما فعل الغزالى فى باب الشكر مع الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر ويقارن بين عالم شرقى مضى له تسعة قرون وعالم غربى وليتأمل فلسفة الفريقين وحكمة الرجلين فى باب السعادة (الذى جعله الغزالى استطرادا فى باب الشكر كما قدمنا) وكيف أدخل رحمه الله جميع أقسام العلوم والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم لنكر كرة على جمع الجوامع ونقرأ شكر المنعم فيه فبماذا ياقوم تحكمون قال علماؤنا علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودى والنصرانى والمجوسى وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عليها معرفة الكتاب والسنة وعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله فى الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته فى خلقه وأن أبيت ياصاح الا الافصاح فاقرأ باب التفكر فى الأحياء فهل ترى الا نظرة فى علم الطبيعيات التى حرم منها طلبة العلم وتعلمها أصغر تلميذ فى مدارس أوروبا

هاهم ياقوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفا أولا حتى إذا نالوه و وصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختار فنا للتضلع فيه وصار ركنا فى الأمة لهذا الفن ياقوم أليس هذا ماقاله الغزالى من نحو تسع قرون. ياقوم كناملوكا على الأسرة فأصبحنا أذنابا للتقليد والجهل فهل أنتم منتهون . . . أحيل القارىء على تفسير الرازى لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات [illegible] تقول بعد هذا أن هذه العلوم ليست من الدين . يا قوم مالنا أصبحنا ننكر [illegible] وعميت علينا السبل ياقوم ان فؤادى لينفطر الآن على ما أصاب جسم الأمة ومادهى [illegible] هذا ستدورى وعاية وسعى به أخرج من حد الكتمان وهل يجوز بعد هذا أن ينكر [illegible] حتى اذا مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه

قالوا هذا ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت فى الأفئدة فروعها كل علم ثمرتها الأعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله ولا سبيل الى ذلك إلا بالعلوم الطبيعية التى جعلها الله أول واجب على الانسان لمعرفته كما فى مئات الآيات وأقوال أكابر العلماء وسنبين ذلك فى المقال الآتى من كلام ابن رشد صبحاً . أليس الصبح بقريب

الفصل الحادى والعشرون

فى المقالة السادسة الأصمعية

الأزهر وابن رشد

ذكرنا فى سابق قولنا طرفا من كلام ابن خلدون والغزالى فى رداءة التعليم والقصور فى العلوم وهاهو ذا ابن رشد رحمه الله قال (ان فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعنى من جهة ماهى مصنوعاته فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فبين ان مايدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب اليه فاما ان الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا ياأولى الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى أو العقلى والشرعى معاً ومثل قوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) وهذا حث على النظر فى جميع الموجودات واعلم انه ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت) وقال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض)

إلى غير ذلك من الآيات التى لاتحصى كثرة اه ثم قال فى موضع آخر (اعلم ان الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو انه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق من نفسه فالطريق التى سلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الأصل ليس هو طريق الأشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هى من الطرق العامة المشتركة بالجميع وهى الطرق البسيطة أعنى بالبسيطة القليلة المقدمات التى نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البينات التى تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التى تنبنى على أصول متفننة فليس يستعملها الشرع فى تعليم الجمهور ومن سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق أعنى البسيطة وتأول ذلك على الشرع فقد جهل مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك أيضاً لايعرف الشرع بأمثال هذه المقاييس من الأمور إلا ما كان له مثال فى الشاهد وما كانت الحاجة إلى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك بأقرب الأشياء شبها به كالحال فى أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة إلى معرفته فى هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال تعالى فى الروح واد قد تقرر لنا فى هذا الأصل فواجب ان تكون الطريقة التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان كان حدوثه ليس له مثال فى الشاهد أن يكون الشرع استعمل فى تمثيل ذلك حدوث الأشياء المشاهدة فاما الطريق التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى ، فانه اذا تؤملت الآيات التى تضمنت هذا وجدت تلك الطرق هى طريق العناية وهى احدى الطرق التى قلنا انها الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان إذا نظر إلى شىء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل و بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع ان لذلك الشىء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره [illegible] ليس يمكن أن يكون اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال

ذلك انه إذا رأى انسان حجرا موجودا على الأرض ووجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ووجد أيضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك الحجر انما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك المكان واما متى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه يقطع ان وقوعه فى ذلك المكان ووجوده بصفة ماهى بالاتفاق ومن غير ن يجعله هكذا فاعل . كذلك الأمر فى العالم كله فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار وسبب الأمطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيوانات الطائرة ولو انه اختل شىء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع اجزاء العالم للإنسان والحيوانات والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع من الدليل قطعى وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك إن مبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع أحدهما ان العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا والأصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا فى كل حميع أجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الأصلين بالطبع ان العالم مصنوع وانه له صانع وذلك إن دلالة العناية تدل على الأمرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع و إما ان هذ النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) الى قوله (وجنات ألفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الأبيض والأسود وهو أن الأرض خلقت يأتى لنا المقام عليها

وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو فى موضع آخر غير هذا الذى هى فيه أو بقدر غير هذ القدر ما أمكن ان توجد فيها ولا أن نخلق عليها وهذا كله محصور فى قوله تعالى« ألم نجعل الأرض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل هذه السعادة وأغرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع فى لفظ مهاد جميع ما فى الأرض من موافقتها لسكون الانسان عليها وذلك شىء قد تبين على التمام للعلماء فى ترتيب من الكلام طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء وأما قوله تعالى «والجبال أوتادا » فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة فى سكون الأرض من قبل الجبال فانه لو قدرت الأرض أصغر مما هى كأن كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقى الاسطقسات أعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة فاذن موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق وإنما عرضت عن قصد قاصد وإرادة مريد فهى ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التى قدرها لوجود ما عليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى« وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا » يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات هنا من حرارة الشمس وذلك انه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات التى جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان والنبات فلما كان اللباس قد يقى من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان سماه الله لباساً وهذا من أبدع الاستعارة وفى الليل أيضاً منفعة أخرى للحيوان وهو أن نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذى يحرك الحواس الى البدن الذى هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى مستغرقا من قبل ظلمة الليل ثم قال تعالى« وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة التى لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تخر كما تخر

السقوف والمبانى العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها فى أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الأرض فضلا عن أن تقف كلها وقد زعم قوم أن النفخ فى الصور الذى هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض فقال تعالى «وجعلنا سراجا وهاجا» و إنما سماها سراجا لأن الأصل هو الظلمة والضوء طارىء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع الحيوان بحاسة بصره أصلا وانما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لأنها أشرف منافعها وأظهرها ثم نبه تعالى على العناية المذكورة فى نزول المطر وانه انما ينزل بمكان النبات والحيوان وأن نزول المطر بقدر محدود وفى أوقات محدودة لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما هنا فقال تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماءا ثجاجا لنخرج به حباً ونباتا وجنات ألفافا (والآيات التى فى القرآن فى التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الارض نباتا) ومثل قوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نبهت عليه من العناية التى تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا فى هذا الكتاب ولعلنا أن مد الله فى الأجل ووقع لنا فراغ أن نكتب فى العناية التى نبه عليها الكتاب العزيز وينبغى أن تعلم أن هذا النوع من الاستدلال فى غاية المضادة للاستدلال الذى زعمت الأشعرية أنه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك انهم زعموا ا أن دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من اجل حكمة فيها تقتضى العغاية ولكن من قبل الجواز أى من قبل ما يظهر فى جميع الموجودات أنه جائز فى العقل أن يكون بهذه الصفة أوضدها فانه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ولا توجد ههنا موافقة أصلا بين

الانسان وبين أجزاء العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات على غير ما هى عليه كوجودها على ما هى عليه فليس ههنا موافقة بين الانسان وبين الموجودات التى امتن عليه الله بخلقها وأمره بشكره عليها فان هذا الرأى الذى يلزمه أن يكون أمكان خلق الانسان جزء من هذا العالم كامكان خلقه فى الخلاء مثلا الذى يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقة أخرى ويوجد عنه فعل لانسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم آخر مخالف بالحد والشرح لهذا العالم فلا تكون نعمة ههنا يمتن بها على الانسان لأن ما ليس بضرورى ولا من جهة الافضل فى وجود الانسان فالانسان مستغن عنه وما هو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف مافى فطر الناس وبالجملة فكما أن من أنكر وجود المسببات مرتبة على الاسباب فى الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب فى هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم أن الله أجرى العادة بهذه الاسباب وأنه ليس لها تأثير فى المسببات باذنه قول بعيد جدا عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لها لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة فى وجودها عن هذه الاسباب وذلك أن وجود المسببات عن الأسباب لا يخلو من ثلاثة أوجه اما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغذيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعنى لتكون المسببات لذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان واما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب [illegible] قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع أصلا بل انما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها [illegible] جهة الافضل فى الامساك الذى هو فعلها وفى احتوائها على جميع الأشياء [illegible] مناسبا لامساك آلات جميع الصنائع فوجود أفعال اليد الذى هو

عن شكلها وعدد أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لـكان لافرق بين أن يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وبالجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شىء يرد به على القائلين بالاتفاق أعنى الذين يقولون لا صانع ههنا وان جميع ما حدث فى هذا العالم انما هو عن الاسباب المادية لأن أحد الجائزين هو أحق أن يقع عن الاتفاق منه أن يقع على فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعرى أن وجود أحد الجائزين أو الجائزات هو دال على أن ههنا مخصصا فاعلا كان لأولئك أن يقولوا ان وجود الموجودات على أحد الجائزين أو الجائزات هو عن الاتفاق لأن الارادة انما تفعل لمـكان سبب من الاسباب والذى يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق إذ كنا نرى أشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل ما يعرض للاستقساط أن تمتزج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن فلما كنا نقول أنه واجب أن يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه وأن الامتزاجات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة وأن هذا دائما لا يختل لم يمكن أن يوجد ذلك عن الاتفاق لأن ما يوجد عن الاتفاق هو أقل ضرورة والى هذا الاشارة بقوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء) وأى إتقان يكون ليت شعرى فى الموجودات ان كانت على الجواز لأن الجائز ليس هو أولى بالشىء من ضده والى هذا الاشارة بقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وأى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة فمن زعم مثلا أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة العالم فقد أبطل الحكمة وهو كمن زعم أنه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يمينا لم يكن فى ذلك فرق فى صنعة الحيوان فان أحد الجائزين كما يمكن أن يقال فيه إنما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك ممكن أن

يقال أنه إنما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق إذ كنا نرى كثيرا من الجائزات توجد على أحد الجائزين بالاتفاق وأنت لتتبين أن الناس بأجمعهم يرون أن المصنوعات الخسيسة هى التى يرى الناس فيها أنه كان يمكن أن تكون على غير ما صنعت عليه حتى أنه ربما أدت الخساسة الواقعة فى كثير من المصنوعات التى بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق وأنهم يرون أن المصنوعات الشريفه هى التى يرون فيها أنه ليس يمكن أن تكون على هيئة أتم وأفضل من الهيئة التى جعلها عليها صانعها فاذن هذا الرأى من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة ومعنى ما قلناه من أن القول بالجواز هو أقرب الى نفى الصانع عن أن يدل على وجوده مع أنه ينفى الحكمة عنه وأنه متى لم يعقل أن ههنا أواسط بين المبادىء والغايات فى المصنوعات تترتب عليها وحدها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب واذا لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة أن لهذه الموجودات فاعلا مريداً عالما لأن الترتيب والنظام و بناء المسببات على الأسباب هو الذى يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة وأما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على الأرض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون موضع أو على وضع دون وضع فان هذا القول يلزم عنه ضرورة اما ابطال وجود الفاعل على الاطلاق و إما ابطال وجود فاعل حكيم عالم تعالى الله وتقدست أسماؤه عن ذلك وأما الذى قاد المتكلمين من الأشعرية الى هـذا القول فالهروب من القول بفعل القوى الطبيعية التى ركبها الله فى الموجودات التى ههنا كما ركب فيها النفوس وغير ذلك من الأسباب المؤثرة فهربوا من القول بالأسباب لئلا يدخل عليهم القول بأن ههنا أسبابا فاعلة غير الله وهيهات لا فاعل ههنا إلا الله اذا كان مخترع الأسباب وكونها أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنبين هذا المعنى بيانا أكثر فى مسألة القضاء والقدر وأيضاً فانهم خافوا أن يدخل عليهم من القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادرا عن سبب طبيعى ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وأنه لا شىء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة فى الاحكام

لعلموا أن القائل بنفى الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيما من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم بجحده جزءاً من موجودات الله وذلك أن من جحد جنسا من المخلوقات الموجودات فقد جحد فعلا من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذا من بادىء الرأى وهو الظنون التى تخطر للانسان من أول نظرة وكان يظهر فى بادىء الرأى أن اسم الارادة انما يطلق على من يقدر أن يفعل الشيء وضده رأوا أنهم ان لم يصلوا الى أن الموجودات جائزة لم يقدروا أن يقولوا بوجود فاعل مريد فقالوا ان الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك أن المبدأ الفاعل مريد كأنهم لم يروا الترتيب الذى فى الأمور الصناعية ضروريا وهو مع ذلك صادر عن فاعل مريد وهو الصانع وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفى الحكمة عن الصانع أو دخول السبب الاتفاقى فى الموجودات فان الأشياء التى تفعلها الارادة لا لمكان شيء من الأشياء أعنى لمكان غاية من الغايات فهى عبث ومنسوبة الى الاتفاق ولو علموا كما قلنا أنه يجب من جهة النظام الموجود فى أفعال الطبيعة أن تكون موجودة عن صانع عالم وإلا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا[1] جنداً من جنود الله التى سخرها الله تعالى لايجاد كثير من موجودات باذنه ولحفظها وذلك أن الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها لها من خارج وهى الأجسام السماوية وبأسباب أوجدها فى ذوات تلك الموجودات وهى النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فمن أظلم ممن أبطل الحكمة وافترى على الله الكذب فهذا مقدار ماعرض من التغيير فى هذه الشريعة فى هذا المعنى وفى غيره من المعانى التى بيناها قبل ونبينها فيما يأتى ان شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها ان العالم مخلوق له ومصنوع هى مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيها وبخاصة

(١) ان آراء العلامة ابن رشد فى هذا المقام كنت اطلعت عليها بعد أن ألفت كتابى جواهر العلوم وميزان الجواهر فسرنى هذا القول الذى وافقنى فيما أكتبه وهاهو ذا كتابى نظام العالم والأمم على النمط الذى اختاره ابن رشد وهكذا كتابى الجواهر فى تفسير القرآن اه المؤلف

بالانسان وهى طريقة نسبتها فى الظهور إلى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس واما الطريق التى سلك بالجمهور تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنه ما ليس له مثال فى الشاهد فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شىء إذا كان لايعرف فى الشاهد مكون إلا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وقال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) إلى سائر الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى فيجب أن لايتأول شىء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيله على غير هذا التمثيل فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فاما أن يقال لهم ان عقيدة الشرع فى العالم هى انه محدث وانه خلق من غير شىء وفى غير زمان فذلك شىء لايمكن أن يتصوره العلماء فصلا عن الجمهور فينبغى كما قلنا أن لايعدل فى الشرع عن التصور الذى وضعه للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان هذا النوع من التمثيل فى خلق العالم هو الموجود فى القرآن وفى التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى فى هذا المعنى أن التمثيل الذى جاء فى الشرع فى خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذى فى الشاهد أطلق ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على ان حدوث العالم لبس هو مثل الحدوث الذى فى الشاهد .

وانما أطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الألفاظ تصلح لتصور المعنيين أعنى لتصورا لحدوث الذى فى الشاهد وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند العلماء فى الغائب فاذن استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة فى الشرع وموقع فى شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة الجدليين منهم ولذلك عرضت أشد حيرة تكون [illegible] المتكلمين من أهل ملتنا أعنى الأشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله مريد بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل لهم كيف يكون موجود حادث عن ارادة قديمة وقالوا ان الارادة القديمة تعلقت بايجاده فى وقت مخصوص وهو الزمان الذى وجد فيه فقيل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد إلى المحدث فى وقت

عدمه هى بعينها نسبته اليه فى وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده فى وقت وجوده أولى منه فى غيره إذا لم يعلق به فى وقت الوجود فعل انتفى عنه فى وقت العدم وان كانت مختلفة فهنالك ارادة حادثة ضرورة والا وجب أن يكون مفعول محدث عن فعل قديم فان مايلزم من ذلك فى الفعل يلزم فى الارادة وذلك انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد بفعل قديم أو بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون هنالك ارادة محدثة فان قالوا الارادة هى نفس الفعل فقد قالوا محالا فان الإرادة هى سبب الفعل فى المراد ولو كان المريد اذا أراد شيئا ما فى وقت ما وجد ذلك الشىء عند حضور وقته من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لـكان ذلك الشىء موجودا من غير فاعل وأيضاً فقد يظن انه ان كان واجبا أن يكون عن الإرادة الحادثة مراد حادث فقد يجب أن يكون عن الإرادة القديمة مراد قديم والا كان مراد الإرادة القديمة والحادثة واحدا وذلك مستحيل فهذه الشبه كلها إنما أثارها فى الاسلام أهل الكلام بتصريحهم فى الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس فى الشرع انه سبحانه وتعالى مريد بإرادة حادثة ولا قديمة فلا هم فى هذه الاشياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولاهم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته فى علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين المصدقين وإنما هم من الذين فى قلوبهم زيغ وفى قلوبهم مرض فانهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم وسبب ذلك العصبية والمحبة وقد يكون الاعتياد لأمثال هذه الأقاويل سببا للانخلاع عن المعقولات كما نرى يعرض للذين مهروا بطريق الأشعرية وارتاضوا بها من الصبا فهؤلاء لا شك محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذى ذكرناه من أمر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اهـ كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد أنحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل ما يدرس الآن فى الأزهر منه تفصيلا وأخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحه القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين وأشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخرى تطابق كتاب الله الذى طلب النظر فى العوالم ومعرفة

الحكمة وإلا فكل ما بيننا الآن إنما هى فضلات من حثالات اليونان القديمة المحشوة فى الكتب المنافية لشر يعتنا ومن العجب انك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هذه فى محار بتهم لليونان وجدالهم فى الكتب وذمهم على الألسنة إلا كمثل قوم من الخوارج الآن يحار بون معاوية واليزيد وغيرهما ويتركون كل ما أحاط بنا من كل جانب كأنه كتب علينا أن نذر مصالحنا ونندب ما مضى وليت شعرى هذه أوروبا وأمريكا أخذ أهلوهما بحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علمائهم وحكمائهم وهذه الأمة مضى لها قرون طويلة وأعمار وهى تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبذوا ما أشار به الغزالى وما فسره ابن رشد وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ما ذكرا الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا يقتلون) نادى ابن رشد بالاصلاح فطرده الأندلسيون فأزال الخرافات والضلالات من أنفس امتلأت من ترهات الأحبار والرهبان وأطلقها من أغلال الأوهام فرعت فى أرض جنة الحكمة وشربت سلسبيلها فانظر كيف تدلت الأندلس الى حضيض الجهالة فمزقت كل ممزق وتفرق أهلها أيدى سبا وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ فى سبيل الرقى المادى والأدبى وكان ما كان من انتشار العلم والتعليم واكتشاف الأرض الجديدة كأمريكا والأقيانوسية كما يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه إذ قال انى علمت إن فى الأرض قسما آخر من تعاليم ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على المسلمين وأجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً وأسراً أليس ذلك عبرة للباقين من الأمم الاسلامية أيظن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا ما سطرته يد القدرة فى أكناف البسيطة من سطور الحكمة وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف الألوان يدرسونه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) هل ضل الرازى فى تفسيره واهتدى

البسطاء ها هو الرازى شرح عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة فى الطبيعة وجمال الألوهية اللهم انا نضرع اليك أن ينظر عقلاء الأمة وحكماؤها فى مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة أن ينبذ الرازى وابن خلدون وابن رشد والغزالى وأحزابهم ونصغى الى قوم أسفل منهم بدرجات باعترافهم أنفسهم وقولهم هؤلاء أرقى منا عقلا وأرفع شأنا وأعلى كعباً ونحن قوم ضعفاء فيالله ويالجهل والعار وياضيعة الاسلام والمسلمين وياحسرتا على هذه الأمة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا ذاقصصت عليكم ما يخرجنى من التبعة والاثم والكتمان إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله فهل أنتم مستمعون ولئن عجزتم عن اصلاح الازهر وظل سائرا نابذا سنة الترقى فلماذا لاتنشؤون الكليات والا بقى التعليم منحطا أبد الآبدين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) وهاهى ذه كسف المدافع لم تبق ولم تذر فى أقطار البلاد وما هى الا نتيجة العقول المثقفة والآراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقليات فغلبة المدافع والبنادق ترجمان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستنر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم فى ترق مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الذهاب من الوجود وسنذكر فى المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله بأعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

الفصل الثانى والعشرون

فى المقالة السابعة الاصمعية

كليات الاسلام وناموس الترقى

هل درى أولئك الذين ينبذون معرفة ما فطره الله فى الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع فى الارض والسماء أن الترقى سنة فى الحياة وأن القرآن هو أول مقرر

لمبادئه حاث عليه قد بينه على طرق شتى تاره بتعاقب الاديان وطوراً بالطبيعيات وآونة بالاقوال وكثيرا بالقصص وسنة الماضين

(١) الاديان : تعاقبت الأديان وناسب كل زمانه ومكانه فنسخ ما قبله فكأنها سلسلة يتبع بعضها بعضا وكان آخرها نزولا هذا الدين الذى سمح بالترقى لكل فرد وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره أحبارهم وتحكمت به قسيسوهم وأفهم أن ذلك داع للانحطاط والتدلى والذهول عن الترقى فقال (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) ثم قال يريدون ليطفؤا نور الله المنبعث الى العقول بفطرتها وبوحى آخر ما أنزل واطفاؤه بالافتراء من الأحبار والرهبان الداعى إلى انعكاس الرجاء والوقوف أمام ترقيها (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أو رجع خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس فى الدنيا مسافرون إلى الكمال متوجهون الى العلا كوكب سائر فى طريق فيه المدلهمات مشعلات والمخاوف محيطات من كل جانب فأى راكب توقف وسط الطريق عن المسير أو قفل راجعا تناوشته السباع وانتاشته الذئاب وهلك من الجوع والعرى وظمأ الهواجر ونار السعير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة قاهرة وسلطة قوية مضروبون بيد من حديد مكسوة بألين من الحرير واذا كان الترقى هو سنة الله وهو الفطرة فمن خالفها فقد ضل وغوى وأهلك نفسه بوادى الخسران وهلاك الفرد أحرى من هلاك الجماعة ومن العيب أن تقف الجماعة لواحد أو ينبذوا مقرهم ويتبعوا هذا الكاسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم أنزلت الكتب السماوية لايقاظهم فلما غفلوا أرسل الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)

رأينا رقى الأمم حولنا ووقفنا نحن وتركنا مدارسنا الكليات فى أمهات مدن القطر وبقى القديم على قدمه وبيننا العقلاء والأذكياء فما لهم لا يقرؤن وما لهم

لا يتكلمون وما للعامة لا يسألون أيخرج التلميذ من مدارس الأجانب بعد الخامسة عشر عارفاً أربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن فى تلك السن لايعلم متعلمنا إلا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته فى لغة لا يقدر أن يحرر بها خطابا هان على الأملس مالاقى الدبر . يقف التلميذ فى أول أمره على أقوال العلماء فى، أوجه البسملة وإعرابها وكون الباء حرف جر زائد أو أصلى والنعت مقطوع أو غير مقطوع رموز لا يفهمها إلا بعد سنين فأين سنة الترقى

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى فى الكتاب بضرب أمثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الأول وجريانه وسبك الثانى وغليانه زبد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء وبقى الماء والحلى نافعا للناس هذا هو المثل المضروب فى الكتاب (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)

(٣) القول . هل قوله (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول إلا بمعناه وهل هو إلا انتخاب الأحسن واختيار الأجمل فيتبع وها هو مشاهد محسوس أن البشرى تابعة لمن سلك مسلكا راجحا (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الا مذكرات لناموس الترقى وهل قوم نوح لما طعوا وبذوا ما وعظوا به فأغرقوا إلا عبرة للأمم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتابع الانذار فيهم حينا بعد حين قرونا وعلم أنهم لن ينجعوا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) وملخصه ألا يبقى إلا الأصلح للوجود وهو عينه ناموس الترقى

(٥) علم الله أن ستنام أعيننا وقلوبنا ونخبط خبط عشواء فنسخ آيات وأحاديث

يغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كأنه يقول النسخ فى كل شىء على شريطة أن يكون الثانى أصلح وهنا أنا نسخت آيه بآية وحديثا بحديث فوجب عليكم أن تتبعونى وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم فى كل زمان ومكان وما كان هذا إلا كمالا وشرفا

فياقوم هاهو ذاالقرآن وقصصه والأمم وأخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يادعاة الانسانية ورجال الأمة يبقى القديم فى الكليات على قدمه ولا تنظرون فى أمرها ولئن نسيتم من الأزهر إصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لا تنشئون الكليات لتعوضكم مافقدتموه ياقوم لم تضنون بالأموال وها نحن أولا نرى اليابانى يجود بروحه (١) لسد مدخل بو رارثر والانجليزى بالانفاق على مدرسة غوردون فى السودان والروسى يخرج من ماله لوطنه ومالناوالأمم القاصية هاهم أولا إخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرنا كيف يجمعون فى حلسة واحدة لمدرسة صنائعهم أربعين ألفا من الأصفر الرنان وهل أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة نبذنا الأقربون والأبعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر أسلافكم الماضين وآبائكم الأقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكرهم و إن غابت أشخاصهم خرج أبو بكر يوماً من ماله كله وعمر من نصفه فوقفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما فى الفضل ما بين كلمتيكما » فماذا تجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطانا من سلاطين الاسلام فى جزائر المحيط قد أخرج من دياره وأمواله وأولاده و بساتينه لا يملك شروى نقير أخرجه الفرنساويون فماذا أفادت هذه الأموال يا قوم لئن لم تنفقوا طوعا وتنشئوا الكليات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن ما بقى من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شىء مذكور فى جانب احتلال الصناعة وانتشار مدارس الأجانب وتقدم تجاراتهم ولئن تركنا الأمور على هذا لتقفلن دور وتذهب أموال وثروات ولا تغرنكم اللذات . (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم

(١) بعد هذا النداء فى الجرائد أنشئت الجامعة والكليات بعد الطبعة الأولى بسنين المؤلف

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره)

الفصل الثالث والعشرون

فى المقالة الثامنة الاصمعية

الواقفون والعلماء

الناس فى الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدوم نفعا وأتقن صنعاً وأرقى للمدنية كان أقرب زلفى لله وأكثر ثناء من الناس فبقدر ماتدوم المنافع والثمرات تبقى الذكرى والشكران ويتجدد الأجر والثواب والأعمال هى الميزان المعنوى تقاس بها فضائل العمال وهذه هى المضاعفة (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الانفاق نشر الحكمة بين الناس وأرفع الناشرين لها مقاما الأنبياء فعلى قدر أممهم والتابعين لهم تكون منزلتهم فى القرب من ربهم وارتفاع شأنهم فى الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم فى التفضيل ظهور الثمرات فى تابعيهم كثرة وقلة وبالجملة ففضل الرجل على مقدار ظهور أمره فى الناس كفضل الشمس على القمر والقمر على السيارات فكما ان مقادير تلك الكواكب متفاوتة بنفاوت أضوائها فهكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هدايتهم فى الأمم ولذلك يفضل النبى الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى) ثم التفاوت بين الملوك يجرى على هذه النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فلينظر لمقدار أثرهما فى اصلاح العالم فمهما كان الملك أكثر تأثيراً فى سياسة الأمة من العالم فهو أفضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية فى الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك وبالجملة فالأعمال زرع والمنافع العامة فى الأمة

[illegible] يجرى [illegible] والمصلحون فمن وقف لأرباب
[illegible] والا ضرحة فلتقس نتائج أفعاله بهؤلاء ومن غزر
[illegible] على ان ثمرة العلماء أرقى فان العالم يهتدى بعلمه خلق
[illegible] كثيرون كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة
حبة فالواحد على الأقل يهدى سبعة والسبعة قد يهدى كل واحد مائة وكل واحد من
المائة قد يهدى آلافا وترتقى الأمة ويتضاعف عدد الهداة والمهديين وتعم الحضارة
والعمران وترتقى [illegible] درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (ان الله لا يظلم مثقال
ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) فالمضاعفة قد رأيتها والأجر
العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقاً) وقال الغزالى (الأفضل أن يكون المتصدق عليه
من أهل العلم خاصة فان ذلك اعانة له على العلم) والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه
النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا أعرف
بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فاذا اشتغل أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر
على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل ومن أراد أن يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الأمم
الراقية كيف يبذل الأغنياء أموالهم فى سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكرا حسانهم
فى الدنيا ورقى أممهم فيها والجزاء للمؤمن يكون على هذه النسبة فوا أسفاً على أغنياء
الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا فى طريق الانفاق والوقف فترى هممهم على قدر عقولهم
وتعليمهم فأغلب الأوقاف للأمور القاصر نفعها ولعمرى ان بين العالم والعابد كما بين
النبي وأدنى رجل فهكذا فلنكن النسبة بين الواقف للأول والواقف للثانى هذه أموال
المسلمين تنهال جزافا على التكايا فما الذى أفاد المسلمين منها إلا ضحك الافرنج على أمور
تنكى وتبكى وتؤلم العقلاء

من ذا الذى كان يظن أن تصل هذه الجامعة لدرجة تحت الصفر يعلوها ثلج ركام
فيموت علماؤها ويحيى حوالها حتى دك شامخ مجدها وباذخ سعدها
ياقوم رعى الله هل أصبحنا أقل الأمم ادراكا وفهما هل فقدنا رشدنا حتى احتجنا

لقيم علينا أيدرك الداء اليونان والطليان والانكليز والألمان والفرنساويون والأمريكان واليابان والهنود فيتبرعون بالمال للكليات ونبقى نحن فى حضيض الجهل . مات رجل ألمانى وترك سبعة ملايين جُنيه فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التى يظن المسلم أنها تنافى دينه الآن . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من مجيب

قام سسل رودس الانكليزى فأوقف ماله كله على المنافع العامة لا لأمته خاصة بل لها وللأمم كلها وللسلام العام

انفقوا ياقوم أموالكم الآن وأحيوا كليات القطر فى الأزهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وان أبى العلماء ووقفوا فى مدار واحدوعلى نمط مخصوص فدعوهم وشأنهم وأوقفوا لمدارس كليات بشروط تناسب الزمان والمكان ألافلتنفقوا فقد سبقكم الأمم . أنفقوا أوقفوا قبل أن تذهب ريحكم وتزول البقية الباقية من الأمة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقكم الله من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) ان لم تتحدوا على الكليات وتعميم التعليم الآن فما تمضى سنون قلائل إلا ويقفل باب الاصلاح وينادى من قبل السماء فيقال (أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) . (الصيف ضيعت اللبن) . (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل أن يتخطى الانجليز جزائرهم التى هى فى بحر الظلمات بعيداً عن المعمورة تكتنفها الأمواج فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ووراءها الجح لاآخر لها ولا منتهى إلا فى الشرق تسعى لانشاء مدرسة عوردون فى البلاد السودانية وتدفع مائة ألف جنيه ونحن نأبى أن نصرف مثل هذا المبلغ على أبنائنا فتباً لقوم لايفهمون وتعساً لنا إذا تمادينا فى الضلال . هذه ثمرات الأعمال ظهرت فى الأمم حولكم مصداقا لكتابكم فياقوم لم قصرت همم الواقفين ولأى شىء قصرت إرادتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذى يضع الحجر الثانى بعد الأول الذى وضعه (المحسن الكبير الذى علمنا انه سعى فى انشاء كلية) ومن ذا الذى يقرض الله قرضاحسنا وينفقه الحكمة العامة

فى الأمم ورقيها فيضع الحجر الثانى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) وليس الصالح هو ذاك المنتكس على الرأس فى أعماله وأقواله فى التكايا كلا ثم كلا انما الصالح هو ذاك الذى يصلح لعمارة الأرض ويعرف حكمة ربه فيضعها فى موضعها . الانتكاس فى الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى الأوقاف القديمة كلها راجعة إلى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة مانحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقول هاأنا ليشجع غيره ويبنوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)

الفصل الرابع والعشرون

فى المقالة التاسعة الأصمعية

خطاب لوجهاء الأمة

أدعو بقولى الآن وجوه الأمة وعقلاءها وأغنياءها دعوة مخلص فى قوله ناظر لمستقبل أمته كيف وجهتم التفاتكم إلى شؤون الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيرها وقديمها وحديثها حتى شملت العناية المراحيض وبيوت الخلاء وتركتم كليتكم العظمى وهى الجامع الأزهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدوا أيديكم رعاكم الله إلى اصلاحها فان أبى القائمون بها وغلبوكم على أمركم فما لكم لاتسعون فى انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبنى العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون وقد درسوا أنواع العلوم ياقوم مالى أرى الحركة بطيئة والنوم طويلا والنفوس فى حجاب والعقول فى غفلة وهل أتاكم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها فى سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لا نبدى ولا نعيد اللهم إنا نضرع اليك أن تهدى سراتنا وأغنياءنا سواء السبيل من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا [illegible] [illegible] [illegible] هم ألا كريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العظماء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ فى الاصلاح ومستقبل الزمن فيقتدى به الباقون والأمل عظيم فى الأسرة الخديوية وعباسها العظيم وكم من سامع هذ القول يناجى نفسه ومن أنا حتى أجدد مجدا عفا وريحا ذهبت فينام نومة لا قيامة بعدها

ولو درى ذلك ما تومئ اليه قطرتان فى السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت إحداهما للأخرى (وقد رأت زراعا فى حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) اننى أرثى لهذا الفلاح ولقد احترق فؤادى وانضنى جسمى حتى أحسننى استحلت دمعة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ما أنت أيتها المسكينة ومثلك لا يملك للرجل نفعا ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تغن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وما هى إلا لحظة تبقين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام فى القرى

فقالت الأولى ان الوجود خير من العدم ووجودى فى الحقل ينعش فؤاد صاحبه فقهقهت الثانية ضحكا وقالت ما أقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت لأولى ان لى فى ذلك ثلاث خصال الأولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أؤدى ما على من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الأخرى وبها يسقى الحقل ويتم الأمر وما كادت تتم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعتها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين إلا كرجلين أحدهما يطلب الاصلاح والآخر ييأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الأنبياء والحكماء ألم تر كيف يقول الله لرسوله (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على إنه لا ييأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى أمر باخلاص ناله كله أو بعضه وهذا

سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس فى العمل مع توجيه الهمة لمدبر العالم كله وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد بالايمان إيقان النفس بأن ما تعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحى لأمة ليحى الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذى يضع الحجر الثانى فى بناء هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الأول فقد وضعه المحسن الكبير وإنى أحذركم ذهاب الأمر من أيدينا فى كافة شئون الحياة أو نذل إلى الأبد

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
فذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

فإن سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة وإلا فالذل أولا والدمار آخرا (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل الخامس والعشرون

فى المقالة العاشرة الأصمعية

العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون

انتبذت من القاهرة مكانا قصياً يوماً مع أخ من أصدقائى وتنزهنا فى فلاة ذات أشجار وأنهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها أخرى من السحاب الملون بالسواد فى موضع والبياض فى آخر والنسيم يلعب بالأغصان وهو عليل فأخذنا نجوب أطراف الغيضة ونتمشى فى جوانبها وقد خلا لنا فسيح الجو وعرفنا نعمة سكون الضوضاء والجلبة خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وإنها لا لغو فيها ولا تأثيم لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حوالنا اذ بجماعات من النحل وأخرى من النمل وغيرها من الطيور فصفا الفكر الى تذكر

ما عرفنا وما كاد قلبي يذكر إلا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا فى المدرسة اتقان هذه الحيوانات فى غدوها و رواحها ومستقرها ومستودعها وانى لأذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظفها وتأخذ الاسرى تحت سيطرتها وتقتنى حشرات كالأنعام عندنا لتمتص لبنها بخراطيمها وتزرع الأرز بهندسة عجيبة فى حقولها وهكذا النحل يشاهد لبعضه اسفاط (مقاطف) على مؤخر أرجله ليضع فيها مادة الشمع ويخبز منها لأولاده وغير ذلك وإنى اشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويا ليت شعرى ما فائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هى من المسليات للانسان كآلات الملاهى فقلت إن الشيء كلما كان نفعه أعظم كانت اللذة به أكبر فبمقدار اللذة به يكون نفعه وهذه السماء ذات نجوم بأقدار متباينة وأحجام وأضواء وحساب مختلفات يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعى ذو صنائع متقنة مما ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة للناس وميزان لهم فأى أمة أخذت حظها من العلوم واقتدت بملك الملوك فى معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه فى الأرض وسيطروا على الأمم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما عندهم من العلم حاق بهم ما كانوا يستهزئون قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه)

فما العالم إلا مدرسة وما الناس إلا متعلمون والله بيده الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنعته وقلدوها فى الأحكام والاتقان وسابقوا كل حيوان فى عمله والفلك فى حسابه فازوا بالسبق فى الدنيا ومن نكصوا على أعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب)

ولعمرى كيف تكون الأمة خليفة فى الأرض إذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة أو علم كما ان كل أمة من الحيون اختصت بصناعة أو علم وكيف يمكن التوغل فى ذلك لا بالمدارس الكلية الكبرى وهل يمكن فى بلادنا إلا ببذل المال من ذوى الثروة الواسعة وقد أصبحت بلادنا مزدحم الأمم جميعا فى التجارة والصناعة والزراعة وتلك

لعمرك يتضاءل فى جانبها المزاحمة الإدارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الأجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تمادى الزمان كالأمريكان الأصليين واليه الإشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل أمريكا الأصليين (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)

دعوة عامة للناشئين الى جمالى العالم والعلوم

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلوها بعقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهجة وغرائبها المدهشة قف فى الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حللت أو ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة فى جوانبها كأنها سمرت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه أمكان الانسان فى كل زمان ولو أن صانعا سقف منزله بقبة مزرقة اللون وزينها بالمصابيح الجميلة وراعى بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكمية التى بين الكواكب فى ما يوازيها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريئا من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجيب وخلابة الفطن اللبيب ولو خطر هذا الخاطر لأحد المهندسين لهرعت اليه الناس أفواجا من كل حدب ينسلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت أشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كأسد وهذا عقرب وهذا حمل الخ .. وتراها ما بين أحمر وأبيض وصغير وكبير وان عددتها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العادية

وان أخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفتوغرافية بلغت مائة مليون[1] وهناك ماأعجز الناس بابصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق مالاتعلمون والله واسع عليم) فاذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد أشرقت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هى به أخرى وتقرأ فى سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صانع قادر وحكيم عظيم وتدخل اذ ذاك فى عداد من ذكر الله بقوله (أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداوعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا)

فاذا شاقتك نفسك إلى مرتبة العلماء والسادة الحكماء ولم تتمتع بأول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال فعرج على علم الفلك وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر وادخل جنة العلوم والعرفان فى هذه الدنيا تقدك إلى الجنة الأخرى (جنة عرضها السموات والارض) فانظر نتيجة التقويم واقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة فاعلم أن منظرها الجميل وراءه ما هو أجمل منه وأبهى وأن الظاهر عنوان الباطن فكما جمل منظرها بالعيون حارت فى حسابها الدقيق العقول وترى نظاما متقنا غفل عنه الجاهلون ووصل اليه العارفون فان رغبت مع هذا أن تعرف براهينها وابعادها ونسب بعضها إلى بعض فهناك البهاء وتخرج من زمرة من عيرهم الله بقوله (ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وتدخل فى عداد من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله انه لا إله إلى هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

العالم السفلى

وليس العالم السفلى كما يراه العامة مبعثراً مشوش التركيب بل هو محكم منظم عجيب و إذا اتبعت مارسمناه فى هذا الكتاب وقرأت ما سطرناه فى كتابنا (العقد

---

(١) كان هذا المقال فى هذا الكتاب منذ نحو ٢٥ سنه ولكن الان عرفوا أن النجوم التى تمكن معرفتها تبلغ ٢ مليون مليون مليون مليون انظره فى كتابنا الجواهر فى تفسير القرآن المؤلف

الثمين فى آراء العرب ومذهب (دروين) الذى مضى فى هذا الكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجماد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجماد تتلوه المعادن من قصدير ورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات أصغر فصغيراً فكبيراً فأكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التى بينه و بين الحيوان وتدخل فى عالم منظم من هوام فى البحر والبر فحشرات فحيوان بحرى فطيور فجوارح فبهائم فأنعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل إلى الانسان نازل الترييه فآخر فاصل حتى يصل الى الأنبياء فالملائكة الكرام وأريد أن تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ما سطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) ومن ذا الذى يعد نفسه فى مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف يظن أنه من أولى العلم مالم ير هذا الترتيت العجيب والخلق الجميل الذى يعرب إبداعه عن القسط والعدل ولعمرى من ذا يدعى أن بينه و بين رب العزة فى العطف مرتبة واحدة فى قوله (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط) وهو لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل فى إبداعه ولم يلاحظ هذا الاتقان البديع وياسبحان الله كأن مبدع الكون ألهم النوع البشرى من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب الكائنات كأنه نقش على ألواح بصائرهم وكتب فى مكنون نفوسهم إن ربكم حكيم فى صنعه مبدع في نقشه فترى العرب وضعوا له الجدول الدال على أبعاد الكواكب الذى رأيته فى العلويات ولاحظوا السعود والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الكائنات العضوية والعنصرية سـ ـر بنسق واحد كنسق الكواكب وهو عند العرب أمر شائع فى كتبهم أما لافرنج ـم يوفطر، له إلا (دروين) مع ما فى سيره من النتائج المخالفة واعلم أنك إذ لاحظت هذا العالم السفلى ونقشه و إبداعه وصوره وأشكاله وعجائبه وغرائبه من النبـ ـت [illegible] لاحظت ما خط على جلودها وصورها دخلت فى عداد من أثنى

عليهم الله فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه العجائب وأعلم أن هذا الفكر كان شائعاً فى الأعصر الأول زمن دولة العباسيين وفى قرون أخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس أن الفقه والآلات كافية فى هذا الوصف مع أن أدنى التفاتة إلى تاريخ أسلافنا رحمهم الله تعالى وإلى معنى هذه الآية وغيرها يريك أن خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التى رسمناها لك فى كتبنا وأمثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لا تنال إلا بعد العمل بالشريعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا فى مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانيه من لا تعرف إبداعه ولا أعماله ولا آثاره . الرقى فى الحياة الدنيا مداره على هذه العلوم وكيف ترتقى أمة وهى تجهل ما حولها وما يحيط بها ولقد أنذر الله أمة هذا شأنها وهددها وأوعدها فقال (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فياحسرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق وأبناء العرب جاء القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ينادى فى آلاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر فى الأمم وفى كل شىء وأوعدهم وهددهم لجاء من صدهم عنها من ذوى القصور فأصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم إنى دعوتهم بما أودعته فيما كتبت إجابة لدعوتك وحباً فيك ورغبة إليك وشوقاً لذاتك وأنذرت وحذرت معذرة اليك وان عسى أن يعلموا فضل الأمم الراقية فى الحياة الدنيا ونكون فى الآخرة مع الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

الفصل السادس والعشرون

فى المقالة الاولى الملقبة بالرازية

هذه العلوم فأين الرقى

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لأسمع ما يقولون . قالوا ياو يلتنا مالنا لا نرى رجالا نعدهم من الأخيار إلا نزرا ولاحكماء نابغين ولامرشدين. ولا مصلحين إلا ركزا . بلادنا والحمد لله غنية . مصر محط رجال الشرق والغرب فينا جم غفير ادمغتهم ملأى باللغات العربية والفرنسوية والانجليزية والالمانية من مقتصد وسابق وأيديهم ملآى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا ويزاولون الصناعات تباعاً

هل نالنا ما نال القدماء من يونان وروماني ومصريين من اختصاص طائفة بشرف التعليم ! أم انقضت علينا صاعقة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية والانفس الراقية (كما كانت)فى أوربا حكمة حار فيها الفطن . خلت المثلات وتعاقبت النذر واعتاص الجواب فهل من مجيب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان واستبداد الملوك السالفين وظلم الطالين من صناجقة المماليك البرية والبحرية من التركان وتأله الفطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب وافر من الظلم وهذه أوروبا خلقوا عبيدا للأشراف غنما لهم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع ذلك لم يعقهم عن الاشراف على المدنية والرقى فيها ولم نسمع قط أن أحدا من آبائنا الأولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما بيع الافرنسى والسكسونى والجرمانى وغيرهم ثم التفت إلى وقال ماذا ترى ؟ فقلت لاتعجب اليوم ولو صح معاقتنا شبا الطباة ولا زحزحتنا قلل المدافع وما مثل العلوم فى [illegible] كثير [illegible] تتقد [illegible] عشيها الوقود زاد لهيبها والتهب سعيرها وتطاير شررها

وأرعد زفيرها فتشخص لها الابصار وتحدق بها الانظار

أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول فى كل واد إذ لا يصده سد العرم ولا الحجر الصلد ولا التراب ولا الطين وكل شيء

نعم عندنا تعليم مبدؤه جثمانى . أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقفه التفيهق والثرثرة زخرفه النكت الادبية غايته خبز سميذ وعجل حنيذ وشرب النبيذ وثوب من باريز

فويل لأمة كانت علومهم قشورا ودارهم بورا وآمرهم مأمورا . وبعبارة أجلى وأوضح . للعلم غايتان عليا وسفلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا يحمل الاول الثانى ويسيطر الثانى على الاول فهكذا العلم له عايتان تحمل الاولى الثانية وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم اكمال عقلك وشغل فؤادك بما جمل وحلا فلا ريب تنال بالاولى ما يقيم جسمك فاما أن أردت حظ الجسم نابذا حظ العقل والفهم نبذ النواه فلن تصل اليه أمد الدهر (وأن ليس للانسان الا ماسعى . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء الله تعالى

الفصل السابع والعشرون

فى المقالة الثانية الرازية

هل لك أن تستوضح ما قررته لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها جثمانية محضة ـ زالت الصلة بينها وبين مبدعها وتدهورت فى مهاوى الخسران وباءت بالنكال ولأقص لك قصصا يوضح ما انبهم ويحل ما استعقد

كان فى الامم الغابرة عالم يسمى بلعام نبغ بين اخدانه فاستظهر العلوم العقلية

والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان واذا دعا ربه أجابه

وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلا اذ ذاك فسار فى جيش من بنى اسرائيل إلى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه أن النبي من عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغووها فأضلته فاتبع هواهم فانقلب علمه جهلا فأتبعه الشيطان فأخذ يفكر فى الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبث السياسى فانسلخ من الكمال فكان من الغاوين . والخلاصة أنه حول العلم الذى ضاء به قلبه إلى دهاء ومكر لينال به أشباع بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك مجاب الدعوة فأقفل بابه بعدها وحرم بهجة العلم ورونقه وأنذر بالحرمان والطرد وذلك مثال لكل عالم فى الارض لا يريد بالعلم إلا أن يكون آلة

والمثل الأوضح أنك إذا أحضرت كلباً لدى ملك عظيم وألبسته بزة نضرة وتاجا مرصعاً وأجلسته فى تخت الوزراء وأوقفت الجند حرساً والأشراف خدما والحكام حشما ثم رأى عظما معروقا أو لحما متروكا على سدة باب جرى مسرعا إليها شرها تاركا ما كان معظماً حامله موقراً لابسه مجملا نائله

فهذا هو حال الكلب إن حملت عليه بالعصا لهث فأخرج لسانه مندلعا وإن تركته لم يزل على حاله جشعا لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم

بل ذلك مثل كل متعلم نال أمنيته من العلم ثم سولت له نفسه أن ذلك لشهوة النفوس فحسب وصد النفس عن جنتها ونعيمها من الارتواء من أنهاره وورود حياضه وسلسبيله وأشجاره واقتطاف أزهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى المدنية كما وصلت الأمم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت أن تقرأ هذه المعانى والقصص ونتائجه فى القرآن فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأعراف

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) إشارة إلى بلعام وكل من تعلم علما ما حتى الجغرافيا والأشياء (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) إشارة الى اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقى النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنا لرفعناه

بها ولـكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الـكلب فقال فمثله كمثل الـكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأبان أن تلك المثلات إنما هي غواش من الحجب النورية أو سرادقات من العلم تضم فيها أسراراً من الحـكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح وأوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرتهم الأماني فباؤا بغضب الـكسل على غضب الجهل . ثم أبان أن الغرض من القصص آثارها ومن المثلات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمنكبين على إعرابها و بيانها والغافلين عنها ساء مثلهم فتسربت إليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الأمم المنحطة وعقلائها وذوى النفوذ فيها وأنهم يقنعون بجسوم العلوم دون أرواحها أو المباني دون المعاني أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة و إذا رأوا حكمة ردوها للشهوات فقلوبهم غلف وآذانهم صم وأعينهم في غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذن لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

ميزان وبرهان

اذا شئت أن تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان ألفيتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف راضين قانعين بما أوتوا من رزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الأبدى و بضدها تتميز الأشياء

كيف السبيل

اما السبيل لذلك أن نؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحاثة عليه كالأحاديث المحببة فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

العلم رضاء بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة) اه

الفصل الثامن والعشرون

فى حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى

يا قوم ألم يأن لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ياقوم نرى كل يوم خبراً جديداً سارا بانشاءمدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلان مائة فدان على المدارس وثلاثمائة وهكذا ثم نبحث فلا نجد الا أموراً تافهة لاترضى أى دولة فىالمدنية عجباً وألف عجب قامت النهضة فى بلادنا وظهر لأغنيائها أن الفضل والفخر فى البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة

عار على أمة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة لمصالح الدين والدنيا مدخلة فى غضون ذلك ان هذه العلوم لآبائنا الأولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الأحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا نقتصر على نحو (ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا) فالقرآن مملوء بذلك بل أكثره فيه

أليس من المحزن أن يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (أظن) محسنون على تمادى الأزمان ولايجدون من يفهمهم ان مدرسةعليا (بشرائط مخصوصة) تجعل مصر فتاة فى ريعان شبابها الا يجمل بنا وقد عجز مصلحو الأزهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارئ ان ننشئ مدرسةجامعة تكون ملجأ للسورى والبغدادى والتركى والهندى والجاوى والمراكشى والجزائرى

والتونسي مع شرائط مخصوصة كما فعل سيسل رودس الانجليزى ، زار العلامة المستر دوارد براون الانجليزى مصر وتحادث مع عقلاء المصريين فى أمور شتى ، وتكلم فى مسألة مدرسة يراد انشاؤها بهمة أحد الأغنياء وما الذى يجب بالنسبة لها فقال لكاتب هذه الأسطر أن فلاناً أوجب أن تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما أنا فان اهتمامي راجع الى الكليات لا الجزئيات والذى أعتقده ان مؤسسي هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مباديها ولا تجمعهم جامعة الامع من لم يدرسوا من أحوال المدنية شيئاً ولا تاريخ أسلافنا الأولين كيف لاوهم لم يزيدواشيئاً على ما هو حاصل فالأزهر والمدارس الاسلامية فى المساجد وكتاتيب نظارةالمعارف ومدرسة دار العلوم تغنى عن مثل هذا وانما أقول كان يجب أن تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية ويجعل هؤلاء صلة بين المسلمين عامة ان أمكن

يا قوم انى ليحزننى أن يكثر عددنا ولا نجد من رجال العلم من يحدثهم بشأن مدرسة جامعة هل قل المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون . هل تخطى العلم الشرق وذهب الى الغرب ، هل كانت ثمرة القرآن محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وأبصارنا ، هل رفع القرآن فنعذر فى الجهل . نحن أمة حق عليها القول (وقالَ الرَّسُولُ يارِبِّ إنَّ قوْمي اتَّخَذُوا هذَا القُرآنَ مَهجُوراً) جهلنا الأشياء ولم نحط علماً بما بين أيدينا فضلا عما عداه فحق علينا القول (بَلْ كذَّبُوا بِمـا لم يُحيطُوا بِعِلْمِهِ ولمّا يَأتِهِم تأْوِيلُهُ) والآية شاملة لكل مالم يحط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلِكَ كذَّبَ الَّذِين مِن قبْلِهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الحوادث متشابهة والأيام متتالية والأدوار متتابعة كان الأمراء فى دولة الجراكسة لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقصرون أنظارهم على وقف تكية ومسجد وكتاب ، والآن ترقى العمل الى مدرسة صغيرة. ألم يأن لنا أن نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمى فى بناء أزهره

انى يا قوم ليسرنى أن تبنى مدرسة يجعل فيها على الأقل قسم تعلم فيه العلوم العالية

لا كالنورمال ومدرسة دار العلوم بل يوسع فيها أكثر من ذلك ، ولنا فى همة الواقفين وحبهم للخير وغيرتهم الوطنية وصداقتهم الدينية وحميتهم الملية خير نصير .

وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا إغفاله وهو أن نذكر أفاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية أن يلفتوا أنظارهم لموضوع مهم إلا وهو أن يدرس فى السنين الأولى نباتات وحيوانات البلاد درساً طبياً زراعياً توحيديا فيذكر ان الفجل مثلا يدر البول و يطرد حصاة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وانه يثير شهوة الطعام وانه يحدث انتفاخات غازية و إن البقدونس يدر البول نافع لأمراض الكلى وأن الشعير ماؤه ملطف مبرد مغذ مدر للبول و إن البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة الأصدقاء ولذلك كان أكله مكروها فى الشرع ولكنه يصلح السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مما هو مشهور عند الأطباء

ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدّر وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى(وفى الأرض آيات للموقنين.ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين)، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويذكرون مثلا النحل وكيف يبنى بيوته ويشرب من الأزهار وكيف يأتى لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للانسان وكيف نفع الانسان بالعسل الناتج منه وما منافعه الطبية وهكذا وانه ذكر فى القرآن الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما فى العنكبوت وكيف هندس و بنى بيتا محكما أقفله من الداخل واحترس من الأعداء. لعمرى ان هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الأولى إلا وقد درسوا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فانتفعوا ونفعوا . وإنى أكرر القول ان رؤساء الجمعيات مسؤلون بين يدى الله تعالى و بين يدى النوع الانسانى عن هذا الأمر وهل يليق أن يعلم الانكليز والفرنسويون أبناءهم فى الكتب الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها..نعم نحن نحبهم فى شكل التعليم فيجب علينا أن نجعل للأحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ

الأومر عند الكلام على كل علم وإلاضاع شكل هذه الأمةومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن نمزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشاً وذاك أبله وهكذا . وكأن تذكر دودة القطن وكيف وضع الله أبا دقيق ملونا بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الأنثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضعا متقنا هندسيا وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرنقة معرضة للتقلبات الجوية وهى سالمة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية أليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو الخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذى عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقبل وقد عرف ربه ووحده وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الهلاك وعرف الصحة والمرض والداء والدواء وقد صار رجلا عظيما كبيراً وقد أنذرت وحذرت وكررت مراراً ولئن سألت خاصة المسلمين وعامتهم وعلماءهم وجهلاءهم عن سبب انحطاط هذه الأمة لأجابوك بلسان واحد هى المعاصى هى المعاصى ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك إلا بالغيبة والنميمة والأزبكية وما شاكل ذلك ويقرؤن (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا) فترى هذا الجواب منطبقاً تماما على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلا ثم كلا . هذه المعاصى المذكورة هى الظاهرة وهناك أخرى باطنة تربو على هذه فى العقاب آلاف مرة كالأمراض القلبية والأخلاق السيئة والجهل العظيم بل أكبر معصى المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وعيرهم ووبخهم وأنذرهم بخراب مدنهم فقصرناها على أمور قليلة وفاتنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط بنا والحيوان والانسان فلم ننتفع بالأولين ولم ننج من خطر الأخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) الجهل بالنبات والحيوان أورث الأمراض وهلاك الزرع. لكل ذنب عقاب يخصه. فليس عقاب أعضاء الجسم الانسانى

أكل الدودة للقطن كلا . وإنما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم البحث من أهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ كتب الأئمة الأربعة تر صدق هذه القصية . يعذب المسلمون أميرهم وصعلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم فى العلوم والصناعات من القدوم والمسمار إلى الكهرباء والبخار ومن السكين والسيف إلى المكسيم والدم دم وأكبر صواعق العذاب تنزل على أغنيائها إذا لم ينفقوا وعلمائها إذا لم ينذروا فيحق العذاب على الأمة فى الدنيا فيجعل عاليها سافلها وأعزة أهلها أذلة ويختم على الأفواه فلا تنطق إلا بما يوافق أهواء القابضين على الأزمة ويسامون فى الآخرة عذاب النار (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل التاسع والعشرون

محاورات لطيفة فى الاسلام

ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتفاعه[1]

اجتمع رجال من ذوى الفضل يوماً فى عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت ما دار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفى والمتبحر فى العلوم والصانع والتاجر والغنى والاخلاقى والصائغ والسائح والرياضى اذ الامة كالجسم فلتمثل الأمة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه و بصره (٥) والمقتصد

(١) تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنة ١٩٠١ ولقد كنا أزمعنا إذ ذاك أن نلخص أم القرى ونضمنها هذه المحاورات التى نراها الآن وبعد أن لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لأسباب لا محل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخرى هى أهم وأولى فأتينا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذى وضعناه ليكون تذكرة لذوى الألباب أهم مرشد

اعتداله (٦) والعالم عطمه (٧) والعامة لحمه (٨) والصوفية دهنه (٩) والأديب المتبحر فى العلوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والغنى معدته (١٢) والاخلاقى جماله (١٣) والصانع يداه (١٤) والسائح (١٥) رجلاه و بعضهم قرأ مقالات فى الجرائد والكتب الحديثة .

ولما رأيتهم جالسين وقد أخذ كل مكانه خيل لى هيئة الأمة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسى يا ليت شعرى ما الذى يتفاوضون فيه وجال فكرى قبل أن يتكلموا فى حال الأمة الاسلامية وقلت انى أخاف أن يقبل بعضهم على بعض يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل أسرة أو أمة دك شامخ مجدها وذهب عزها تلاوم أعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الآخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة و بعد الموت ومنه ما نص الله بقوله (حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)ولما تلوت هذه الآية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت فى الآخرة فهى حاصل نظيرها فى الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام اذ للأمة موتتان موتة أدبية عند الانحطاط فى الدنيا وموتة جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا واذا ماتوا ردوا الى عذاب أليم وفى كل من الموتتين يتلاومون كأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات فى الجدال والملاومة بين

الرؤساء والمرءوسين والذين اتبعوا وان كلا يبرأ من الآخر ويود عذابه حتى رد عليهم بقوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون)

وهكذا نرى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين

ولقد علمت علم اليقين أن الكون متشابه وأن أحوال الدارين متشابهة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا وما الأخرى الا نتيجة الدنيا أو ثمرتها والثمرة تكون على حسب الشجرة

ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سر يجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا أفراد كل أمة وكل جيل من الناس عند وقوعهم في عذاب ناشئ عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضا مع انهم في الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون في العذاب في الدارين

ومن العجب أن الله تعالى ذكر أن أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامة وقد قلنا أن الأمة كالجسم فانظر كيف ترى انها تشبهه في ذلك فترى كلا من رجال الامة بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع أن الجميع مسؤول فيختم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاؤها بما فعلوا من الشرور التي أوجبت الهلاك فمن العجيب أن هذا مع ذكره لأعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصلا للأمة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) وقد علمت أن النفس الواحدة تشهد عليها أعضاؤها اذا ماتت فهكذا الأمة اذا خمدت أنفاس حياتها نطقت أعضاؤها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون فتأمل في التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام في السموات والأرض وسيره على أحسن نظام ونسق تام

وبينا أنا تائه في بحر عميق من هذه السوانح العجيبة وقد ظننت أن هؤلاء الأعضاء سيجرون على هذه القاعدة اذ رأيت منهم أمراً عجيباً وأروني مالم أر وعلمت منهم [illegible] حية ولم تمت والحمد لله حسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن

لتلافى ما فرط وظهر لى من كلامهم أن فى المستقبل أملا وطيدا وان من أصولهم التى بنوا عليها (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فنسخت شمس أملهم ظلام يأسى وهاك ما سمعته منهم ونقلته عنهم

لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطفاً بعض أقواله من أم القرى يجب على كل منا أن يصرح برأيه ولا يخاف فى الحق لومة لائم ولا يخاف انتقاداً وليس من يبدى رأياً ملزما به بل قد يبديه من لا يعتقده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله أن يرجع عنه إذا شاء لأنها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان أن مسألة انحطاط الاسلام بنت ألف سنة أو تزيد واذا استحكم وطال عليه الأمد استحق مزيد عناية فى البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافى واعلموا أن هذه المسئلة أجل من أن يقوم بها إنسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه ألوف الملايين إذن لابد من رجال وجمعيات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون أن العمل يحتاج الى زمان مناسب له إذ كل شيء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر إلا إذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والممندات كالبطيخ والقثاء فانها تمتد سريعا وتفنى سريعا على هذه القاعدة ليس ينفع هذه الأمة مجرد عصبيات تفور فتفور سريعا أو جمعيات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حصرية حمقاء لاتلبث أن ينقلب بها الزمان ويحطها الحدثان وانما لابد من التناسب بين الشيء ومقدماته

وهذا الاسلام تفرق شيعاً وداق بعض المسلمين بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئنين وكانت الأمم المجاورة لهم أحط منهم فأخذوا يجارونهم حتى ساووهم فى القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم فى هذه الأربعة القرون بمراحل وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعة واستيقظوا لما حل بهم وحاق بهم من المكروه فأخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفا بديعا يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجمال والتلميح مع أن المقام يأبى إلا التشريح والتفصيل

ثم أخذوا ينذرون قومهم ويصفون هول المطلع وسوء المنقلب فى هذه النوازل ثم يلقون التبعة على الأمراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الأقوال ولا ييئسنكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقية سريعا فان هذه الجمعيات الصغيرة مقدمات للجمعيات الكبيرة الثابتة والشرق مشرق العظائم ولا تيأسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الأمة فى هذه الأيام إلا اليأس إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة فى الشرق إلا كمثل الإرهاص للنبوة فترى الإرهاص الانبياء منبئآت عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم

ولا يغرنكم الكلمة المشهورة أن الأمة اذا سقطت وكسرت لاترجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها

وها نحن أولاء نرى الطليان واليونان والأمريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد أن فقدوا معدات الحياة وسقطوا فى الهوة فاستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا وبين غيرنا فرق إلا فى العلم والأخلاق وأمد العلم عشرون عاما والأخلاق أربعون

وهؤلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر إلا بعد الأربعين استعملوا فيها الأخلاق وعلا شأنهم

فهلموا للبحث عن داء هذه الأمة ودوائها ولايغرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد ولم تتقطع هذه الأمة إلا بتفرقها مذاهب وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الأصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصالحهم ضد كل من اذاهم وعاداهم

ولتعلموا أن ظواهر الأسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فان الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء النبى ونزل جبريل بالقرآن ونجم فى هذه الآية رجال فى أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال انى جبت البلاد شرقا وغربا وعرفت أهل الملل وجبت الهند والصين و بلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وافريقيا فوجدت أن المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطا وانتظاما فى أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتى انك لترى بيتين متجاورين أحدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما فى لمح البصر فياليت شعرى ما السبب الذى دعا لذلك حتى قال بعض السواس أن الاسلام والتمدين لايجتمعان ومع هذا ترى المسلمين فى كل بلدة محافظين كل المحافظة على أمهات الأخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الأخلاق والعفة والأمانة وليس ينحط عنهم فى النشاط وجميع الأعمال إلا أهل الديانات المتشددة المغالية فى التشديد كالصابئين حول دجلة الذين يضيعون أوقاتهم منغمسين فى الماء تعبداً وكالكنغو من الزنوج وكالبوذية من الهنود المعتقدين ان كل مصائبهم حتى الموت الطبيعى من السحر فهؤلاء أكثر فتوراً من المسلمين و يلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعيون الذين يدينون فى نفوسهم الى قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن أشقى الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الأخلاق لهم نوع دين ولايصح أن نسمى إنسانا لادين له بالمره وهذه أوضحت معى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وهذه آثار أخذ العهود على البشر بالتوحيد والايمان فالفطرة عليه اشترك فيها الناس ثم إن الدين الصحيح إن عمل به ساق الى نظام ونجاح فى الدارين وقد يدخل الفساد على عقول أهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزيدون عليه شيئاً أو يجمعون بينهما فان كان الأول فقد ينجحون فى الدنيا ويكونون ناقصى الدين وإن كان الآخران فسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة أو بها مع نقص عنه وهاتان توجبان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنية زاهرة اذا هم نظروا بالعقل فى أحوالهم المعاشية وبنوا على أساس علم العمران فى الأعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص أن الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لا يعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منهما ينقص إذ لا تعطيل فى أعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بها مع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الأمة ألفا وثلاثمائة سنة مع ماطرأ من النقص فى الفهم تارة والزيادة فى الخرافات أخرى ومع ذلك حفظت إلى هذا الزمان وما ذلك إلا لقوة المتانة فى أصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط أهل الديانات جميعاً ولا أرفعهم وانما هم أرفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فياليت شعرى ماالذى طرأ على الأفكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذى يجب البحث عنه

فقال العالم الذى أراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية وأخرى أخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد فى الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظائم الأمور ولعمرى ان الأولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الأمة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قمم المجد والشرف فى المطالب ولهذا نفى سيدنا عثمان أبا ذر الغفارى الى الربذة

فقال السياسى ما نزل دين من السماء إلا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو إلى الأخرى ليقف الانسان فى الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتى القضاء والترهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما فى كل دين ليتسلى العاجز ولا ييأس الطالب بالأولى ويقف شره الطبيعة حينئذ فى الوسط بالثانية لأن الديانات أدوية بها يرجع إلى الصحة ولا صحة إلا بالتوسط وبهاتين العقيدتين تكون الأمم بين الاعتدال نشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلا قنوط فبوجه

همته إلى نفع أمته. أو لا يرى ان كل الأديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله أو خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أكفره فانه لايلبث أن يعكس القضية فان جاء له خير انتخر وشمخ بأنفه وقال هو من عندى وان جاء له الشر نسبه لله ولذلك لاينسب البشر أمراً إلى القدر الا عند الجهل بسببه ستراً لجهلهم أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر ستراً للعجز . ولما غلب أخيرا على المسلمين جهل أسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا إلى القدر والتزهد تمويها لاتدينا . والمشاق والعظائم التى اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة فضلا عن الثواب كفاية برهان مع ان الأمة كانت زاهدة فعلا لا كالزهد الذى تدعيه الآن كذبا ورياء

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم إلى النفع العام الذى عليه ينبى الاسلام اما اذا تعطلت الأعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى فى النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذى يشمل جميع الأعمال العامة لاخصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاد يكون لاعزاز الجامعة الاسلامية أولا والجامعة البشرية ثانياً إذ الأمة الراقية دينا وعلما ومدنية يجب عليها رعاية الأمم المنحطة كالأب يربى أولاده ومثل الأمم المنحطة كالطفل يتربى بين أبويه حتى يصير مشابها لهما . ثم قال والذى أراه أن سبب هذا الفتور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحى نيابية اشتراكية أى (ديمقراطية) تماما فى زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية بعدهم بسبب الحروب والانقسامات بين أكابر الأمة ثم صارت أشبه بالمطلقة وذلك ان الأحكام لم تكن مدونة فى زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر فى صدورهم ولما تفرق الصحابة فى البلاد قيدوا الأحكام فى زمن الأمويين ومن بعدهم فتشعب الخلاف وبنى على تشعب السياسات فأصبح بأس الأمة بينها شديداً وقلوبهم شتى وأصبحت الأمة جندية محصة وسارت فى تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الأمر إلى أن صارت أمة جندية صفة وأخلاقاً بعيدة عن الكسب بالوجوه الطبيعية

نعم قد كانت تصادف فى سيرها فترات قليلة يقف فيها دولاب الحرب فتترقى العلوم والمعارف ثم تذهب فى تيار حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم أخرى إلى أن سبقتنا الأمم من حولنا بأن صارت الجندية عندهم صناعة ذات قواعد مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريبا فكانت أولا داخلية وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخرى ثم صارت للمدافعة فحسب ثم صارت فى القرنين الأخيرين داخلية لاغير وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية وأصبح بأسنا بيننا شديداً نعيش بالتحايل على الكسب من وجوهه الطبيعية وهذا أجل مايميت النشاط ويولد الخمول

فقال الأديب : ان غيرنا من الأمم قد وجدوا فى انقسامات سياسية وتباينات مذهبية وحكومات مطلقة وفى حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذى أراه ان هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل فى غالب الحكام المترفين الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء إلى منزلة أحط من منزلة العجماوات التى لها طبائع ونواميس فمنها ماتحمى ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لايشعرون ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويبكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسى مع انهم وأيم الحق يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ماهم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لايقر صاحبه لفاضل بفضله لأنه داء الغرور ولايجارى حازما فى مضمار وقد سرى من الأمراء إلى العلماء إلى الكافة فلا يرجى معه شفاء قدمه الشجاع الحر وقال :

من ثم حكامكم ليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم وبذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكن نحن مرضى فمن أين يأتى مرض لأمرائنا والحكام أبناء الأمة تسربوا فى حجرها والابن يرث غالباً

صفات أبيه فتحميل التبعة على الأمراء وحدهم غير سديد

* ثم قال والذى أراه ان سبب هذا الفتور العام هوفقدنا الحرية وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه

والحرية هى أن يكون الانسان مختارا فى قوله وفعله ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة فى المطالبة و بذل النصيحة ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات والمباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال

ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على العلم واستثماره فالحرية هى روح الدين ولا يمكن أن يقوم بدونها وكيف يقوم الدين بدون النصيحة المتوقفة على الحرية وقد روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضا ان صحابيا قال :

أتيت النبى صلى الله عليه وسلم قلت أبايعك على الاسلام فشرط على والنصح لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعة عليه وانها من أصول الدين العليا الكلية وهذا النصح لا يتم الا بالحرية ومما يحسن ذكره فى فروع الحرية قول سيدنا حسان بن ثابت الشاعر الصحابى

وما الدين الا أن تقام شرائع   وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فانظر كيف حصر الدين فى اقامة الشرائع وتأمين الناس ولعمرك أن الحرية بفقدها يعم الكسل أفراد الأمة و يتمادى فيهم و يرثه عنهم أبناؤهم لما يرون من ذهاب آراء سديدة وأموال وأعراض ونفوس وشرف ومقتنيات فتقبض الأيدى عن العمل والأرجل عن السعى والقلوب عن الأمل والافكار عن التفكر والاستنباط وعليه تتدهور الأمم تدهوراً فى أسفل سافلين . أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو نزع الحرية من الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس بعام هذا مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنوّر اننا كنا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتذلل ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الاثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وقد يظن أن أصعب هذه الأمور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة وذلك بالاعراض عن الخائن والفاسق والفاجر وتجنب مجاملته ومعاملته ولا شك أن ايتاء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم مايقوم الممالك قال تعالى (ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب

وبالجملة فترك هذه الخصلة منذر بانقراض الأمم التاركة له من الوجود ، ولقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرين من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا فى الحاجيات والكماليات فشغلوا بنفوسهم فأقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقا عظيما فبطل الاحتساب كما بطل التناصح العلم فأصبح بأسنا بيننا شديدا وأصبح الاكتساب مقام الاحتساب وصارت الأمة أشبه بالجندية المحضة

فقال الحكيم أن هذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب ولكنه لا يكفى وحده لايراث ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مادها هذه الأمة وأوقعها فى فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كأنهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا وتترك الأمم مع ان علم الساعة عند الله

فقاطع الغنى الحكيم قائلا : هذه المسألة تجول فى أذهان عامة الناس وخاصتهم

ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الخفاء ولذلك أصبح كثير من مريدى الاصلاح يثنون غرائمهم عما قصدوا لاسيما اننا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولا اجمالياً وان هذه علامات صغرى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شيء مضى عليه ألف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيما مع اننا نرى نشاط الأمم وتسابقهم إلى الخيرات ونظام المدنية فأرجوك بلسان الاخوان أن توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فاننا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم : من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل . . . . وهكذا القضاء والقدر وزمان الموت فكل هذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان فى الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائدة وهكذا ألم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائدة وهكذا جميع أعمال الانسان لابد لها من لذة مطلوبة وألم منفور عنه حتى يعمل الأعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ما باع التاجر ولا اشترى وهكذا الملوك والأمراء كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لابد منها

ولما علم مدبر الكون أن لنا أرواحاً ستبقى بعد خلاصها من الأبدان وبعد خروج الأمم من أسر الطبيعة أراد أن يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقى للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لغلب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البتة ولو ترك أعلامنا دائرة لم يبق هناك خوف قط فهذه هى الطريقة الوسطى التى تدعو الى قيام الأمم وأفرادها وترقيها الى أوج الفلاح والعلا والسعادة

وقد فهم النبى صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته هو وأصحابه والصدر الأول من الأمة فأسس دولة وشيد ملكا عظيما وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا

بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت الأفهام كلما تدهورت الأمة (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) فلم يكن ظهور البرق فى السماء ليعتقد الانسان أنه سيحرقه وأن المطر سيملأ الفضاء بدون رجاء نفع وإلا كان البرق عذابا واجبا وإنما جاء للخوف مع رجاء أن ينزل المطر فيحيي الأرض بعد موتها فجاء البرق للخوف والرجاء معا ومامثل يوم القيامة إلا كمثل البرق فاذا قصر على الخوف دون الرجاء أحدث اليأس والقنوط فاذا تغير ما فى النفوس من الأمل ولم يبق إلا القنوط انحطت الأمة (أنا عند ظن عبدى بى)

ونرى أن أمتنا غلب على عامتها وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم ان قرب الساعة زاد جداً حتى أنه ليس للاسلام قائمة تقوم مع أنه ورب الكعبة لابد من بقائه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد فى حديث البخارى عن معاوية بن أبى سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) فهذا نص فى بقاء هذه الأمة

ومن المبكيات أن الأمة كلما تقهقرت اعتقدت اشتداد القرب مع أن هذا لايخطر فى بال السواس الدين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فانه جدير بالبحث فقال تسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتى مقدمة لكبرى وإيضاحه أن هذه الأمم على سطح الكرة الأرضية يتلو بعضها بعضا وكلما ذهبت أمة اتبعتها أخرى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأ كم من ذرية قوم آخرين انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر

بالهلاك وهو الشيب والهرم والأمراض المتنوعة فكل هذه تنذره بالاستعداد للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويجيء البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الأمم لكل أمة عند إرادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها فى عناصر أمة أخرى وجميع الأمم على سطح الكرة الأرضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتتمزق الأرض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيعيين وجميع علماء الأرض قاطبة فى هذا العصر من الافرنج والشرقيين

ونذير الأمة عند انقراضها حلول الأمراض فيها أي أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) وذلك أمور : —

(١) عموم الترف فيها وتطاولهم فى البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الأمة

(٢) اختلاط الأنساب وأن يتزوج الشريف وضيعة النسب فمتى تمادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكم الشقاق

(٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فمتى طال أمده كثر قتل الأجنة فذهبت الأمة من الوجود

(٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الأمة

(٥) شرب الخمر وكثرته والإدمان عليه فانه كما قال علماء العصر الحاضر سبب لتلاشى الأمم الشرقية ولذلك قال هنرى فى كتاب خواطر وسوانح أنه الطريقة الوحيدة فى إبادة الشرقيين فهى حرب حقيقية معنوية

(٦) أن يكثر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدى السودانى والتعايشى

(٧) أن يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط الملك من لا عصبة لهم ولا قوة ولا بأس ولا شجاعة ولا علم

فهذا من أعظم النذر فكل أمة غلبت عليها هذه الصفات أو أغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم أمة أخرى وحكمها الأقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما

فى عاد وثمود والذين من قبلهم و بعدهم أو حكما كما فى الأمم التى احتلتها أمم أخرى وتسلطوا عليها (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم و بعدهم (أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) وهذا كالأمم الباقية فى حكم غيرها وهذه هى التى عملت عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ويخرجون من الاستعباد الى الحرية

فهذه الصفات السبع التى ذكرناها علامات لانقراض الامة واضمحلالها وهى بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبى أو حكيم أو سياسى إلا وأنذر قومه وأعظم الناس الحكماء وأجل منهم الأنبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذى ظهر و برع فى علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت فى الاحاديث مفرقة فأشار الى الأول والثانى فى حديث البخارى وهو سؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والإيمان والاحسان والساعة وهذا نصه : عن أبى هريرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الإيمان قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته و بلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فنه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها اذا ولدت الأمة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لايعلمهن إلا الله ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اه

فقوله اذا ولدت الأمة ربها إشارة الى ما أحدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وأمراؤهم وأغنياؤهم من اتخاذ نساء السبى المباحات لهم شرعاً وخرج منهن أولاد صاروا ملوكا وأمراء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الأمر على ذلك زالت العصبية

وذلك حاصل فى بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام إلا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن

فالقصد من هذه العبارة ترك الجنسية وعدم الرابطة القومية فانها من أمهات النذر للانقراض إذ الرابطة تكون بالجنسية والدين واللغة والوطن والصفات المشتركة والجنسية من أقواها .

وقوله واذا تطاول[1] رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف فى الأمة فتنقطع الاعمال وتكثر الجبايات ويجتنبون الحرب كما حصل فى أمة الرومان ودولة العرب (و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) . فقلدهم العامة فتطاولوا فى البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم وأكثروا من المعاصى (فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) ثم أشار الى أن هذا عام بقوله (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل ما يخل باصلاح الأمة كعموم الترف والزنا وغيرها من الأمور السبعة المذكورة وأشار للثالث والرابع والخامس فى حديث البخارى عن أنس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) وليس رفع العلم إلا ما ورد فى حديث البخارى أيضاً بسنده الى عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله علية وسلم يقول إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

فمن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا أن علم الفقه وحده كاف فى نظام الأمة فلقد سمعت من مشايخنا أنهم يقولون أن قضاة هذا العصر قضاة ضرورة وذلك لأنهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعى ومن لنا بقضاة كعلى رضى الله تعالى عنه وشريح ومن بعدهم فهذا اعتراف بأن القضاء عندنا أصبح ركنه مهدداً وهو تفسير حديث النبى

---

(١) قد مر هذا فى الفصل الاول فى هذا الجزء واتضح فيه اسراف الامويين العباسيين الخ

صلى الله عليه وسلم ولذلك لما ضعفنا فى غالب الأقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الأمم وأصبحنا معرضين لأخطار كثيرة وانتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى فى جسم غيرها من الأمم ولقد حل بنا ما حل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك فى بلاد الاندلس فانهم أجلوا عن بلادهم وأهلكوا

وهكذا الأمم الأخرى أصبحت فى الاختلال فأخذها الاحتلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عز وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الأمة بنفسها أرسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيريح الضالة باحدى أمرين . إما الهلاك من الوجود أو تحكمها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود .

ومن أسباب هذا الجهل أن أهل العلم يظنون أن المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والأصول وأن تحصل للانسان ملكة الفهم فى العلوم الشرعية وبها يصلح أن يكون قاضياً . مع أنه قد أضاع حياته فيما لا يكفيه ولا يغنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فأصبح من الضالين المضلين فالاقتدار على الفهم شىء والفهم شىء آخر والعمل هو النتيجة فاذا ترك هذا كله لم يبق إلا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس وانما جعل سلاحا لاصلاح منازعات العامة وأشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى :

قال أنس ألا أحدثكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد .

وهذا نراه حاصلا فى كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال فى كثير من أمراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الأمة وأشار الى السابع فى حديث البخارى بسنده عن أبى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابى قال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع

حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال فاذا أضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة

ولما أتم الحكيم كلامه قال له التاجر انا نسمع فى هذه الأحاديث التى تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب فى هذا فان الساعة هى القيامة وأين القيامة وأين خراب أمة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير الذى أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها لا خراب الكرة الأرضية كلها إذ هى أمور ترجع الى صلاح العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى بل الذى دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كلما هلكت أمة أحدث الله بعدها أخرى كما انه كلما هلك انسان أخلفه آخر فى الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن أشراط الساعة عن كل نبى من الأنبياء فلقد أشكل علينا الأمر وزاد أشكاله فأزل الريب عن قلوبنا فقد قرب أن نصل الى فهم هذا الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لايضاحك وجدنا هذه منذرات بخراب الأمة التى تقع فيها فقط وان نظرنا لألفاظ الأحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الأمم كلها لا تنمحى من الوجود الا اذا جاء لها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشراط الكبرى كأن تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير الشمس واضطرابها فى سيرها بحصول تصادم أونحوه من الأمور السماوية التى يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة و بعد ان تأخذ الأرض زخرفها وتتزين ويظن أهلها انهم قادرون عليها ولا يبقى حرب فى الأرض ويظهر جميع أهل الأرض بمظهر الجمال فى الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما فى الحديث ويزول الضلال والدجل من الأرض ولا يبقى سوى السلام وهذه الاشراط لا وجود لها الآن البتة فان المدنية التى تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلما وحربا فأين الهدى وأين السلم وما البهتان والزور الا من الأمم الحاضرة الذين هم أساس كل ظلم وعتو فأوضح لنا هذا الموضوع تنل الثواب الجميل

فقال الحكيم : ان أشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبى ينذرون قومهم بها وكلهم كانوا يأتون بالقسمين فلنقدر ان الأمم التى قدر الله وجودها على سطح الكرة الأرضية من آدم الى خراب الأرض ألف أمة مثلا فاذا قدرنا الأمم التى مضت من قبلنا تسعمائة وخمسين و بقى الآن ٥٠ ونحن لا نعلمها فكلما هلكت أمة من الخمسين الباقين وهم بلا ريب أقل من التسع مائة والخمسين انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الخمسين الباقية فكلما غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بأمرين بهلاك أمة عاجلا و بقرب الساعة فبعد ان كانت بقى عليها خمسون أمة يبقى تسع وأربعون

فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الأرض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلافاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من أشراط الساعة فاذا تتابعت الأمم واحدة بعد الأخرى حتى جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى وتحطمت الأرض والسماء وانقلب هذا الوضع الذى نراه . وفائدة هذا الانذار أن الامة قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع و يخلفهم أقوام يجددون مجدا جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الأولين وهانحن نرى الآن اليابان والطليان والأمريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجهم من الاستعباد وهكذا بنوا اسرائيل رجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق فى أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان وأخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فإنها محرّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يَتيهُونَ فى الارض فلا تأسَ على القومِ الفاسِقينَ) وهذا هو الدواء الذى تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله فى القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدنا القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجهل عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاقم الخطب ولذلك قال العزيزى فى شرح الجامع الصغير نقلا عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا فى سابعها ألفاً) ما معناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب سخيف العبارة سنده فيه وضاع

أظن أن هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التى شاع فيها هذا الكلام تسلية عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة فى النوع الانسانى كلما ضعف عن شئ أحب التسلى كما يتسلى العاجزون بالقضاء والقدر والبطالون بلعب الطاولة والنرد والسكارى يسلون نفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا وأحزانها غاية الأمر أن هذا سكر ظاهر وذلك خفى يأخذ بالعقول عن النظر فى الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو بتمنى زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بأنفسهم وما يشعرون فالأمة التى تتكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو أجلها وموتها وهلا كها مالم يتداركها حكماء علماء ويأخذوا بيديها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الأمم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الأمة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتدأ الدمار فيها تنبيهاً من الله لأهلها ليأخذوا حذرهم ويرجعوا بجدهم وقد ورد فى الحديث ان فتح القسطنطينية من أشراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح أحد الاسبانيين بلاد الأندلس وقتلوا أهلها وسبوهم فأخذوا وهم لا يشعرون

ولما ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج فى احتلال الجهات الأخرى وامتلاكها من العرب والهند وغيرها (وان مِنْ قريةٍ إلا نحنُ مهلِكُوها قبلَ يومِ القيامةِ أو معذّبوها عذاباً شديداً كان ذلكَ فى الكتابِ مَسطوراً)فقوله مهلكوها كخراب الأندلس وقوله أو معذبوها عذاباً شديدا كالبلاد التى أهلكها أو ملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب جريمته فى الابتعاد عن نظام البلاد وادارتها المعبر عنها بالقواميس الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعاً من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله أن الأيام يداولها الله بين الناس (وتِلْكَ الأيامُ نُداوِلُها بين النّاس) وهذا الدين لا يزول من الأرض بل آية أمة أضاعته حماته أخرى تقدر على حمله (يا أيُّها الذِينَ آمنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوفَ يأتى اللهُ بقومٍ يُحِبُّهم ويُحبونَهُ أَذِلة على المؤْمنِينَ أَعِزّة على الكافرينَ يُجاهِدُون

فى سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لومةَ لائمٍ ذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاء واللهُ ذُو الفضلِ العظيم)

ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسي جالسا قال مشيراً اليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين أبرزوا علوم الإسلام وأغلب حملة العلم منهم كما قرره العلامة ابن خلدون ها نحن ان لم نقم بهذا الدين فربما يأتى المستر والمسيو الانكليرى والفرنساوى فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من رمق الحياة فهلموا للعمل وثقوا بالله (ان تنصرُوا اللهَ ينصرْكم ويثبّت أقدامكم) ويرجع مجدكم وربما فقتم الأولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذى جعل فى الاسلام رجلا حكيما مثلك يبين للناس ما نزل اليهم وأكثر فيه من أمثالك

فقال المجتهد أن بيان أخينا الحكيم الفاضل كاف شاف فى هذا الموضوع ولقد بدا لى فهم انتخبته من فحوى كلامه ومرامى أغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى وكبرى فاذا مات انسان فهى قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هى عند خراب الارض وبين موت الشخص وخراب الأرض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت الساعة الكبرى بمقدارها إذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكلما تنفس الانسان مرة ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد القرب وهكذا إذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الأرضية قربت القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت أمة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى ذلك نفهم قوله تعالى فى عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان إذا ذكر الساعة أوخطب يظهر الغضب فى وجهه عليه الصلاة والسلام

وقد ورد فى حديث أن جماعة جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (إذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار إلى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذى فهم من الأحاديث وهو المطابق للأخبار ولكن هذا غير مايفهم عامة الأمة فى هذا لزمان. ولقد كان النبيون ينذرون بالأمرين الاشراط الصغرى والكبرى وكان أكثر عنايتهم بالصغرى لأنها هى المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسئلة التتار وذلك أن الاسلام كان آخذا فى الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فعبر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتائج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومتاخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما أوضحناه فى هذا الكتاب

ثم ان كلام الأنبياء عام لا يخص أمة بعينها فمتى حق القول على أمة هلكت واضمحلت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لأن أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمنظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحى اليهم والوحى أمر سماوى عمومى فاذا جاء للأمه أخذ كل بما يناسب قواه العقليه فاذا أراد الله هلاك أمة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم ووقفت حركتها واذا أراد اعزازها كان هذا سببا فى نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الأخذ فى أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والأمة إذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لأن هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر.

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لاحداث هذا الفتور العام فى الامة إذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة فى جميع الأمم فلم تختص بأمة دون أمة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأى الناشىء من الخمول العظيم المستولى على الكافة وهذاما نبحث عنه والذىأراه يصلح أنيكون سبباً عاماً انقطاع سلسلة الولاء فى الأمة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لمجدها القديم وذلك أن غيرنا من الأمم إذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل وألفوا الكتب فى تقريظه وذكر أعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون فى المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس فى المجالس حتى ينسج الناشئون على منواله و يتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح النشاط وحب التقليد فاذا جاءوا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا شخصاً أمامهم إلا تذكرة لجميع أعماله فى حياته و يتمثل لهم ان هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجميلة فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والاقتداء بهم و يحبون أوطانهم أما نحن فان عظماءنا وهم الأولياء والملوك والعلماء لا تقرأ فى سير الكثير منهم الا الكرامات وخوارق العادات ونترك كل عمل جليل عملوه مما ينفع الأمة حتى إذا وقفنا عند الأضرحة لم نعمل بما صرح به علماؤنا من أننا نقف معتبرين فى أحوال دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا و بين صاحب ذلك الضريح . وكيف كانت حياته ونفعه للناس واقتداؤه بالأنبياء ونطلب له الرحمة مكافأة على احسانه (فهل جزاء الاحسان الا الاحسان) ونقتدى فى أفعالنا (فبهداهم اقتده) وعلى ذلك تخطينا كل الأعمال الشريفة ووقعنا فى هاوية لا مرد لها إلا إذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا ترى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم من أكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العادلين من العباسيين والأمويين وانما المنتشر على الألسنة بين العامة والخاصة بعض كرامات للأولياء الصالحين والاقتصار عليها مع ترك ذكر الأعمال العظيمة لنفع الأمة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى ومعاوية نراها شائعة ولا

تذكر فضائلهم إلا تبعا وانما المذكور فى الغالب المشاجرة التى أمر العلماء الاتذكروكان الواجب أن تنشر فضائلهم بين الامة ليقتدى الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين يجمعون الحوادث من حيث هى بقطع النظر عن تأثيرها فى النفوس وانما يأتون بكل ماسمعوا مع أن التاريخ حدث فى الامم للاعتبار والاقتداء ولم نجد منهم من ألف تاريخاً يقصد النفع والتأثير على الافئدة والنفوس بفضائل الاعمال العمومية فيرون التاريخ من حيث مصدره لامن حيث نفعه وتأثيره مع أن الامم العربية عرفت تأثير ذلك فبحثوا عن سير علمائهم ولخصوا الحوادث تلخيصاً يولد فى الناشئة رغبة صالحة . ولعمرى أن الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب والقتال والخداع قلدوهم فى أعمالهم وعلى ذلك نرى قصة أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة وعنترة العبسى وهبلة شائعة بين عامتنا .

فياليت شعرى كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجاهلية بينهم حتى اننا نرى العامة فى القرى والامصار عندنا بالبلاد المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصغارهم وكبارهم فانا لله وانا اليه راجعون[1] .

وما قصص الغابرين من الأمة مع الحاضرين إلا كسلسلة اتصل أولها بآخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الأذهان فتدهورت الأمة وضلت تائهة حتى تأخذها أمة أخرى وتحفظ أنسابها وأشعارها وتاريخها وتنسى سلسلة قومها

ولقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم قسمين محافظين وأحرار فالمحافظون يدرسون الماضى ويبقون كل قديم على قدمه ليبقى نظام الأمة متصلا كما كان أولا ويتصل أولها بآخرها وتبقى رابطتها قوية والأحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حادث علما منهم انهم ان انقطع نسبهم عن الأمم المجاورة لهم فى المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم فى الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أو لم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت

(١) ليفكر من بعدنا فى هذه القصص وليهذبوها ويبقوا النافع منها حتى تصلح لسماع الجمهور

فبالأول تذهب قوتهـا وجيشها وبالثانى تنقض عليها الأمم وتنقطع عن سابقتها فتتدهور فى الهاوية وبئس المصير فوجب علينا أن نسلك الطريقتين ونعمل بالأمرين ونقرأ سير الأولين منا ونؤلف تأليفاً نافعا مؤثراً وأن نجارى الأمم حولنا ونستعين بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

فقال الأديب اننا نرى فى الأمة جزءاً صالحا من شعائر القومية وارتباط السلسلة ولـكنه يحتاج إلى اصلاح وتفليح فلا يصلح هذا أن يكون سببا بل هو من العوارض والذى أراه يصلح سببا عاما جهلنا بأساليب الروايات وهى من الفنون الجميلة أضاعته الأمة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس إلى ما يراد منها والخياليات والروايات أعظم مايقود الأمم للترقى والنجاح وما تركنا هذا إلا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا قصرنا أفـكارنا وأضعنا أعمارنا فى استنباط الأحكام الفقهية التى بها نعبد وبها نحكم بين الناس مع أن كلا من العبادة الفقهية والاحكام بين الناس انما هى ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل إلى المعبود وهذا هو المقصود وإذا لم يحصل فهى قاصرة وهكذا الأحكام بين الناس ماشرعت إلا لفساد الأخلاق والمنازعات بين الأفراد وأرقى منها تهذيب أخلاقهم التى لايحتاج معها إلى تلك الأحكام ولا ريب أن فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس بالوعظ إلى الخالق يشوقها إلى الـكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هذا دعوى ولا بينة فهذا الفن يوصل لقرب من الخلق والخالق وهما نتائج جميع الديانات إذ الـكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والأحكام السلطانية أقرب إلى الخوف وصلاح النفوس وكلها بالحب وهما النهاية والحب أقوم الأمرين وأعدل الطريقتين وأعدل الحـكمين.

وهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الأنبياء والصالحين والملوك والفراعنة والجبابرة وذكرها فيه أكثر من ذكر الأحكام والعبادات اشارة إلى ما قلناه والروايات إما على ألسنة الحيوانات أو الجمادات أو الانسان وهذه الأخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والأولى إما أن تكون حقيقية أو غـير حقيقية ومن الحقيقية

قصص القرآن ومن غير الحقيقية مقامات الحريرى و بعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ومما جمع بينهما ألف ليله وليله ومما جاء على ألسنة الحيوانات كتاب كليله ودمنه وكثير من الكتب توضع على هيئة محاورة بين الجمادات ولكل وجهة هو موليها فما وضع على ألسنة الحيوانات والجمادات أسلم عاقبة وأنفع مما وضع على لسان الانسان بدون أصل لالتباس الحق بالباطل ولذلك كثر الخلط فى التاريخ بشيوع ألف ليله وليله ونحوه من كتب الروايات ما علمنا ومالم نعلم فلكونها على ألسنة الانسان اشتبه الحق بالباطل وفسدت العقول بعلم التاريخ لما يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لايجوز فاقتدى بهم كثير من أمراء الأندلس والشرق فضاعت الدول الاسلامية ولم يكن مثل هذا من كتاب كليله ودمنه الذي وضعه الهنود وترجمه الفرس فالذى على ألسنة الحيوانات لا خلط فيه فمثل رواياتنا جعلت لترقية العقول ولكنه نعم السير على بئس العير أما قصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الأنبياء ولم يكن فيها إلا الحث على كمال النفوس الانسانية

ولعمرى أن الناظر فيها يعجب جدا من اقتناص مارق و راق من تواريخ أولئك الأنبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب الأخلاق والعدل وحسن النظام مع أن حياة كل منهم فيها أمور متفرقة لاتنحصر فواعجبا لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل ولقد عرف من نزل عليه الناموس مغزى تلك القصص وهو الاعتبار فأباح الروايات على اختلاف أنواعها وقال عليه الصلاة والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالمقصود من الحكايات مصادرها لا مواردها لأن فى النفوس البشرية ميلا إلى الكمال والمحاسن بفطرتها وتلك الأقاصيص المروية عن بنى اسرائيل التى كان يحدثهم بها فى أغلب الليالى ولم يجعل عليهم حرجاً فيها إذ هى تحرك مافى النفوس من التحسين والتقبيح بالفطرة وأباح عليه الصلاة والسلام للأمة أن تأخذ الروايات من حيث هى حكم ومواعظ بقطع النظر عن موردها وانما المعتبر مضاربها كما قاله علماء البيان من أنها جميعها استعارات تمثيلية وقال تعالى (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ولهذا

شحنت كتب التفسير بروايات بنى اسرائيل وكان الصدر الأول يعرفون ماقلنا فخلف من بعدهم خلف غيروا ما بأنفسهم من العلم فتغيرت الأوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وأيوب ويوسف مما ذكر خارج القرآن فى الروايات أمورا محققه فضل البعض فيها والبعض كذبها وقال لا أصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون أن الأمة العربية قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المفتريات وهذه كلها من الانتكاس على الرأس وإتيان البيوت من غير أبوابها حتى زاد بعضهم فى الطين بلة ورجع إلى قصص القرآن وأخذ يطبقها على التاريخ وتارة يثبت وأخرى ينفى

ولعمرى أن قصص القرآن لم يكن القصد منها أن تأتى لتراجع على التاريخ وإنما القصد نتائجها والنظر فى عجائبها والانتفاع بها وأما النظر إلى أصل القصة فهو جهل وشك وإن كانت نفسها حقيقة ومتى عدل بالشىء عن قصده كان ضره أكثر من نفعه فساء مثلا القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله لاتضربوا القرآن بعضه ببعض .

النظر فى الروايات أمر طبيعى فى البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحى مجدهم فمهما عرفت الأمة أن القصد منها غاياتها فهى بخير ومهما رجعت إلى أصلها فهى ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الأول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وهاهى أمة الافرنج الآن لايزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون أنها خيالية ولعلها إذا مضت فترة من الزمن يأتى قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون أنهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا أن أسلافهم مخرفون فى كتاب ألف ليله وليله وغيره

ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن أن الكثير من المتعلمين أصبحوا لايلوون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل علماء الفقه أنفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط اليها لظنهم أن الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيما من ديننا

وبعض الناظرين فى تلك القصص يقول مالنا نراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساءمايفهمون أو ماعلموا أن القصة تذكر تارة تفصيلا وأخرى اجمالا وأخرى بين

ذلك بحسب المقامات واختلاف الأحوال وتباين الأغراض فيستشهد فى كل مقام بحسبه بحال من أحوال صاحب القصة ولنوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم إذ ذكرت فى سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الأصنام ثم البرهان بأفول الكواكب والقمر والشمس على مدبر الكون كله وفى سورة الأنبياء ذكر محاورة بينه و بين قومه فى الأصنام وتكسيرها وادخالهم له فى النار ونجاته منها وانعم الله عليه بعد ذلك فقال :ولقد آتينا ابراهيم رشده الآيات :

وذكرها فى سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطةفى الأصنام ثم شرع يصف الخالق وتدبيره فقال الذى خلقنى فهو يهدينى والذى هو الى أن قال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه انهم غاوون ؛

ففى المرة الأولى أرانا الحجج العقلية وفى الثانية كيف يكون أنعام الله على من نصب نفسه لنفع الامة وكيف يؤيده متى صدق فى نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فأشار إلى أن الخالق متى علم من عبد صدق نيته فى نفع أمة نجاه من الاعتداء ونصره وفى الثالثة ارانا كيف يكون الاخلاص لمدبر الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض فى الكلام لجلب الخصوم ومقامنا هذا لا يسع تفصيل القصص وأنتم أيها السادة خلاصة من الأمة فمثلكم من يكتفى بالقليل عن الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على أن فى تكرارها فوائدتعلم الأمة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة فى القرآن كمثل كتب تؤلف فى موضوع والنفس كثيرة السآمة فلا تكاد تثبت على حالة واحدة فاذا قرأت القصة فى موضوعين أو مواضع فى كتابين أو كتب كان لها أشوق وأثبت ولقد نعلم أن الأمم الغربية والشرقية يحيلون على المؤلفات فى تأليفاتهم فينشط القراء لها وهى من أجمل الحيل فى التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيرا من بنيان مجدنا وسبقنا اليه الغربيون

وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم نتفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحدة ويقص علينا موضعاً رائقا من قصة ابراهيم وهو قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى قوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الأمة وهى منفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل فى بناء البيت ودعائهما وانه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانية ومنهم من يأمر باليهودية وتغالى بعضهم فادعى ان أولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى فأمرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو التوحيد بالبرهان وأن النصرانية واليهودية أشبه بالفروع من الأصل و بينهما فرق فى الأعمال والاحكام لافى التوحيد والاعمال والاحكام تتغير بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو التوحيد ولا جرم ان كل أمة من الامم راضية عنه فالمرجع اليه أولى من الشقاق والانقسام

هذا هو مغزى تلك الآيات

ولعمر الله انها لم توضع فى القرآن لمجرد سرد حكاية وانما علم الله اننا سنقع فى هذا الانقسام فذكرها ليأتى قوم حكماء فيقلدون سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التى مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتى ويقولون أن علماء الأمة كأنبياء بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم كمثل أولئك الانبياء لابراهيم وكلهم مصدق بربه ونبيه وكتابه فوجب أن نترك المنافسة فى أمر الصحابة والخلفاء ، لأن هذا ليس من الدين فى شىء وانما هى أمور عارضة ليس لها دخل البتة ونتحد فى الامر العام وهو الخالق والقرآن والنبى وكل يعمل على شاكلته ولا ندخل الاشخاص والتشيع فى ديننا ونقول لمن يتعرض لأحد الأئمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء وأكابر الأمة . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه ، فمثل

الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالأنبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كابراهيم ودعوة نبينا لتابعي الأمم بتوحيد العقيدة مع الأمر باحترام جميع الأنبياء كدعوة حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لأحدهم من آل البيت أوغيرهم وتعظيم كل عظيم من عظماء الأمة فيقول آمنا بما أنزل الينا وأنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد فلم هذا الشقاق

ولقد علمت أن قصص ابراهيم جاءت لأمور كثيرة :

(١) برهان التوحيد

(٢) كيفية المحاجة و بيان صنع الله بمن صبر على الجهاد

(٣) كيفية الدعوى و إدخال النصيحة فى قالب الدعاء

(٤) كيف تجتمع العناصر المختلفة من الديانات المتفرقة

وغير ذلك مما لم نذكره وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الأنبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك الآفاق ككسرى وقيصر وغيرهما ومما كتبه الى هرقل عظيم الروم :

(و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

ومما يشير إلى هذه الطريقة قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) كأننا مأمورون بالدعوة لأصل الدين عند الانشقاق كما دعا صلى الله عليه وسلم الى اتباع الأنبياء ...نه عند اختلاف الديانات

مقاصد علم التاريخ

ومما تفيده تلك القصص من حيث الأسلوب أن يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد

وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الأمم الأخرى فاننا ما رأينا قصة فى القرآن ذكرت إلا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندى أن هذا أعظم معجزة إذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذاً مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر فى الله والرسل والمحاجات وتهذيب الأخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب العقاب فعلينا أن نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الأخبار وإذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وصل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص ويرجعها إلى التاريخ الأصلى كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصراً على ذلك فهؤلاء قوم ما علموا المقصود منه بل خرجوا به عن موضوعه وأتوا البيوت من غير أبوابها فلم يفلحوا

فباب القرآن ليس هو التعمق فى العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ ساء مثلا القوم الغافلون ولسنا بهذا نذم هذه العلوم فاننا ما عرفنا إلا بها وإنما قلنا أن المقصود وراءها لاهى فمن وقف عليها فهو الضال سواء السبيل .

فبى الجملة ففن الروايات فن جميل جهله المسلمون فى كتابهم فجهلوا ثمرته وغفلوا عن أفهام أسلافهم فيه وضلوا بما فى كتب التفسير من تلك الروايات عن الأنبياء ظناً منهم أنها حقيقية مع أنها خيالية وليس الحقيقى إلا ماجاء به لفظ القرآن منها فحسب

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث بها الحديث الليل كله لعلمه أن القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق ما بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وان هذه كلها استعارات تمثيلية ولقد سبقنا الغربيون اليه وضللناه .على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف فى القاهرة كسماع قصة عشق وماعلموا أنها مقصودة للعفة والصبر والاحسان إلى العشيرة والعفو عن المذنب عند القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن الشر وإكرام الأخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت قراءة القرآن بأوقات الأفراح والمآتم وما علموا أنها إنما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

البرهان والتقليد

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء إذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذى أراه أن هذه الأمة لم تتعمق إلا فى مسائل الأولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع أتنكر كرامات الأولياء فقال لا ولكنى أقرر ما خطر بنفسى فيها وما حكمتها فقالوا امض فى هذا الحديث فقال :

إن هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة علية فائقة ومنها أمر الدين . فأية أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان وإن سقطت أفكار أفرادها وتفرقت أهواء عقلائها فانهم لا يعرفونها إلا بخوارق العادات وقد أرسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجزله لأنه راجع الى العقل والفكر وهو الباقى لآخر الزمان أما تلك الخوارق فاذا توقف عليها إيمان الأمة دل على انحطاط أفكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعرانى وكان الله لما رأى سرعة شكهم أتى لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بأنهم ليسوا مستعدين للتصديق والإذعان بنفوسهم

وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمر وأبى بكر ونحوهما رضى الله عنهما والايمان المبنى على الخوارق وحدها ضعيف كما حققه الغزالى فى قوم موسى اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وذلك لأن عالم الشهادة والحس يكثر فيه الخطأ والغرور وعلى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً

ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله أن يجعل معجزات نبيه فى أفكارهم وعقولهم لا فى حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الأخذ بحسب الظاهر أو التخويف ولا ريب أن الخوف لا يدوم الاتعاظ والانزجار به انما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة

[illegible] قا صلى الله عليه وسلم (أناجيلهم فى صدرهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا ايماناً ولم [illegible] عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى

وبالجملة فأمتنا الآن تحتاج الى زيادة نور فى الايمان وتثبيت فى العقيدة وفهم للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين ويبنى على ذلك علو الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات ويعلمون أن التوحيد ليس أمراً بسيطاً فاذا بقى التوحيد فى القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا اعتقدنا ولم نقل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل فى البسائط ولم نخرج منها الى المركبات ونبقى عبرة للأمم وأول الدين أمر بسيط ونهايته سياسة

العلوم الرياضية والطبيعية

فقال العالم المتبحر فى العلوم أن هذا يصلح أن يكون من الأسباب الداعية لموت الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم منحصرة فى أمور جزئية ولاينظرون للكليات ولكنه لا يكفى وحده لعموم هذا الفتور

والذى يصلح أن يكون سبباً فى عموم هذا الفتور اهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها فى أصغر الصنائع وأدقها وأكبرها وأعظمها وليس احتياج الخياط لها أقل من مسيس حاجة مدير الكهرباء والبخار فى سير القطار وليس لزومها للماديات بأقل من لزومها للعقليات

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الأمم الغابرة تارة ويذكر حكم الكون أخرى وهذه العلوم قد أبانت فى الاكتشافات الحديثة مايدهش الحكماء من أعاجيب الخلقة وبدائع الحكمة فى الطبيعة والكيمياء وما فيهما من مقادير معينة فى المركبات وتناسب المقادير تناسباً عجيبا حتى انها سارية بقوانين لا تتعداها فاتضح بها قوله تعالى وكل شىء عنده بمقدار وقوله وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وقوله وهو أسرع الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذى خلق كل شىء فقدره تقديرا وقوله

الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شيء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر وقوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيره يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فلنقتصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال .

فقال له الأديب

ايضاح فى العلوم الطبيعية

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلا فان الاخوان كلهم آذان صاغية وأنى طالما كنت أقرأ فى كتب الأقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقادير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسباً تأليفية ويقولون انها أفضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثاً قد أوضحت الأشياء إيضاحا تاماً وأنت بها خبير فأوضح المقام وغرابته فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً فى الطبيعيات نشطت عقولهم من عقال الجهل الى حرية العلم

فقال إن العالم مركب من أجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هى التى وصل إليها الاستكشاف الآن وقد كان الأقدمون يعتبرون البسائط أربعة فقط وهى الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عند

...رسين والمراد بالعنصر مالايمكن تحليله إلى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة إلى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها إلا الزئبق وهى موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهربائية والحرارة إذا وصلت إليها أسرعت فيها كما تسرع النار الاشتعال فى الحطب وهى تلمع متى صقلت كما هو مشاهد فى النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الأقدمين كانوا يتخذون المراءات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التي ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الأحوال الثلاثة للمادة وهى الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالأحجار ومنها عنصر يسمى الاكسوجين وآخر يسمى الأدروجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء إلى أكسوجين وأدروجين ومن عجيب الاتقان أن كل عنصر له هيئة مخصوصة فالاكسوجين الذى هو أحد ركنى الماء جسم كثير الوجود فى الكون داخل فى الهواء والماء والصخور والأحجار فاذا انفصل منها صار جسما غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه ضغطا عظيما أو تبريده تبريداً شديداً وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان فى الماء وليس الاشتعال الذى نراه فى غاز الاستصباح والبترول والزيت إلا من اتحاد عناصر هذه الأجسام وإذا اتحد معه الأودروجين صار ماء طهورا والأودروجين اسم مشتق من كلمتين يونانيتين معناهما المولد للماء ووجوده على حالة الانفراد نادر جدا ولكنه كثير الوجود فى الكون على حالة الاتحاد فى الماء والمواد العضوية الحيوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه ضغطاً قوياً وبتبريده تبريداً شديدا وهو أخف الأجسام المعروفة يلتهب بلهيب باهت قليل النور شديد الحرارة وإذا وضع فيه جسم متقد ناراً ينطفىء بسرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق ولا للتنفس فاذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود أكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات الاكسوجين وذلك انه إذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً حلزونياً وفى طرفه قطعة من الصوفان متقدة فان السلك يلتهب

وينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها إلى درجة الاحمرار وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الأكسوجين

وبالجملة فالأكسوجين والأدروجين مختلفا الصفة فالأول يحرق والثانى يطفى والأول حار جداً والثانى بارد جداً والأول يتجه عند تحليله إلى القطب الموجب فتكون كهربائيته سالبة والثانى إلى القطب السالب فتكون كهربائيته موجبة فان الأجسام المكهربة تطلب أضدادها دائماً

فتأملوا أيها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين الجسمين مع بعضهما وهما متنافران متضادان فى الصفات فكونا شيئاً واحداً آخذاً صفات متوسطة وهى الماء الذى جعله الله حياة كل حى وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من ذكر وأنثى وباتحادهما دام الوجود

وما ذكرت هذا إلا مثالا واحداً لتعلموا أن كل جسم فى الكون سار على هذا النسق أفراداً وتركيباً واختلافاً وائتلافاً . ولأذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف ظهر هذا السر ووافق المعقول المنقول لتقيسوا عليه جميع المقادير فى الكمياء فإن جميع التراكيب فى الكمياء تنقاد لقانونين القانون الأول قانون (المقادير المحدودة) وهو أن نسبة مقادير الأجسام المركبة لبعضها تكون ثابتة لاتتغير وبعبارة أخرى أن اتحاد الأجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل حركة .

القانون الثانى قانون النسب المتضاعفة ويسمى قانون دالتون وهو (إذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات فلو بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة) .

ولنوضح القانون الأول فى مثالنا وهو الماء فنقول :

إن الماء مركب من ذرة واحدة من الأكسوجين وذرتين من الأدروجين فإذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة فى تركيبه من الأكسوجين نصف الذرات الداخلة فيه من الأدروجين فأي مقدار من الماء حللناه وجدناه هكذا الثلث فى الحجم أكسوجين

والثلثان ٍدروجين وفى الوزن نجد أن ذرة الأ كسوجين (الذرة عندهم هى أصغر جزء وصل إليه العنصر) قدر ذرة الأودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الأكسوجين معها ذرتان من الادروجين وحينئذ يكون نسبة الأكسوجين إلى الادروجين كنسبة ثمانية إلى واحد

وحينئذ يقال :

١ : ٨ : : ٢ : ١٦ : : ٣ : ٢٤ : : ٤ : ٣٢ : : ٥ : ٤٠ وهكذا إلى مالايتناهى من مياه الارض جميعها وهذه نسبة هندسية وبالنظر لمقادير أحدهما وحده تكون نسبة عدديه فكأن العنصرين لم يتحدا إلا على نسبة عددية ونسبة هندسية معاً وهذه القاعدة كما قلنا سارية فى الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرها الذى ذكره الله فى القرآن حتى أن الماء لو دخل فيه ذرة من الايدروجين مثلا زائدة عن هذه النسبة فانهلا يقبلها كما يشاهد فى العمليات الكيماوية فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يا نبى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله)

فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا أن جميع الذرات فى الصخر وجميع الأجسام لايمكن أن تختل عن مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (إن الله لطيف خبير) مشيراً إلى اللطف فى التدبير ومعرفة بواطن الأشياء فهذا وأمثاله يفهم آيات القرآن . وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هذا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين وإنما قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر مع أن الذرة لم يمكنهم تحليلها

إلى أقل منها لأن علماء الغرب لايزالون يقولون أن الذرة تقبل التحليل الذى لم تصل إليه .

فهذا هو الميزان السارى فى الكون كله ، و بهذا وأمثاله نفهم قول قدمائنا أن الحب سار فى الموجودات كلها وقولهم أن بين الكائنات نسبة محفوظة وهذه النسب بعينها كنسب الحروف السواكن والمتحركات فى علم الشعر وعلم الموسيقى فانهما من واد واحد كالمقادير الكيماوية فان بحر الوافر مثلا وزنه مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن نسبة عدد الأسباب فيه إلى الاوتار كنسبة ١٠ إلى ٦ وفى نصفه كنسبة ٥ إلى ٣ فهى نسبة هندسية منفصلة وما فيه من العلل والزحافات فهى كمرض فى جسم الحيوان

و إذا نسبنا الاسباب لبعضها والاوتاد كذلك كانت نسبة عددية . ٣ : ٦ : ٩ : ١٢ وهكذا أو ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ وهكذا أى فى شطر وشطرين وثلاثة وهكذا ، ونسبة السواكن إلى المتحركات كنسبة ٦ إلى ١٣ فنقول الشطر فيه ستة حروف سواكن و١٣ حرفاً متحركا ونقول ٦ ١٣ : ١٢ : ٢٦ : ٢٤ . ٥٢ فهى هندسية و إذا نسبنا السواكن إلى بعضها والمتحركات كذلك كانت نسبة عددية ، وهكذا جميع أوزان الشعر .

فيظهر أن مقادير الكيمياء هندسية حسابية كمقادير أوزان الشعر ومثلها الموسيقى أيضاً واكتفينا عن الكلام فيها بالشعر لأنهما من أوزان متقاربة جداً موضوعة على هذه النسب المحددة وما أشبه هذه المقادير المتناسبة بمقادير حساب الكواكب الجارية فانها كلها تجرى بحساب متقن .

وكل هذا الكون جار على مثل هذه النواميس ، وكم من عاقل ينظر فى ميزان القبان ولا يعلم أنه موضوع بنسبة هندسية حسابية عرفها أهل تلك الصناعة حتى أن نسبة الذراع القصير إلى الذراع الطويل كنسبة الرمانة إلى ما يوزن معادلا لها وهكذا السفينتان العائمتان على وجه الماء نسبة وزن إحداها إلى وزن الأخرى كنسبة الفراغ الذى شغلته إحداها فى الماء إلى الفراغ الذى شغلته الأخرى أو كنسبة وزن الماء

الذي أزاحته إحداها إلى الذى أزاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التي يتوالى تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هـذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان)

فها نحن من هذه العلوم أصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كأنه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق

ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى أصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى

(وكاى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

وإنى أعوذ بالله أن نقول أن قلوبنا غلف كما قال اليهود لصاحب شرعنا فحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين

ولقد عرف علماء الغرب أن جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائما حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة وإذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون أصواتها لذيذة إذا صفت النفوس وخاصة من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث أن العالم مركب من موسيقى . وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو أن الموسيقى لايقصد بها إلا النسب المحدودة المذكورة آنفاً وإنما ذكرت الموسيقى لأنها أظهر منها وأسهل وأوضح

وأما المركبات العنصرية فهى صعبة الفهم على غير المتعلمين وإذ فرغنا من ذكر القانون الأول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الأزوت بالأكسوجين فانه يكون خمس مركبات الأول يحتوى على ١٤ من الأوزوت و١٦ من الأكسوجين والثانى على ١٤ من الأوزوت و ١٦ × ٢ من الأكسوجين ، والثالث على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٣ والرابع على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٤ من الأكسوجين والخامس على ١٤ من الأزوت و١٦ × ٥ من الأكسوجين

فنسبة مقادير الأزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الأكسوجين لبعضها عددية لأنه يزيد ١٦ دائما ونسبة مقادير الأوزوت فى كل واحد من المركبات إلى الاكسجين تكون هندسية ولأكتف بهذا القدر فانى أطنبت فيه لما أرى من تخاذل عقلائنا وخاصتنا وعامتنا فى العلوم ، وظنهم أنها تخالف الشريعة مع أنها هى سرها وخلاصتها إذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ، ذقنا الطعم وشممنا الريح وسمعنا الصوت وأبصرنا الكون ولمسنا النعومة مثلا فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لاتقبله

فالسمع إنما يلتذ بما كان على تلك النسبة فى الشعر وبقية الحواس لايلذ لها إلا ما كان بتلك المقادير المتناسبة فى تركيب المركبات (إن ربك هو الخلاق العليم) ، وليس القبول وعدمه الا الحب أو البغض ومنه تبت أن العشق سار فى الكون كله وأنه تابع للحساب والهندسة بل أضحى المسلمون محتاجين الى الحكمة العقلية التى كادت تجعل الغربيين أدرى منا بكل حسى حتى ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين عقلا وأخلاقا وكاثباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية وعندى أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون فى هذا الفتور

والأمل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير أو طويل أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بل يجلبوا إلى دينهم العالم المتمدين لأن نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن دياناتهم يقربهم من الاسلامية لأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لايجتمعان فى دماغ واحد ، ثم أن تبعة التقصير تشمل علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الأوروبيين أكثر اثما وأشد عذابا بتقصيرهم وقتصارهم على تدريس شيء من اللغة والفقه وقطع من المنطق مطلمة متلبسة غير مستعمله وشيء من الحساب إ كالا للفرائض والمواريث تدريسا غير مرتب قلما يفيد ، فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسؤولون يوم القيامة عن هذه الأمة وضياعها ووقوعها فى شرك الردى والهوان لتركهم البحث فى الأحوال الحاضرة والعلوم النافعة فى هذا العصر .

وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالأولون مقتصرون على حكايات الزهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الانجاب والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد فى الحفلات والترنمات ولا تنس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات فى الدعاء للغزاة والمجاهدين وتعداد فضائل العبادات .

وبالاجمال فابتعادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا فى جانب عظيم من الجهل هو الذى جعلنا أحط الامم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان والحيوان ، والنتيجة أن ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

فقال المجتهد هذا يعد سبباً فى الانحطاط ولكنه لايكفى وحده لهذا الانحطاط العام ، وفقد الاحساس الملى ، والاخلاق الفاضلة ، والذى أراه يصلح سبباً لذلك أننا كنا قادة للامم سادة هداة فاغتررنا ونمنا آمنين مطمئنين وتنبه غيرنا ونحن لانشعر وسبقونا ونحن لاندرى حتى اذا تيقظنا من كهفنا رأينا الشوط بعيداً فيئسنا من المباراة واليأس أعظم مسقط للأمم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المباراة واللحاق للامم الراقية واليأس فى الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عز وجل فى الوجود وجهل به وأى كفر أطم وأعم من جهل الوجود وما حواه ، فقال السائح هذه شكاية حال ولا تفى بالغرض ولا توضح السبب .

وما المسلمون بالأبعدين كأهل الصين ولا المتوحشين العريقين فى التوحش كأهل أمريكا الأصليين .

والذى عندى اننا فقدنا الهداة والمرشدين والأكابر المصلحين فلم نجد أميراً يدخل الأمة فى حكمه آخذا بخطام الرغبة أو سائقا بسوط الرهبة ولا حكيما معترفاً بفضله ولا تربية متحدة المبادىء فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسعى للخير ولذلك حل فينا الفتور وإلى الله ترجع الأمور . فقال التاجر

إن ما ذكرته من الآمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان في الأمم المنحطة إلا اتفاقاً وأما الرأى العام والجمعيات فلا يفقدان إلا بفقد الاحساس العام وهذا ما نتساءل عنه

ثم قال والذى أراه أن الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الأكبر فى جهلنا وفساد أخلاقنا وتشتت آرائنا حتى فى ديننا وفقد احساسنا وهكذا من كل ماحل بنا

هذه قطرنا لا نقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم ومخارنا قديم فلا ينقصنا من الأمم الحية غير القوة المالية التى أصبحت لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقعنا فى مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهى لا تحصل إلا بالمال والمال لا يكون إلا بالعلوم وهذا الدور إن لم نهتد لحله دخلنا فى قانون فناء الضعيف فى جانب القوى من قانون الارتقاء

تنازع البقاء

فقال الفقيه اشرح لنا تنازع البقاء وأفض فيه أيها الفاضل فانك مغوار في البحث

فقال : اعلموا اخوانى إن هذا الكون مؤسس على أن الأقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالانسان بل هذا حكم سار فى النبات والحيوان والصنائع فالنبات الأقوى يغلب الأضعف متى تجاورا فمتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه وتمت فى تربة وحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة أخرى وهكذا مرارا لا يبقى منها إلا أقواها وأوفقها للأرض وأكثرها تحملا للحوادث الجوية ولو تنازع نباتان فى قفر لما بقى إلا أقواها على احتمال القيظ كما لا يفوز بالبقاء فى زمن القحط إلا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره ابن خلدون . وأما الحيوانات المنفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فأمثلتها كثيرة إذ رأوا أن الخيل والبقر الوحشية التى تسرح قطعانا لا يحصى عددها فى سهول أمريكا الجنوبية الواسعة نما أصلها عدد قليل أتاها من أوروبا يوم غزوة الاسبانيول وقد قدر بعضهم عدد الخيل الوحشية فى سهول بلادها الواسعة بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات

والحيوانات التى أدخلت من أورو با إلى استراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطى الأرض هناك وفازت فى الأرض بالبقاء ولا يخفى أن الذى يفوز بالبقاء على ماسواه انما هو ما تميز بصفات جسدية أو عقلية تجعل له هذا الفوز .

وهذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون فى الإقدام أو القوة أو كبر القد أو صغره أو وسائط الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير فى تحصيل القوت أو الحكمة فى اتقاء الشر و بعض الحيوان يفيده لونه كالجمل الأبيض والدب الأبيض اللذين يقطنان فى الجهات القطبية المغطاة بالثلج دائما وكذلك الذباب الأخضر الذى يعيش على أوراق النبات و بعضها بفروه الذى يتلبد إذا أقبل الشتاء و بعضها بسرعته فى الهرب أو شدته فى القتال .

ثم لتعلموا أيها الأخوان أن التنازع إنما يكون بين الأنواع الأقرب بعضها إلى بعض لاشترا كها فى المتنازع عليه ويقل كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة ضعفت عن مقاومة أخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث فى التنازع صورا تناسب التغييرات الحاصلة فى أحوال الحياة فتجعلها أقوى وكل صورة غابت لاتعود أبداً إذلا تعود قادرة على الثبات فى التنازع و إذا أردت مثالا زيادة عما تقدم فهناك بلاد هولاندا الجديدة (استراليا) فان هذا القسم لانعزاله عن العالم مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة جداً فأعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذى عاش فى أورو با فى الدور الذنى وتلاشى لتغلب أنواع أخرى عليه أقوى وأكمل وإنما بقى مثل هذا الحيوان فى استراليا إلى يومنا هذا ولم يضمحل لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكليز أخذ كل ما فيها فى التلاشى حتى كاد يضمحل لعدم صبره على منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع أن حيوانات ونباتات استراليا أمكنها أن تتأصل فى أورو با .

فمن هذه الأمثلة التى رأيتها فى كتاب لويز بخنر الألمانى المترجم إلى اللغة العربية تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات أورو با وحيواناتها على نبات وحيوان

فارتى أستراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات أن تقف أمام هذه التى دخلت عليها

غلبة الرجال

وليست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فأصبح الأوربى هو العنصر الوحيد فى أمريكا أما أهلها الأصليون فأصبحوا آلافا معدودة بعد ان كانوا ملايين فانقرض جُلهم ودخل بعضهم فى العنصر الأقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود فى استراليا يقل أمام الجيش الجارف من أوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الأضعف فى الأقوى

كما فنى المسلمون السابقون فى الأمم التتارية الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم وأخربوها وملكوا ديارهم وأموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم أغلب المسلمين اليوم فى الهند والصين ومنهم تكونت أغلب أمم أوروبا الآن فقد تكاثر دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم فى القرن السابع من الهجرة واغتالوا الروسيا وقد تغلبوا من قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فهم هذا العنصر كما أثبتناه فى كتابنا هذا

فهم بقايا يأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حدب ينسلون

غلبة الآلات والصنائع

ومن العجيب أن الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت أيضاً الى الآلات فها نحن نشاهد فى بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوفنا تلك الآلات القديمة الضعيفة وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف أمام القوى أم كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى(وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) وقال تعالى(يريد

الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) وقال تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث)وهكذا غلب وابور حرثهم محراثنا

بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهائم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهرا ولا دليل أقوى من العيان

وما عليكم الا أن تنظروا نظرة واحدة تروا الأمر واضحاً جلياًفى مراعينا و بيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفى الزراعة وتربية المواشى وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطبخهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبورنا واضحى تجارهم أقوى من تجارنا ومربيتهم أقوى من مربيتنا وسياويهم أقدرمن سياوينا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيرا على النفوس فى دينهم من رؤساء ديننا فى نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمة دينية وسياسية وتجارية وصناعية حتى جمالهم أرقى من جمالنا فغلبوا ذاتاً وصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان فى ذلك لعبرة لمن يرى وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا فى الصفات النفيسة كالصدق والأمانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا فى دينه كما أخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الأقطار

فهذا يا قوم معنى فناء الضعيف فى جانب القوى وهذه سنة فى الكون سارية فيه لا تتجاوزه . فكل أمة تمسكت بالقديم حداً من الأعمال ولم تحسنه ولم تبادرالى الاعمال شخل الجديد عليه فأباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو فى شأن فأية أمة وقفت على قديمها ولم تعبأ بما طرأ ولم تغير الأساليب حسب الزمان أهلكها الله وهذا هو السر فى أمره تعالى بالسير فى الأرض لنعلم أن الكون متغير دائما

والسير فى الأرض يهدى الانسان الى كل ما حدث وعندى أن السير فى الارض لآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركهما اثم كبير بل هو أضر على الأمة من كل معصية هذا هو اجمال ما نعلمه من الكلام على فناء الضعيف فى جانب القوى وناموس

الارتقاء وهذا وان لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة الفاضل الفقيه

ولنرجع الى مبحثنا الأصلى فى أن السبب فى ضعف الأمة هو فقرها وهو أصل كل تأخر مادياً وأدبياً فقد سبقونا فى كل ما سمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات بالمال والغنى وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا بحل هذا الدور المشكل حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال للتدرج فى العلوم حتى للسياحات البحرية الى الجهات القطبية لأن فريضة الزكاة على مالكى النصاب والكفارات جاعلة لفقراء الأمة و بعض المصاريف العمومية نصيبا غير قليل فى مال الأغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا الفقر . وعاشوا عيشة الاشتراك العمومى الذى يسعى لأمثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسيالست (الاجتماعيون) والنيهليست (العدميون) وهم يريدون اعدام البشر لأنه أصبح فى نظرهم شرورا وقبائح تحب ابادته والكوموبولست (الاشتراكيون)

فكل هؤلاء يسعون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومى فى المال وهم وان اختلفت أغراضهم ظاهراً فباطنهم إرادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون التساوى أو التقارب فى الأموال وملوكهم وأغنياؤهم أحبوا الاختصاص والشرع الاسلامى جاء طريقا وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

فتعطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهى أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه عند الحصاد أو حولان الحول فى السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون فقراء وإنما هم لم يحسنوا التصرف فى المال .

الاجتماعات

والذى أراه يصلح سبباً حقيقيا لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مفاوضة سياسية فعدموا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم الوعظ والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما أن علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم التحدث فى الأمور العامة والخوض فيها من اللغو الذى لا يجوز وربما اعتبروه من التجسس أو السعى بالفساد فسرى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء ، وصار كل واحد لايهمه إلا حظ نفسه وحفظ حياته فى يومه كأنه خلق أمة واحدة ويموت غداً جاهلا ان له على الجامعة الاسلامية والجامعة البشرية حقوقا وأن لها عليه مثلها ذاهلا عن أنه مدنى بالطبع لايعيش إلا بالاشتراك ناسيا أوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الأمة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الأفراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه إصلاح

والعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضا دينيا لازما ومضى زمان طويل فنسوا المقصود منها

ولعمرى أن هذه الأمة محتاجة الى رجال مجددين للنهضة مقررين ومشوقين الى علوم القرآن فى قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله)ولاتكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قسوتها إلا من عدم معرفة الحكمة فى المشروع لنعمل للعرض المطلوب

أما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقا واحتالوا بحيل الاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى . فيخصصون أياما

لذكرى مهمات الأعمال لأعاظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون في مدنهم ساحات ومنتديات يسهل الاجتماع ويكثر القاء الخطب وإبداء المظاهرات ويكثرون من المتنزهات الزاهية العمومية ويجرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات ومنها اعدادهم فى التشخيص أماكن بقصد اراءة العبر واسترعاء الاسماع للحكم أو لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شبا كا لمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها أكثر من ضرها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم الملية المفصلة المدبجة بالعلل والأسباب تمكينا لحب الجنسية .

ويحرصون على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . ويقيمون النصب المذكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة وينشرون فى الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية وينشدون الأغانى الوطنية المهيجة للشعب الى الحمية الوطنية

فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شباكا للاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يغنيهم عن مثل هذه وترانا فى مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد أصبحت أماكن اجتماعنا للفجور والفسق لاغير والأبرة الخديوية بات ضرها أكثر من نفعها وهذه تواريخنا مصمتة مقفلة ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس فى القوم شعور بأنها آثار آبائهم الأولين وأقمنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع بأسنا بيننا وأن قلوبنا شتى . أما الجرائد فعندنا منها جملة صالحة والأغانى الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا فى اجتماعات الغربيين ولم نصن الأول ولم نعرف الثانى فخسرنا الصفقتين ورجعنا بخفى حنين

فأجابه الحكيم أن هذا بالدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه

ثم قال والذى أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامة وذلك انه ما من أمة من الأمم الا وجرت العادة أن يكون فيها حكماء يرشدون

العلماء فالأمراء فالعامة وهم الوارثون حقا للانبياء وهم المسمون بأهل الحل والعقد وهم الذين كانت تنعقد بهم الامامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال : (وشاورهم فى الأمر) وشاورهم أول خلفائه الراشدين رضى الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى أمية فكانوا يتبعون مشورة سراة المؤمنين لاسيما بنى أمية

وهذا صدر دولة العباسيين كانوا مذعنين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدى سبا .

وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هى حالة كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد فى المسلمين إلا كمثل الأشراف ومجالس النواب فى الحكومات المقيدة ومقام الأسرة الملوكية التى لها حق السيطرة على الملوك فى الحكومات المطلقة كالروسيا والصين ومقام شيوخ الافخاذ فى أمراء العشائر الغربية فأولئك الأمراء ليس لهم من الأمر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ وبالجملة ففقد الحكماء فى الملة الاسلامية هو السبب الأعظم فى هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الآن ينقسمون ثلاثة أقسام قسم فيهم حكماء ينصحون وهم فى الصين وقسم فيه حكماء مسيطرون وهى فارس وقسم ليس فيه حكماء أو فيه وهم متروكون وهى بقية البلاد ما عدا القليل منها كبعض من نبغوا فى مصر .

فأجابه السائح قائلا

ان فقد الحكماء لايصلح سببا عاما وهذه الصين كم فيها من الحكماء وهم لايخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لاتزال ترى الفتور شاملا لهم

والذى أراه يصلح سبباً عاما أمران ترك أمور كثيرة فى الدين وزيادات بدع فيه فالزيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

ألم تروا أن إخراج الزكاة وإعداد القوة ما استطعنا صارتا منبوذتين الآن أليس

غلاة الصوفية وجهلاؤهم اخترعوا أناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وتهاونوا بالفروض الأصلية فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من أمور دينه ويضل فى الفروع الكثيرة فأجابه العالم قائلا :

وما للدين والانحطاط فى شؤون الحياة الدنيا فاذا حصل تشديد فى الدين أو تنويع فى طرق العبادات أو بدع مستحدثه فكيف تؤثر على شئون الحياة الدنيا مع أن الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهؤلاء معاصرونا من الغربيين بالغوا فى هذا حتى ظن بعض حكمائهم أن مدنيتهم لم يستقم أمرها إلا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا .

فقال السائح :

اعلموا أن سير نوع الانسان فى أعمال الحياة الدنيا كله تعاريج وضرر وآلام ونصب إذ الحياة جارية على تنازع البقاء والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مر العيش وكدر الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلابد لها من ناموس يخفف وطأتها ولا يكون ذلك إلا الاعتقاد بأمر عام شريف يعم سكان سطح الكرة كلها كما أن الانسانية مشتركة بينهم

وهكذا المادة تتنوع الى صور كثيرة وهى فى الحقيقة واحدة فهكذا نوع الانسان مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو الاعتقاد بقوة غالبة عالية تتصرف فى الكائنات بنظام محدود يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعة) والمهتدى الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا فى المعيشة لابد لهم من قانون يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب أحوالهم المعاشية وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لابد أن يجرى على مقتضاه وإلا كان وحشيا منفوراً منه .

فهكذا كل أمة مع الأمم المجاورة لها على سطح الكرة أرضية لابد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما اشترك فيه الأفراد وأبسط إلا وهو الاعتقاد

بالغالب القاهر المتصرف فى العالم على أبدع نظام وإلا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم أن هذا الاعتقاد لابد منه للافراد والأمم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس الى التساوى والانصاف فى الحقوق والرجوع الى الحق وإلا اهلكوا أو ضلوا وصارت الحياة أشق شىء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لامبدل لكلماته فكل فرد وأمة أعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل فى الحياة الدنيا وساءت عقباها

واذا دققنا فى حال جميع الديانات التى ينزل بها الرسل الكرام نجدها فى مبدأ أمرها بسيطة سهلة تقود الى الخير فاذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطية الدمار والخراب فاما أن تبقى على ما هى عليه فتصير الى الخراب والدمار واما أن يرسل الله لها حكماء يهدون الناس ويجددون ما اندرس ويحترفون ما ابتدع فترجع الى مجدها وسابق عزها فاذا لم يتداركوها هلكت أو اندمجت فى أمة أخرى

وذلك كما حصل فى كنعان وبنى اسرائيل فقد كانت تتوالى فيهم الرسل المنذرون والمبشرون كما قصه الله فى القرآن فترجع مدنيتهم زاهية زاهرة

وكما حصل فى عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم فانهم بادوا بالاهلاك العام

وبالجملة فقد وضح ان الأمم كما انه يجمعها نوع واحد وهو الانسان جمعها فكر واحد فى الدين وهو مدبر الكون المعبرعنه بالعبارات المختلفة وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والحاميون واليافيثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف

الأنبياء والأزمان والأمكنة فتطابق الخلق والأمر (ألاَ لهُ الخلقُ والأمرُ تبارك الله ربّ العالمين)

واعلم أن الايمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع لنمو المدنية وتقدم الحضارة اذ هذه مع غموضها على العقول كلف العقلاء بمعرفتها بالبراهين وهى صعبة المرام جدا فكأنهم ألزموا أن يدرسوا هذا العالم درساً صحيحاً ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد فحص الكون من علويات وسفليات وينتفعون بذلك فى دنياهم

فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى فى المدنية والحضارة داعية الى التقدم السريع فى الماديات والأدبيات بل مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء المتقدمين عن علم الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الى المطلوب والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة فى الطب والزراعة والبيطرة وغيرها

أيها الاخوان ما ذا ترون فى هذه العجائب فلولا بحث الأقدمين عن الذهب ما وصل المتأخرون الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم وشيث فى كلام الأقدمين وانه علمه الكيمياء

فمن هنا عرفنا كيف كان البحث بالبراهين العقلية فى الله واليوم الآخر هو السبب الوحيد فى ترقى الأفكار وتمدين الأمم واثارة الخواطر وقيام الناس من رقدة الجهالة ولذلك لا نرى أمة إلا ودرست الرياضيات ثم الطبيعيات وأعقبت ذلك كله بالالهيات وأدخلت فيها الملائكة والأرواح وأعقبت ذلك كله بالسياسة والأخلاق فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان فى تمدينه الى الايمان بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد جعلوا العلوم جميعها أنواعا وأصنافا متفرقة مختلفة المشارب والأذواق وكل علم يبحث عن شىء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحته فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهى الالهيات عند اليونان والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الأوروباويين كما رجعت الدول لنوع الانسان

ورجعت العناية الى مدبر الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لأصل واحد
[illegible]

والذى يهمنا من ذلك كله ملوك الاسلام وأمراؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة الباهرة فيكون لكل قوم منهم أمور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هى طبيعة الكون ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الأمم الاسلامية فى جميع الكرة الأرضية فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصرى كتب الفارسى والفارسى كتب المصرى وهم جميعا كتب التركى والثلاثة تأليف الهندى وبالعكس وهكذا

ويتعارف العلماء بالأفكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هى السر الوحيد والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم فى أقطار المسكونة فليبشروا بخراب عام وقيامة تقوم عليهم وحدهم ويخلون الأرض لله يورثها من يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصا بالآخرة بل هو فى الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان أبوا فجزاؤهم ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء فى التواصل وليتحدوا على التعاون والا عوقب كل فرد بالاثم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد ساروا على الناموس الالهى فى الكون ونهجوا منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهية وهذه هى حدود الله (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

فتكون أمم الاسلام راجعة لأصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه عام فيكون الهندى مع الصينى مع المصرى كالألمانى مع الفرنساوى مع الانكليزى كرجوع العقائد والعلوم والأجسام وأمم نوع الانسان وأسرات المملكه وفروع الشجرة وأوراقها إلى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو الأثير والانسان ورب

المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هذا الملك متشابه يشبه بعضه بعضا والوحدة هى السر السارى فيه فبقدر ظهورها يتم و بقدر اختفائها يكون نقصه .

وها أنا أيها الاخوان أوضحت هـذا المقام وهو حكمة الإيمان بما غاب عنا من الإله وملائكته و إلى هذا المبحث أشار الله فى أول مرة من الـكتاب المبين وهى : (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك و بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فانظروا إخوانى كيف كانت آية فى القرآن من حيث التلاوة نهاية ماتصل إليه المدنية فى كل أمة .

فالايمانُ بالله والمجردات أول العـلوم ومنتهاها ومبدؤها ونهايتها (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم)

لاغنى للمدنية عنه و إن تظاهر قوم بضد هـذا أمام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم إلى التفرق وهم متحدون فليتدبر المسلمون ان كانوا يعقلون .

فقال الحكيم إن هذا من أهم الأسباب و بواعث الانحطاط ولـكنه وحده ليس سبباً لـكل مانحن فيه من هـذا السقوط السبب الوحيد فى ذلك قصر نظر الأفراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانقباض عن المـكاسب والرضى بالذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

فالأمم إذا هانت ونبذت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يرونه وأعظموا الأمور التى يشاهدونها وعجزوا عجزاً صراحا وأضحوا فى انحطاط وخمود وفى الحديث القدسى أنا عند ظن عبدى بى وفى التنزيل (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وفى الحديث النبوى ومن أراد الخير يعطه ومن توق الشر يوقه فـكل من كان أقدم على الأمور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد فى الدنيا

ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وأنه رآها تأكل فاكهة الشتاء صيفاً وبالعكس فتمنى أن يكون له ولد له صفات كصفاتها وكان فى المحراب فجاءته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيى مصدقا بكلمة من الله وهى أيضاً صدقت بكلمات ربها (وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحصوراً) لايأتى لنساء وهى أيضاً كذلك لايقربها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهى كانت من الصالحين وقيل بنبوتها فانظروا كيف جاء المتمنى حين صوره فى نفسه جازما به وبالجملة فمعرفة أفراد الأمة أقدار أنفسهم وشرفهم هو الذى يعلى شأنهم ولايصل بالأمة أوج المعالى سوى تثبيت هذه الفكرة فى أذهانهم ولذلك لما كان بنو اسرائيل مستعبدين بين المصريين وأرسل الله سيدنا موسى لهم فأول فكرة بثها فيهم أنهم أفضل العالمين فقال: (وإنى فضلتكم على العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لابد من العمل التابع أردف هذا بأن أضلهم فى التيه حتى باد الجيل المستعبد المتمرن على الذل والانقياد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش فى مدة الأربعين التى مضت فى التيه فأمكنهم فتح قرية الجبارين فهذه سنة الله فى الأمم التى يريد ارتقاءها وما من أمة حية إلا وتجد هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون أن سواهم أحق بأن يكونوا عبيداً لهم ألا ترى أن أمة انكلترا ذكر فى قانونهم أن الدم الانكليزى أشرف الدماء فلا يراق إلا لأشرف المطالب . وقام بسمارك فى ألمانيا خطيبا وقال نحن الالمانيين لا نخشى إلا الله وجاء فى القرآن قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ، وقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

فإذن يجب على علماء الأمة وشعرائها أن يوقدوا فى نفوس أفرادها نار الغيرة وشرف النفس

فأجابه العالم قائلا أن المتعلم الذى قرأ علوم الإسلام يرى من أساتذته ومحادثتهم

ومحاورتهم فى تقطيب جباههم ما ينفره ويصغر فى عينه كل أمة من الأمم عند ذكر أمتنا فنحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا إلا أن يعرف الشبان وجوه المطالب وتترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من أخلاق الانسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الأعداء والاعتقاد وطلب التفكر وحوز العلوم والجهاد والصلاة والصيام والحج والزكاة والمبايعات وغير ذلك .

فلو أن كل فريق من الناس كالشجعان فى الحروب والأطباء فى المستشفيات والأغنياء حفظوا آيات فى النوع الذى هم بصدده لكان ذلك داعيا للإقدام على الأعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم والغنى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولاخلة ولا شفاعة والطبيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وهكذا مما لايحتمله المقام

ولقد ألف الشيخ الغزالى كتاباً فى بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية فى تهذيب الأخلاق ومثلها فى النظر فى ملكوت السموات والأرض

واقد علمت أن أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم على ماهم بصدده .

ولقد سمعت ممن اثق به أن أحد مدرسى مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون أن أهل مصر لايلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم . أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) حكيم باسنا إذ الوضوء فى الأوقات الخمس والمحفطة على النظافة فى هذا الدين تنبذ جميع الأمراض بالكلية وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذى أوجب الأمراض

ومن العجيب ان الله يأمر بالنظافة لأجل الصلاة وقد أراد أن تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون ولا يتم ذلك إلا إذا عرف كل قوم الآيات الدالة على ماهم بصدده وهكذا قال بنتام الانكليزى أن المحافظة على نطام الدين الاسلامى توجب

عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضا لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر أن النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والرذائل فلله شريعة سمحاء جهلها الأقربون وعرفها الأبعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة أن تتعلم القدر الضروري المشترك بين الجميع. كآيات العبادات بأنواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وبعقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكام قراءة القرآن فى الأماكن التى لاتليق وعلى المقابر ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى فى أذهان القارئين وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرأه وهكذا حتى تشب الأمة على مبادىء الدين

خاتمة

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال ياقوم انى تأملت ما دار بينكم فألفيته بمع شتات المسائل وخلاصة الأسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح و بهجة السعادات بنظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا ، صغير أو كبير مما أفضتم فى شرحه اليوم واصبروا على الأعمال صبر أولى العزم يأيها لذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا مد وآله وصحبه والتابعين م؟

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والأمم وهو نهاية الكتاب)



تقريظ

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما وأول اسمى منشئيهما الفاضلين

الأولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علما الأزهر الشريف ووكيل الأزهر سابقا فاستحسنا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب التسعة ولصدورها من صديق للمؤلف حميم قال حفظه الله :

اذا قيل من أذكى فؤادا	وأدرى بالحقائق فى الرجال
وأصفى جوهراً وأعز نفساً	أقول الجوهرى ولا أبالى
تزكت نفسه فعلت علوا	فجاءتها الحقائق بامتثال
على جثمانها غلبت فكانت	لها أحكامها لا للخيال
رأى بالجسم مبدأ كل شىء	و بالنفس اجتلى غيب المآل
وحظ النفس عند الجسم نزر	وعند تغلب حظ الكمال
وان الله برهن للبرايا	بآيات تدوم على التوالى
ولكن عميت زمنا لأمر	وصار قريبها صعب المنال
وغشى وجهها مركوم سحب	فصاروا فى ظلام أو ضلال
وظنوا الشمس اذ زالت أتاها	من الرحمن تكوير الزوال
وما علموا بأن الشأو ناء	وأن الشمس صاحبة انتقال
فان هى لم تكن طلعت بشرق	تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران فى الدنيا جميعا	كما الخصمين كانا فى سجال
بدت بالغرب دهرا فاستبانوا	أعاديهم ففازوا فى القتال
فلما أثروا فينا انتبهنا	وأودى الضعف بالاسل الطوال

وليس لنا من الضوء المزجى سوى سم الخياط لدى النضال
أصاب الجوهرى به فأنمى كما ينمى المصيد لدى الحبال
هو النظارة الكبرى تريه الا أمور بعينها لا بالمثال
فأدرك وحده الغرب ابتغاء فعقل العرب منه فى عقال
ولولا آية فيه لشرق لدام مجهلا فى شر حال
كأن الله آثره فأضحى وما وافت بمشبهه الليالى
درى سر الكتاب وكان غيبا فباح بسره قبل السؤال
و بوح السر أقبح ما نراه اذا لم يلف فى شرف الخصال
فشوق نفس كل نحو علم فكان مقاله فوق المقال
وقد أبدى بحسبان كمينا يوصل سافلا منها لعال
وفكر فى السموات افتكارا وجلوز شمسهن مع الهلال
تبين ما حوى الافلاك مما جرى جهة اتصال وانفصال
و بعد تبين الأرضين حتى تبدت فى عوالمها الثقال
أرته جمادها فرآه حيا يسبح ربه بفصيح قال
أرته نباتها نضرا بهيجاً تزين بالنظام و بالجمال
أرته أعجم الحيوان يزرى بذى نطق عن العرب العوالى
أرته حقيقة الانسان فيها عجائب فوق أعداد الرمال
أرته النفس فى شرف خطير وأمراً آتياً من ذى الجلال
أرته سياسة الأمم الأواتى وراء سياسة الأمم الخوالى
أرته عجائب العمران طراً وشرعة ربها بين الموالى
فهذى تسع آيات كموسى ولكن نفعها بادى اقتبال
تكفلها كتاب منه سام منظمة كوعد منه خال
ألا يا جوهرى رعاك مولى أرادك للمعارف والمعالى
فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

التسدسة الثانية لسعادة الفاضل المرحوم يحيى بك قدرى مأمور إدارة أوقاف الحلمية من بحر المتدارك (الخبب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعذوبة ألفاظها ورونق أسلوبها ولصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا — لبنى الإسلام وللأمم
أو شئت الحكمة مستقياً — من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت — فى شعر يزهو بالحكم
يهدى الحيران ويرشده — لنظام الكون المنبهم
فيه التطبيق على حكم — من محكم تنزيل الحكم
فيه الآيات تعلمنا — ما فى الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا — لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وأنجمها — كنظام الشمس المبتسم
وثلاث مواليد وجدت — فى الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير — جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف — عن أهل العلم ذوى القلم
زانته براهين سطعت — كشفت عن سر مكتتم
قد صيغ الرشد بأسطره — كنجوم ضاءت فى الظلم
فالفضل لمنشى عنونه — بنظام العالم والأمم

فهرست الجزء الثانى
من نظام العالم والأمم

صفحة

الباب السادس

صفحة

الباب السابع

فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية الذين درسوا علم النفس

صفحة

صفحة

صفحة

الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣	١٣	الجهر	الجهاز
٧	١	الطائفة الثانية	الطائفة الثانية وفيها مبحثان (١) ظواهر علم التشريح (٢) وما يهم من الحقائق (١) أما ظواهر علم التشريح
١٣	١٥	يقرون على	يقرون
٢٣	١١	يحسبون	يحسَبُو
٢٤	٢	الكوا كب	الكوكب
٢٤	٢	من حرمان	مع حرمان
٢٩	١٦	المختف بهم	المختص بهم
٣٥	١١	المهمله	المهمة
٤١	٥	العقد	الفقد
٤١	٢٢	يخلصه	تخلصه
٤٥	٨	الكرنب والقنبيط	
٤٥	١١	والبطاطس	
٥٢	٢٢	يعوذه	يعوره
٥٥	١٩	الجذر	الجزر
٥٦	١٩	فيها	فيهما
٥٩	٦	من القلب	من الرئة
٧٩	٢	اليجيب	العجيب
٨٢	١١	كورنى	كورتى

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٩	٣	بالقبيح	القبيح
٩٨	١٤	تسعى	تسمى
١٠٢	١٦	فلو	فاذا
١٠٢	٢١	ما دامت	وما دامت
١٠٥	١١	العلم	العالم
١١٢	٣	العلوء	العلوم
١١٢	١٠	تكلف	تكفلت
١١٦	٧	متساويان	متساويين
١٢٩	١٠	احيل	حيل
١٣٤	٢٠	ثلاثة أمور	امرين
١٣٥	١٣	من درس العلوم	بدل درس العلوم
١٣٦	١٩	قبلها	مثالها
١٣٨	٢١	ادحضه	دحضه
١٣٩	١٦	وُيفعلون	وَيفعلون
١٤٠	٤	او الصورة	والصورة
١٤٠	٨	اوسع	ادمع
١٥٠	٣	واضَلّ	وأَصلُّ
١٦٢	١٩	دفع اللهَ	دفعُ اللهِ
١٦٤	٤	البائل	القائل
١٦٤	٤	قلائل	قلاقل
١٦٧	٩	المدنية	المدينة
١٦٧	١٣	ما يرى	ما ترى
١٧٥	١٢	واليوم الآخرفهم فى	فى اليوم الآخرفهم

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٨٢	٨	الالفاظ	الا ألفاظ
٢٨٢	١٤	الاندلس اذلم	والاندلس لم
٢٨٣	١٣	متصرفة	منصرفة .
٢٨٣	١٥	يسيلهم	بسيلهم
٢٨٦	١٩	يهديني	يكفني
٢٨٨	١٨	بستوفي	يوفي
٢٨٨	٢٣	العقل	الفعل
٢٨٩	١	العقل	الفعل
٢٩١	١٧	و بسرعة	بسرعة
٢٩٤	٤	مسطر	مسطور
٢٩٩	١٢	وثمود	عاد وثمود
٣٠٠	٥	وماهي نظام	وما نظام
٣٠٢	٨	ان يفرأ	انه يقرأ
٣٠٣	٥	مني	متى
٣٠٣	٦	يتخيل	يخيل
٣٠٤	١١	ساجدون	سامدون
٣٢٢	١٢	أحاديث	وأحاديث
٣٢٢	١٧	علماءها	علماؤها
٣٢٣	٣	غفلتها	من عفلتها
٣٢٤	٢٠	اشاره اي	اشارة الى
٣٤٠	٢	توجد	يوحد
٣٤٢	٥	عنده	عندهم
٣٤٥	٥	يطاق	يطلق
٣٤٥	١٦	ذرات	ذوات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٤٦	٢	وإن كان ليس له مثال فى الشاهد	
٣٤٧	١٤	فكانوا ممن إلى قوله أهل اليقين	
٣٥٠	١	على	عليه
٣٥٢	٢٠	احتلال	اختلال
٣٥٧	١٠	لم تعن	لم تغنى
٣٥٨	١٩	الجلية	الجلبه
٣٥٨	٢١	اد	اذا
٣٥٩	٣	وترضع	وتغذى
٣٥٩	٢	لا بالمدارس	إلا بالمدارس
٣٦٠	٥	كاسبانيا	كالاندلس
٣٦٢	٧	التربيه فآخرواصل	التربيةفآخر فاضل
٣٦٣	٢١	مع الآحرة	. . . .
٣٧٤	١	والذين	الذين
٣٧٦	٢٠	جر	أحر
٣٧٦	٢٣	ناداهم	ناوأهم
٣٧٧	٢	الآيه	الأمة
٣٧٧	٧	لفرق	لعرف
٣٧٨	٥	يقص	نقص
٣٨٠	٢٢	فلو	فاذا
٣٨٠	٢٣	تسربوا	تربوا
١٨٢	٤	فى أحوالها	فى أحوالهم
١٨٦	١٠	ومزود	ومذود
٢٠٧	٧	فخيا	فخما
٢٢٤	١٦	بن نى	بن

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٢٥	٢	فاقبل	أقبل
٢٢٧	١٤	قبلوا	قتلوا
٢٣٤	٢٣	فتم ل	فتَّل
٢٣٨	٨	يملُك	يملِكُ
٢٣٩	١٧	حسران	حيرانْ
٢٤٢	٢١	الاية	الأمَّة
٢٤٣	٣	يكونوا	يكونون
٢٤٤	١٣	صار	جاء
٢٤٨	٩	يه دل	يدل
٢٤٩	٤	تنضرم	تتضرم
٢٥٣	٢٢	لانفاذ	لانفاد
٢٥٥	١٣	الشرق للغروب	الغروب للشرق
٢٦٠	١٣	لأنفسها	لا نفسها
٢٦٠	١	وأى	وأية
٢٧٣	٢	ممتزحتان	ممترحان
٢٧٣	٨	اتبعا	اتبعها
٢٧٦	٧	كالذى يكون مريضا	كالطبيب
٢٧٩	١	فاى	فأية
٢٧٩	٨	أو خسروا	وخسروا
٢٨٢	٦	عل	على